ليس هناك إله

كيف غَيَّرً أشهر ملحد رأيه؟

تأليف

أنتوني فلـــو

ترجمة/ الدكتور صلاح الفضلى

دولة الكويت
الطبعة الأولى
٢٠١٥ م - ١٤٣٦ هـ

الفهرس

الفصل	العنوان	الصفحة
	■ مقدمة المترجم	٥
	■ المقدمة	١١
	القسم الأول: إنكاري للمقدس	١٧
الأول	صناعة ملحد	٢١
الثاني	إلى حيث يقود الدليل	٤٥
الثالث	إعادة نظر في الإلحاد	٨١
	القسم الثاني: إكتشاف المقدس	٩٩
الرابع	حج العقل	١٠٣
الخامس	من كتب قوانين الطبيعة؟	١١٥
السادس	هل كان الكون يعرف بقدومنا؟	١٣٥
السابع	كيف حدثت الحياة؟	١٤٧
الثامن	هل تأتي الأشياء من لا شيئ؟	١٥٩
التاسع	إيجاد مساحة للإله	١٧٣
العاشر	المجال مُشرع للإله الكامل القدرة	١٨٥
	● **الملحق الأول: الإلحاد الجديد**	١٩١
	● **الملحق الثاني: الوحي الذاتي للإله في التاريخ البشري**	٢١٧



مقدمة المترجم

عندمـــا تخرجت من الولايـــات المتحدة قبل أكثر من ٢٥ ســـنة بتخصص علوم الكمبيوتر وعدت إلى الكويت كنت أنوي إكمال دراســـتي في الماجســـتير بتخصص علوم الكمبيوتر أو الرياضيات، ولكن لأن الصدف تلعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان فـــإن الصدفة لعبت دوراً كبيراً في دفعي نحو الفلســـفة، وقـــد حدث ذلك عندما التقيت بالدكتور غانم هنا وهو بروفيســـور فلسفة الأخلاق بقسم الفلسفة بجامعة الكويت، وذلك عندما دعاه أبن عمي أحمد لزيارتنا في البيت.

دعاني الدكتور غانم لحضور محاضراته في فلســـفة الأخلاق، وهذا ما حصل بالفعل حيث حضرت جميع المحاضرات ولم أفوت أياً منها طوال الفصل الدراسي، ورغم أنني كنت مجرد ضيف مستمع في المحاضرات فقد وجدتني أشارك بحماس في النقاشـــات الفلســـفية داخل قاعة المحاضرة. في تلك الفترة أكتشفت أن لدي ميولاً فلسفية، لأنني كنت مستمتعاً للغاية بحضور محاضرات فلسفة الأخلاق.

بعد فترة تفكير قررت أن أدرس الفلســـفة، ولكن كان هناك عائق أساسي، وهو أن نظام الدراســـة في الجامعة يشـــترط لمن يريد الدراســـة في مرحلة الماجستير أن يكـــون حاصلاً على درجة البكالريـــوس في نفس التخصص. كان الحل الوحيد أن اقوم بدراســـة مجموعة من المواد الفلســـفية كنوع من التمهيد لمدة ثلاثة فصول دراسية بنظام الدراسة المشـــروط، وهذا بالفعل ما حصل. خلال أخذي لمجموعة المقررات الفلســـفية تعرفت على البروفيســـور ميشـــيل متياس وهو الذي اعتبره

أفضل أســتاذ مر عليّ طوال مراحل الدراســة بجميع مســتوياتها، وكان يرعاني بشكل مكثف، وشجعني كثيراً على مواصلة الدراسة في مرحلة الماجستير، وهكذا التحقت بنظام الدراسة الرسمي.

خلال فترة الماجستير تعرفت على العديد من طلبة الماجستير والبكالريوس في قسم الفلسفة، وكان أحدهم شاباً متديناً خجولاً أسمه حسين وكان متفوقاً وذكياً، وبعد أن تخرج حســين من مرحلة البكالريوس تقدم للحصول على بعثة لدراســة الماجســتير والدكتوراة في الولايات المتحدة الأمريكيــة باعتباره تخصصاً نادراً لا يوجد من يقوم بتدريســه سوى أحد الأساتذة المصريين الذي كان قد بلغ من الكبر عتيــاً. مرت الأيام وقررت أن أعود إلى تخصصــي الأصلي في مجال الكمبيوتر لإكمال دراســة الدكتوراة وذلك لأن مجالات العمل في الفلســفة محدودة وبعثات الدراسة لدرجة الدكتوراة مقتصرة على من يكون تخصصهم الفلسفة في مرحلتي البكالريوس والماجستير معاً وهذه، من الأخطاء الشائعة في الأنظمة الجامعية في جامعاتنا العربية.

من بين الأشــخاص الذين تعرفت عليهم خلال فترة الماجستير الصديق العزيز الدكتور الشيخ مرتضى فرج، وكان صديقاً في نفس الوقت للشاب الخجول حسين الذي ذكرته فيما ســبق، وحين التقيت بالدكتور مرتضى في إحدى المرات ســألته عن حســين، فصمت قليلاً وبدا عليه التحسر، ثم أجاب بأن حسين لم يعد حسين الــذي كنا نعرفه، فقد تغير كثيراً، وتــرك التدين الذي كان عليه وحلق لحيته التي كان يعتز بها، وأصبح يلبس السلاســل والخواتم الذهبية، وأنه تغير فكرياً بشــكل كبير وأصبح أقرب إلى الإلحاد.

مع ثقتي الكاملة بكلام الدكتور مرتضى إلا أنني لم أستطع تصديق هذا التغير

الجذري الذي حصل لحسين. ولكن بعد عدة شهور علمت أن حسين أكمل الدكتوراة وعاد ليصبح استاذاً جامعياً في قسم الفلسفة، وصادف أن ذهبت في إحدى المرات إلى قسم الفلسفة للسلام على الاصدقاء القدامى من الاساتذة والطلاب فوجدت الدكتور حسين أمامي، وإذا به كما وصفه لي دكتور مرتضى. سلمت عليه وسألته عن أحواله وأحسست أنه يتجنب إطالة الحديث معي. بعد ذلك علمت أن الدكتور حسين لم يكتف بتحوله الفكري بل أصبح يؤثر على طلابه لتبني نفس أفكاره، وقد بلغتني شكوى عدد من أولياء أمور الطلاب الذين تغيرت بعض معتقداتهم بسبب تأثرهم بأفكار دكتور حسين وقد فكر بعضهم في تقديم شكوى ضده إلى إدارة الجامعة.

بعد سنتين تقريباً من ذلك، علمت أن دكتور مرتضى على وشك إصدار كتاب يفند به الشكوك التي تدور في أذهان العديد من الشباب حول المعتقدات الدينية وكيف يمكن مواجهة الأفكار التي تدفع الشباب إلى الإلحاد. بعد ذلك بفترة تكلمت مع دكتور مرتضى عن سبب «إضاعة» وقته في تأليف كتاب قليل الفائدة كوننا نعيش في مجتمع إسلامي تقليدي لم أسمع فيه من قبل عن حالات إلحادية. كان جواب دكتور مرتضى أن هناك موجة خطيرة منتشرة بين الشباب وهي التأثر بالأفكار الإلحادية من خلال مواقع إلحادية كثيرة على شبكة الإنترنت. في الحقيقة لم اقتنع بكلام دكتور مرتضى في ذلك الوقت واعتقدت أنه نوع من المبالغة. ولكن مع مرور الوقت بدأت أسمع عن حالات متعددة من الشباب الذي تغيرت افكارهم واتجهوا نحو الإلحاد، فبدأت أهتم بتتبع هذه الظاهرة، وبالفعل وجدت أنها أصبحت ملاحظة وملموسة والبعض يصرح بتوجهاته الإلحادية رغم آن هذا أمر غير مألوف في مجتمع محافظ مثل المجتمع الكويتي.

وفي يوم من الأيام وصلتني رسالة على الهاتف النقال من السيد علي ابوالحسن، وهو أحد الطلبة النابغين الذين يدرسون في مدينة قم الإيرانية، وفيها يطلب مني أن أساعده في ترجمة أحد الكتب المكتوبة باللغة الإنجليزية التي ترد على الاطروحات الإلحادية، وخيرني بين كتابين لاثنين من مشاهير الفلاسفة أحدهما كتاب «هناك إله» لمؤلفه انتوني فلو. في البداية أعتذرت عن المهمة لضيق الوقت، ولكن في فجر اليوم التالي جلست أفكر فيما اذا كان من مسؤليتي المساهمة في التصدي لظاهرة الإلحاد، وفعلا اقتنعت بأن عليّ أن أساهم في كبح جماح هذه الموجة، وعندها أبلغت السيد علي بموافقتي على القيام بالمهمة، وهكذا كان.

في البداية كنت اتوقع أن تأخذ عملية الترجمة وقتاً طويلاً، أولا لكونها التجربة الأولى لي في الترجمة، وثانياً لضيق وقتي وانشغالاتي المتعددة، ولكن بمجرد أن شرعت في عملية الترجمة وجدتني أقطع مراحل الترجمة بسرعة كبيرة، وبعد أن كنت أتوقع أن الوقت اللازم لإنجاز مهمة ترجمة الكتاب لن يقل عن ثلاثة أشهر على اقل تقدير وجدت أنني أنهيت ترجمة الكتاب ومراجعته وطباعته خلال عشرة أيام فقط.

أهمية هذا الكتاب تأتي بالدرجة الأولى من جهة مؤلفه، فكما يشير عنوان الكتاب الفرعي فإن المؤلف أنتوني فلو كان واحداً من أكبر الملاحدة في العصر الحالي. وبالتالي فإن تجربة فلو التي أستمرت أكثر من خمسين سنة في الإلحاد وكتابته للعديد من الكتب التي تؤيد الموقف الإلحادي وخوضه العديد من المناظرات التي تدافع عن الإلحاد ثم تحوله بعد كل هذه السنين إلى الإيمان بوجود الإله لابد أنه يضيف مصداقية كبيرة لما سيقوله في هذا الكتاب. ولد الفيلسوف البريطاني أنتوني ريتشارد فلو في فبراير من عام ١٩٢٣، وهو ينتمي إلى تيار الفلسفة

التحليلية، واشـــتهر بكتاباته في فلسفة الأديان، وقد قام بتأليف أكثر من ٣٠ كتاباً أغلبهـــا في محاولة دحض فكرة الدين وأشـــتهر عنه مقولته أن على المرء أن يظل ملحـــداً حتى يجـــد الدليل التجريبي على وجود الإله، غيـــر أنه وفي أواخر حياته غير قناعاته، وفي عام ٢٠٠٤ وخلال مناظرة فلسفية أعلن عن تحوله إلى التوحيد وتخليه عن الإلحاد، وقام بتأليف كتاب نســـخ فيه كل كتبه الســـابقة، وهو الكتاب الـــذي بين يدينـــا. على أثر إعلانه لتحوله عن الإلحاد، تعرض فلو لحملة تشـــهير ضخمة من المواقع الإلحادية في العالم، وذلك لأنه ولخمســـين عاماً كان يعتبر من أهم منظري الإلحاد في العالم، وقد شـــكل خبر تحوله إلى الفكر الربوبي صدمة قوية في وســـط الفكر الإلحادي في العالم. توفي الفيلســـوف أنتوني فلو في عام ٢٠١٠ عن عمر يناهز السابعة والثمانين.

قبـــل أن أنهي هذه المقدمة، أجد لزاماً علي أن أتقدم بالشـــكر الجزيل للدكتور الفاضل والصديق الصدوق الشـــيخ مرتضى فرج علـــى مراجعته الدقيقة لترجمة الكتاب، والذي بسبب دقته الشديدة وحرصه على ألا تفوته شاردة ولا واردة تأخر صـــدور الكتاب شـــهرين كاملين، لأنه لـــم يترك لا همزة ولا فاصلـــة إلا أحصاها وعدها عدا.

في الختام، أريد أن أقول أنني أقدم للقراء هذا الكتاب بنسخته المترجمة، على أمل أن يكون هذا الجهد مفيداً لشـــبابنا الحائـــر، الذي تتعرض معتقداته الدينية للهجوم بســـبب ضعف مناعة الدفاعات العقائدية لديه، مما يؤدي أبســـط هجوم فكري عليه إلى إختلال في تفكيره وهو ما يقود في الكثير من الحالات إلى الوقوع في مســـتنقع الضياع الفكري القاتل، نتيجة لســـيل الشـــبهات التي تغزو عقله من إتجاهات عدة، دون أن يكون لديه مصدات تمنع عنه غائلة هذه الشبهات.



المقدمة

هناك إلـه

كيف غَيَّرَ أشهر ملحد رأيه؟

منــذ أن أعلنت عن «تحولي» إلى الإلوهية طُلب مني في مناســبات كثيرة جداً بيان أسباب تغيير وجهة نظري، أشرت في عدة مقالات متتابعة وكذلك في مقدمة طبعة عام ٢٠٠٥ من كتابي «الإله والفلســفة» God and Philoaophy إلى الأعمال الحديثة المتعلقة بالنقاش حول وجود «الإله»، ولكنني لم أبين وجهة نظري في ذلك. أما الآن فقد وصلت إلى قناعة بأن أعرض ما يمكن تســميته وصيتي وشــهادتي الأخيــرة، وباختصــار وكما يدل عليــه عنوان الكتاب فأنا أعتقــد الآن بأن هناك إلهاً.

عنوان الكتاب الفرعي «كيف غَيّرَ أشــهر ملحد رأيــه؟»[1] لم يكن من اختياري، ولكننــي مع ذلك ســعيد بتوظيفه باعتباره مــن العناوين الجذابــة. لقد قام أبي اللاهوتي في إحدى المــرات بتحرير مجموعة من مقالاته ومقالات بعض تلامذته الســابقين وضمّنها كتابا جدلياً وعنون هذا الكتاب بعنوان متناقض ولكنه مناسب وهو «كاثوليكية البروستانتية»[2]. وسيراً على النمط نفسه في طريقة العرض قمت بنشر أبحاث بعناوين مشابهة مثل « القيام بالخيرات ليس أمراً خيراً» و «هل رهان باسكال Wager Pascal's هو وحده الرهان الآمن؟»[3].

(1) How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind.

(2) The Catholicity of Protestantism

(٣) رهان باســكال: حجة مبنية على نظرية الاحتمالات ونظرية القرار وتســتخدم للاحتجاج بضرورة إتخاذ قرار بشــأن الإيمــان بوجود الله على الرغم من عــدم إمكانية إثبات وجوده أو عدم وجــوده عقلياً. بليز باسكال هو من صاغ الحجة.

وفي البداية لابد أن أكون واضحاً، فعندما أنتشـــرت أخبار تحولي في وســـائل الإعلام وعلى شـــبكة الإنترنت ســـارع بعض المعلقين إلى الادّعـــاء بأن تقدمي في العمر أثّرَ في عملية تحولي، لقد قيل: إنّ الخوف تراكم في عقلي بقوة، وقد انتهى هؤلاء المنتقدون إلى أن توقعات الدخول إلى عالم ما بعد الموت حفزت لدي «تحول فراش الموت» Deathbed conversion. من الواضح أن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا مطلعـــين على كتاباتي عـــن اللاوجود بعد الموت، وهم ليســـوا مطلعين كذلك على آرائي الحالية حول هذا الموضوع[1].

خلال أكثر من خمســـين سنة لم أنكر وجود إله فحسب، بل أنكرت أيضاً وجود حيـــاة بعد الموت، ومحاضراتي التي نشـــرت في كتاب «منطـــق الفناء» والتي تمثل خلاصـــة عملية التفكير هذه شـــاهد على ذلك. هذا الأمر هـــو من ضمن الأمور التي لـــم أغير وجهة نظري فيها، وقد كان ذلك واضحاً في هذا الكتاب من خلال مســـاهمة رايـــت N. T. Wright's في الملحق الثانـــي. أود أن أضع حد لكل هذه الشائعات التي وضعت موقفي في إطار رهان باسكال. وعليّ أن أشير إلى أن هذه ليست المرة الأولى التي أُغَيّر فيها وجهة نظري في قضية رئيسية.

إلـــى جانب أمور أخرى غيرت رأيي فيها ربما يندهـــش القراء الملمين بدفاعي المســـتميت عن الأسواق الحرة عندما يعلمون أنني كنت ماركسياً (للتفاصيل، أنظر الفصـــل الثاني من هـــذا الكتاب). وقبل عقدين من الزمـــن تراجعت عن قناعاتي السابقة بأن اختيارات الإنسان محكومة بنحو شامل بواسطة أسباب مادية.

بما أن هذا الكتاب يتكلم عن ســـبب تغيير وجهـــة نظري بخصوص وجود الإله فإن الســـؤال الواضح ســـوف يكون «ماذا كانت وجهة نظري قبل التحول؟ ولماذا؟»،

(١) تعبير إنجليزي عن ظاهرة اعتناق معتقدات إيمانية قبل الموت بقليل لدى بعض الناس.

الفصول الثلاثة الأولى في الكتاب ســوف تخصص للإجابة على هذا السؤال، أما الفصول الســبعة الأخيرة فسوف تبين عملية اكتشافي للإله. وعند تهيئة الفصول الســبعة الأخيرة لابد أن أبين أنني اســتفدت كثيراً من النقاش مع البروفيســور ريتشــارد Richard Swinburne والبروفيسور برايان ليفتو Brian Leftow أستاذي الكرسي السابق والحالي في جامعة أكسفورد.

هناك ملحـقان مضافان للكتاب، الملحق الأول هو تحليـل لما يســمى الإلحادية الجديدة لريتشــارد ديكنز Richard Dawkins وأخريــن [1]، وقد كتبه روي أبرهام فارغيــر Roy Abraham Varghese، أمــا الملحـق الثاني فهو عــن النقاش الدائم البالغ الأهمية للمؤمنن بالديـن حول وجود نـوع مـا من الوحـي الإلهـي في التاريـخ البشري، مع تركيـز خاص على الادعاء المتعلـق بمسيح الناصرة Jesus of Nazareth، وللمهتمين بالاطلاع على المزيد في هذا الموضوع فإن الباحث المتخصص في العهد الجديــد رايت N. T. Wright وهــو أســقف دُرام Durham الحالي قدم تقييمه للحقيقة التاريخية التي يقوم عليها الإيمان المسيحي بالسيد المسيح، وفي الحقيقة يجب أن أقول: إن الأســقف رايت قدم حسب اطلاعي أفضل رؤية لقبول الاعتقاد المسيحي في هذا الشأن.

لعل من المناســب أن أذكر شيئاً عن شهرتي كملحد -وهو ما يشير إليه العنوان الفرعــي للكتاب -، لقد كانت أولى أعمالي المعارضة للألوهية في عام ١٩٥٠ عبر الورقة البحثية «اللاهوت والتكذيب» Theology and Falsification، وقد أعيد طبـع

(1) new atheism of Richard Dawkins and others.

هـــذه الورقة البحـثية في كتاب «مقـالات جديدة في اللاهـوت الفلســفي» New Essays in Philosophical Theology عــام ١٩٥٥ وهـي مقتطفات قمت بتحريرها بالاشتراك مع السدير ماكلانتير Alasadair McClntyre، لقد كان كتاب «مقالات جديدة في اللاهوت الفلسفي» New Essays in Philosophical Theology محاولة لقياس التأثير على المواضيع اللاهوتية والتي سميت فيما بعد «ثورة في الفلسفة» revolution in philosophy.

الاســهام الثاني المهم كان كتاب «الإله والفلسفة» God and Philosophy، وقد نُشــر لأول مرة عام ١٩٦٦، وأعيد نشــره في الأعوام ١٩٧٥، ١٩٨٤، ٢٠٠٥. وفي مقدمــة طبعة عام ٢٠٠٥، كتب بول كيرتــز Paul Kurtz، وهو أحد أكبـر الملاحدة فــي عصرنا الحالــــي، وهـو أيضاً مؤلـــف كتـاب «البـيان الإنســانـي الثاني» Humanist Manifesto II، أن دار النشــر يسرها أن تقدم ما أصبح يعرف بفلسفة الدين التقليدية.

وتبع نشـــر كتــاب «الإلـه والفلســفة» نشـــر كتـــاب «فرضيــة الألحــاد» The Presumption of Atheism عــام ١٩٧٦، والذي طُبــع بعنوان «الإله، الحرية، والخلــود» God، Freedom and Immortality، وكان ذلــك في الولايات المتحدة الأمريكيــة فــي عام ١٩٨٤. أما بقيـــة المؤلفات المتعلقة بالموضوع فهي «فلســفة هيوم في الإعتقاد والمنطق واللغة» Hume'sPhilosophy of Belief and Logic and Language، و «مدخل إلى الفلسفة الغربية: أفكار وحجج من أفلاطون إلى سارتر والتطور الداروينى» An Introduction to Western Philosophy، و«منطق الفناء» Logic of Mortality.

في الحقيقة، إنه لمن المفارقات أن أول حجة منشـــورة في تأييد الإلحاد قُدمت

لأول مرة في ندوة عن أعظم المدافعين عن المسيحية، وعقدت في النادي السقراطي ورأس النـــدوة لويس C.S. Lewis، والمفارقة الثانية هــي أن والدي كان أحد قادة التبشــير في إنكلترا، ويضاف إلى ذلك أنني في بداية حياتي العملية لم يكن لدي اهتمام خاص بأن أصبح فيلسوفاً محترفاً.

بما أن كل الأشياء الحسنة -إذا لم تكن كل الأشياء دون استثناء- لابد أن تصل إلى نهاية فإنني ســوف أنهي كلمات المقدمة هنا وأتــرك للقراء أن يقرروا ما هي أسباب تغيير وجهة نظري فيما يخص السؤال عن الإله.

(١) كاتــب وباحــث إيرلندي وُلد في عام ١٨٩٨ وتوفــي في عام ١٩٦٣. تنوعت اهتماماتــه بين أدب القرون الوسطى وعلم العقائد في المسيحية والنقد الأدبي والبث الإذاعي والعلاقة الافتراضية بين الخير والشر، بالإضافة إلى سلســلة الأطفال الشــهيرة التي كتبها، ســجلات نارنيا، وكتب خيالية أخرى مثل رســائل سكروتيب وثلاثية الفضاء.



القسم الأول

إنكاري للمقدس



الفصل الأول

صناعة ملحد



صناعة ملحد

لم أكن ملحداً على الدوام، فقد بدأت حياتي كمؤمن، نشــأت في بيت مسيحي، ودرست في مدرسة مسيحية خاصة، وفي الحقيقة أنا أبن لمبشر مسيحي. والدي كان نتاجاً لكلية ميرتون في أكسفورد، وكان هو المسؤول الديني في الكنيسة المنهجية التابعة للكنيسة البروتسانتية، وليس في كنيسة إنجلترا الكاثوليكية. ورغم أن قلبه ظــل تبشــيرياً Evangelism على الــدوام فإن ذكرياتي الأولى عنــه أنه كان يعمل مرشــداً في دراسات العهد الجديد في كلية اللاهوت المنهجية في كامبردج، وبعد ذلــك أصبح رئيســاً للكلية، وبعد ذلك تقاعد وتوفي فــي كامبردج. بالإضافة إلى مســؤولياته التبشيرية والتدريسية، اضطلع والدي بمهمة ممثل للمدرسة المنهجية Methodist [1] في عدد من المنظمات الكنســية، كما أنه رأس لفترة واحدة مدتها سنة كل من المؤتمر المنهجيوالمجلس الكنسي الفيدرالي الحر.

يصعب عليّ تذكر أو تشخيص أية إشارات في مرحلة صباي تدل على قناعاتي الإلحادية اللاحقة. في شــبابي درســت في مدرسة كنغزوود في مدينة باث Bath وهي المدرســة التي تعرف إختصاراً K.S، ولحسن الحظ كانت –ولا تزال– مدرسة عموميــة. لقــد تم إنشــاؤها من قبل مؤسس الكنيســـة المنهـجية جـون وسلي John Wesley من أجل تدريس أبناء المبشرين التابعين له. التحقت بمدرسة كنغزوود بالتزام ديني فاتر، ولم أجد أي مغزى للعبادة، وكنت بعيداً عن الاستمتاع والمشاركة

(١) إحدى الكنائس البروتستانتية التي تستمد توجيهاتها من جون ويسلي.

في غناء الترانيم، ولم يحدث أبداً أن قرأت شـــيئاً في الأدب الديني بنفس الشوق الذي كنت أقرأ به كتب السياسة والتاريخ والعلوم وبقية المواضيع.

كان الذهـــاب إلى الكنيســـة وترديد الصلوات وبقية الطقوس الدينية بالنســـبة لي بمثابة مســـؤولية ثقيلة، ولم أشعر على الإطلاق برغبة ولو قليلة بالاقتراب من الإله. لا أستطيع أن أجيب لماذا كنت غير مهتم بالطقوس الدينية وبقية الأمور التي شـــكلت حياة والدي. ببساطة.. لا أتذكر أنني كنت أشعر باهتمام أو حماسة لهذه الاحتفالات، ولم يكن عقلي مأسورا ولا «قلبي مولعاً» (حسب تعبير ويسلي الشهير) بالدراسة الكنسية أو بالعبادة، ولا أدري إذا ما كانت عدم حماستي للدين في أيام شـــبابي سبب أم نتيجة؟ ولكن أســـتطيع القول أن أي قدر من الإيمان كان موجوداً لدي عندما دخلت مدرسة كنغزوود كان قد تلاشى عندما تخرجت منها.

نظريــة في المــأل
A Theory Of Devolution

لقد قيل لي: إن مجموعة بارنا Barna Group - وهي منظمة مسـيحية لقياس إنطباعـات الرأي العام- توصلت من خلال اسـتبياناتها إلى نتيجة مفادها أن ما تؤمن به في عمر الثالثة عشرة من عمرك هو ما ستظل تؤمن به حتى موتك. بغض النظـر عن صحـة هذه النتيجة من عدمها، فإننـي أدرك أن القناعات التي كانت لدي عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري بقيت معي في أغلب سنوات حياتي، فقط لا أتذكر بالتحديد متى وكيف بدأ التغيير، ولكن بالتأكيد -كما هو الحال مع أي إنسـان يفكر- فإن عوامل عدة تلعب دوراً فـي تكوين معتقداته، ليس أقلها ما أسـماه إمانويل كانت Immanuel Kant «الرغبة الجامحة للعقل بعدم الإستسلام للتبشـير»، وهو ما أعتقد أنني أشـترك فيه مع والدي. أنا وهو نشترك في ميلنا الطبيعـي لاتباع «طريق الحكمة» كما وصفها الفيلسـوف كانت «إنها الحكمة التي لها خاصية إختيار المسـألة التي يكون حلها مفيداً للجنس البشري من بين عدد لا حصر له من المسائل التي تعرض أمامنا».

معتقدات والدي المسيحية أقنعته بأنه لا يوجد شيئ «أهم للجنس البشري» أكثر من توضيح ونشـر وتطبيق الحقائق الموجودة في العهـد الجديد. رحلتي الفكرية قادتنـي لاتخاذ اتجاهات عـدة، ولكن كل منها كانت تنطوي علـى الرغبة العقلية الشديدة، وهو ما أشترك فيه مع والدي.

أتذكر أيضاً أنني اسـتفدت كثيراً من تذكير والدي لي في أكثر من مناسبة بأن علماء الإنجيل عندما يريدون استيعاب مفهوم ما من العهد القديم فإنهم لم يكونوا

يبحثون عن الجواب ببساطة من خلال التفكير فيه بمفردهم، وإنما كانوا يجمعون ويفحصون أكبر قدر من النصوص يمكن أن يجدوه.

هذا الأسـلوب البحثي شكل من عدة أوجه الأساس لدراستي الفكرية - والذي لازلت محافظا عليه - في تجميع وفحص كل المعلومات التي لها علاقة بالموضوع. إنـه من الأمـور التي تدعو للدهشـة أن مالك البيت الذي نشـأت فيه غرس فِيَّ الحماسة للبحث الناقد، وهو ما قادني بعد ذلك إلى رفض إيمان والدي.

وجـــه الشيـطان
The Face Of Evil

لقـــد قلت في بعــض كتاباتي الإلحادية المتأخرة أنني وصلت إلى نتيجة بشـــأن عدم وجود إله بصورة متعجلة جداً، وبشـــكل مبســـط جــداً، والذي تبين لي فيما بعد أنها كانت أســـباباً خاطئة. لقد كررت اســـتخدام هذه النتيجة الخاطئة بشكل متكرر ومفصل في مناقشـــاتي وكتاباتي، ولكن بعد ســـبع سنوات من ذلك، لم أجد أي أساس كاف لتســـويغ هذا الموقف الأصولي. أحد الأسباب المبكرة لتحولي إلى الإلحاد كان مشكلة وجود الشرور في العالم.

لقـــد كان أبي يصطحبني أنا وأمي في رحلة صيفية كل ســـنة، ولم يكن ممكناً القيام بهذه الرحلات إعتماداً على راتب والدي كمشـــرف ديني لوحده. لقد أمكن القيـــام بهذه الرحلات لأن والدي كان يقوم بمســـاعدة طلبـــة الثانوية في مراجعة دروسهم في بداية فصل الصيف، وكان يتقاضى أجراً مقابل ذلك. لقد كان السفر بالنســـبة لنا ممكناً وبنحو رخيص نظراً إلـــى أن والدي كان يتكلم الألمانية بطلاقة بعد أن درس اللاهوت لمدة ســـنتين في جامعة ماربورغ الألمانية قبل الحرب العالمية الأولـــى، ولذلك كان بمقدوره أن يأخذنا في أثناء العطـــلات في رحلة إلى ألمانيا، ومرة أو مرتين سافرنا إلى فرنسا دون الحاجة إلى الاستعانة بمكتب سياحي. كما أن والـــدي كان قد تم تعيينه كممثل للكنيســـة المنهجية في عدة مؤتمرات لاهوتية دولية، وقد اصطحبني – وأنا ولده الوحيد– مع والدتي كضيوف غير مشاركين في هذه المؤتمرات.

لقد تأثرت كثيراً برحلات الســـفر الخارجية في الســـنوات التي سبقت الحرب

العالميــة الأولى، ولازلــت أتذكر بوضوح اللافتات والعلامــات المعلقة خارج القرى الصغيــرة مكتوباً عليها «لا يســمح بدخول اليهود»، وأتذكر أيضــاً أنه كانت تعلق لافتات خارج مدخل المكتبات العامة تقول «لا تسمح لوائح المؤسسات بإعارة الكتب لليهود»، وشاهدت أيضاً عرضاً عسكرياً لعشرة آلاف من أصحاب القمصان البنية فــي إحدى ليالي بافاريــا الصيفية. لقد مكنتني رحلاتــي العائلية أيضاً من رؤية مجموعات من جماعة وافن Waffen SS بلباسهم الأسود وقبعاتهم المرسوم عليها صورة جمجمة وعظمين متقاطعين.

هذه التجارب رسمت مخيلتي في مرحلة الشباب وشكلت لي -كما هو الحال مع الكثيرين- تحدياً حول وجود إله محب يمتلك القوة الكاملة، ولا أستطيع أن أقيس درجــة تأثير ذلك على تفكيري، هذه الخبرات إذا لم يكن ســواها أيقظت داخلي الوعي بثنائية الشــياطين وهما معادية الســامية [١] AntiSemitism والشمولية [٢] Totalitarianism.

---

(١) معاداة الســامية أو معاداة اليهود هو مصطلح يعطى لمعاداة اليهودية كمجموعة عرقية ودينية وإثنية. تم أســتعمال المصطلــح لأول مرة من قبل الباحث الألماني فيلهم مار لوصــف موجة العداء لليهود في أوروبا الوسطى في أواسط القرن التاسع عشر.

(٢) الشمولية هي طريقة حكم ونظام سياسي يمسك فيه حزب واحد بكامل السلطة، ولا يسمح بأية معارضة فارضاً جمع المواطنين وتكتيلهم في كتلة واحدة. وبعبارة أخرى فإن الشــمولية أو نظام المجتمع المغلق هو مصطلح يشير إلى نظام سياسي تكون فيه الدولة تحت سلطة فرد أو فئة أو فصيل واحد ودون أن تعرف الدولة حدوداً لسلطاتها وأن تسعى بكل جد لتنظيم كل مظاهر الحياة العامة والخاصة ما أمكنها ذلك.

مكان مفعم بالحيوية

An Enormously Lively Place

أن تتربى خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين في بيت مثل بيتنا -ينتمي للطائفة المنهجية- يعني أنك تعيش في كامبردج ولكن لا تنتمي لها. بدايةً.. اللاهوت لم يعد مقبولاً على أنه «ملكة العلوم»، وكما هو الحال في باقي المؤسسات كما لم تكن هناك كلية للتأهيل الديني في أجواء الجامعة، وكنتيجة لذلك لم أكن معروفاً بإرتباطي بكامبردج، على الرغم من أن والدي شعر وكأنه في بيته هناك، وعلى كل حال فإنه في عام ١٩٣٦ وعندما بدأت بالترقي في المدرسة فإنني نادراً ما كنت أقيم في كامبردج خلال فترة الدراسة، ومع ذلك فإن مدرسة كنغزوود كانت في أيامي مكاناً يعج بالحياة، وكان يرأسها رجل يستحق أن يُقَيّم باعتباره واحداً من أفضل مدراء المدارس. قبل قدومي إليها بسنة، حصلت المدرسة على جوائز في أكسفورد وكامبردج في مؤتمرات المدارس أكثر من أية مدرسة أخرى، ولم يكن نشاطنا المدرسي يقتصر على قاعات الدراسة والمختبرات فقط.

عندما تكون في مثل هذه البيئة المثيرة فإنه ليس مدعاة للدهشة لأحد أنني بدأت في التشكيك بالإيمان الصارم لوالدي، وهو الإيمان الذي لم أشعر بأي إرتباط عاطفي قوي تجاهه. عندما كنت في الصف السادس العلوي (يماثل الصف الثاني عشر في النظام الأمريكي) كنت أناقش مع زملائي في الصف بشكل متكرر فكرة الإله ذو القدرة المطلقة والخير المطلق، وعدم توافق هذه الفكرة مع وجود الشرور ونواقص العالم. عندما كنت في مدرسة K.S، لم تكن مراسم يوم الأحد المنتظمة تتضمن أية إشارة إلى مصير الإنسان في الجنة أو النار. عندما كان

ســاكيت A.B Sackett – مديراً للمدرســة، وكان في الوقت ذاته أسقفاً، وهو أمر غيــر معتاد في وقته– كانت كلمته دائماً ما تتعلق بعجائب وروعة الطبيعة. وعندما حل عيد ميلادي الخامس عشر كنت قد بدأت برفض فكرة أن الكون قد خلقه إله كامل القدرة والرحمة.

قد يسأل أحدهم عما إذا كنت قد فكرت باستشارة المرشد الديني حول شكوكي المتعلقــة بوجود الإله، ولكنني في الحقيقة لم أفعــل ذلك قط، ومن أجل الحفاظ على اســتقرار العائلة وبشــكل خاص علاقتي مع والدي حاولت قدر المستطاع أن أخفي عن الجميع في البيت تحولي نحو اللادين، وحسب ما أعتقد فإنني نجحت في ذلك لسنوات عديدة. ولكن بحلول يناير من عام ١٩٤٦، وحينما كنت في الثالثة والعشــرين من عمري أنتشر الخبر –ووصل إلى والدي– بأنني ملحد وأنني كذلك لا أؤمن بالحياة بعد الموت، وأنه لم يكن من المرجح أبداً عودتي عن قناعاتي.

لقــد كان تحولي كاملاً وصارماً بحيث إن النقاش في البيت حول هذا الموضوع كان ســيبدو نقاشاً عقيماً، ومع ذلك – فاليوم وبعد خمسين سنة من ذلك الوقت– فإنه يمكنني القول بأن والدي كان سيشــعر بالســعادة الغامــرة بقناعاتي الحالية المتعلقــة بوجود الإلــه، فعلى الأقل ســوف يعتبر أن ذلك يمثل مســاعدة عظيمة للكنيسة المسيحية.

أكسفورد مختلفة

A Different Oxford

من مدرسة كنغزوود انتقلتُ للدراسة في جامعة أكسفورد. وصلت إلى أكسفورد فـي يناير من عام ١٩٤٢، وكانت الحرب العالمية الثانية وقتها مشـتعلة. في أيامي الأولـى كطالب، وكنت حينها في الثامنة عشـرة من عمري، قمت بإجراء الفحص الطبي وتم بعد ذلك إلحاقي بشكل رسمي في سلاح الجو الملكي. في أيام الحرب تلك، كان مطلوباً من كل الشـباب اللائقين بدنيـاً أن يقوموا بالخدمة يوماً واحداً في الأسـبوع في أحد مراكز الخدمة، وبالنسـبة لي كان مركز الخدمة هو سرب الطائرات التابع لجامعة أكسفورد.

كانت الخدمة العسكرية لمدة سنة واحدة بنظام العمل الجزئي، وبعد ذلك تكون بنظام العمل الكلي، ولكن خدمتي العسكرية لم تكن ذات طابع قتالي. كانت الخدمة تتضمن تعلم بعضٍ من اللغة اليابانية في قسـم الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن، ومن ثَمّ القيام بترجمة الإشـارات اللاسـلكية التي يتم رصدها وفك شفرتها، وكان ذلك يتم في منطقة بلتشي بارك.

بعد استسلام الجيش الياباني عملت في ترجمة الإشارات اللاسلكية التي كانت تصدر من قبل الجيش الفرنسـي الذي كان قد أُنشأ حديثاً للسيطرة على المنطقة المحتلة وهي ما عرفت بالمانيا الشرقية بعد ذلك.

عندما عدت إلى نظام الدراسـة الكامل في جامعة أكسفورد في يناير من عام ١٩٤٦، كان علـيّ أن أتقـدم للاختبـار النهائي في صيف عـام ١٩٤٧، وجدت أن أكسـفورد التي عدت إليها أصبحت أكسفورد مختلفة. يبدو أنها أصبحت مؤسسة

أكثر إثارة مما كانت عليه عندما تركتها قبل ثلاث سنوات تقريباً. كان هناك العديد مــن الوظائف المدنية، وكانت هناك وظائف عســكرية كذلك، ولكنها كانت وظائف أكثــر أماناً مما كانــت عليه في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى. حضرت بعض المحاضرات في كلية الآداب الإنســانية، وقد كان يلقي بعض المحاضرات محاربون قدامى من الذين كانوا فاعلين في مســاعدة المقاومــة اليونانية في جزيرة كريت وعلــى الأراضي اليونانيــة، وكان الهدف من ذلك جعل المحاضرات أكثر تشــويقاً وتحفيزاً لطلبة البكالوريوس.

تقدمت للاختبار النهائي في الفصل الصيفي من عام ١٩٤٧، وقد كان مدهشــاً ومفرحــاً في ذات الوقت أنني حصلت على المرتبــة الأولى، وبعد أن حصلت على هذه المرتبة عدت إلى معلمي الخاص جون مابوت John Mabbott في كلية القديس جونز وقلت له: إنني تخليت عن هدفي السابق في العمل على الحصول على شهادة بكالوريوس ثانية في المدرســة التي شُــيِّدَت حديثاً في الفلسفة وعلم النفس، فأنا الآن أريد أن أكمل دراستي العليا في الفلسفة.

الأصبوحات الفلسفية
Waxing Phiosophic

قام مابوت بمساعدتي في الالتحاق بالدراسات العليا في الفلسفة تحت إشراف غلبرت رايل [1] Gilbert Ryle، والذي كان وقتها أستاذ مادة الميتافيزيقا في جامعة أكسفورد. كان رايل أحد أساتذة كرسي الفلسفة الثلاثة خلال الفصل الثاني من العام الدراسي ١٩٤٧-١٩٤٨.

بعد ذلك بسنوات، علمت عن طريق كتاب مابوت «ذكريات أكسفورد» Oxford Memories أنه ورايل كانا صديقين منذ أن التقيا لأول مرة في أكسفورد. لو كنت في كلية أخرى وسُئلت من قبل أستاذي الخاص عن الأفضل من بين الأساتذة الثلاثة لفضلت بالتأكيد هنري برايس Henry Price، وذلك بسبب اهتماماتنا المشتركة في علم ما وراء النفس، وهو التخصص الذي كان يسمى بالبحث النفسي في ذلك الوقت. ولذلك فإن كتابي الأول كان بعنوان «مقاربة جديدة إلى البحث النفسي» A New Approach to Psychical Research، وقد أصبحنا أنا وبرايس بعد ذلك متحدثين في المؤتمرات التي تعني بالبحث النفسي، ولكن أنا متأكد أنني لم أكن لأحصل على جائزة الجامعة في الفلسفة في تلك السنة لو كنت تحت إشراف برايس، لأننا كنا سنقضي الوقت في النقاش حول مواضيع الاهتمام المشترك بيننا.

بعد أن قضيت العام الدراسي ١٩٤٨ في الدراسات العليا في الفلسفة تحت إشراف رايل حصلت على جائزة التميز، وكانت عبارة عن منحة جون لوك للدراسة

(١) فيلسوف بريطاني نال شهرته عن كتابه مفهوم العقل (١٩٤٩)، وفيه قال أن الكثير من المعضلات الفلسفية نشأت من الخلط في تفسير المصطلحات اللغوية.

في تخصص الفلســفة الذهنية، وبعد ذلك تم تعييني بوظيفة محاضر في المجال التدريسي.

خلال الســنة التي قمت فيها بالتدريس في أكســفورد قمــت بتدريس كتابات الفيلســوف لودفيــج فتجنشــتين [1] Ludwig Wittgenstein وهو صاحب الاتجاه الفلســفي الذي أثّر فِيّ عند الدراسة في أكسفورد. نشرت هذه الكتابات بعد ذلك بعنوان «الكتاب الأزرق والكتاب البني» Blue Book، Brown Book و «محاضرات في الرياضيات» Lectures on Mathematics، وقد كانت مرفقة برسائل من فتجنشتين تشــير إلى نوعية القراء الموجهة لهــم، وكذلك نوعية القــراء الذين لا ينبغي لهم أن يقرأوها، وقمت أنا وأحد زملائي بنشــر نســخ من محاضرات فتجنشتين في أكســفورد، وجعلناها في متناول جميع من يرغبون بقراءتها. كنا نسأل كل شخص نعرف إهتمامه بالفلســفة في أكسفورد عما إذا كانت لديه مخطوطات لمحاضرات فتجنشــتين، وإذا كان الجواب «نعم» كنا نســأله عن المحاضرة المتوفرة لديه، ولأن مكائن التصوير لم تكن قد ظهرت في ذلك الوقت قمنا بتوظيف طبّاع للقيام بمهمة طباعة عدد نسخ كافية لتلبية حاجة من يطلبها.

تعرّف رايل على فتجنشــتين عندما زار الفيلسوف النمساوي جامعة كامبردج، وبعدها كوّن رايل علاقة صداقة مع فتجنشتين، وأقنعه بأن يقوما برحلة على الأقدام إلى منطقة بحيرة Lake District الإنجليزية في عام ١٩٣٠ أو ١٩٣١. لم ينشر رايل

---

(١) واحد من أكبر فلاســفة القرن العشــرين، ولد في فيينا بالنمســا ودرس بجامعة كمبردج بإنجلترا وعمل بالتدريس هناك. وقد حظي بالتقدير بفضل كتابيه «رســالة منطقية فلســفية» وتحقيقات فلسفية. عمل في المقام الأول في أسس المنطق، والفلسفة والرياضيات، وفلسفة الذهن، وفلسفة اللغة. اعتقد أن معظم المشــاكل الفلسفية تقع بســبب اعتقاد الفلاسفة أن معظم الكلمات أسماء. كان لأفكاره أثرها الكبير على كل من «الوضعية المنطقية وفلسفة التحليل». أحدثت كتاباته ثورة في فلسفة ما بعد الحربين.

أي وصف لهذه الرحلة وما الذي تعرف عليه أثناء صحبته لفتجنشـــتين، لكن بعد هذه الرحلة أصبح رايل يتصرف كوسيط بين فتجنشتين و «العالم الخارجي».

وكـم كانت هذه الوســاطة ضرورية فــي بعض الأحيان، وهذا ما يكشــف عنه التســجيل الذي يوثق لمحادثة بين فتجنشــتين –الذي كان يهوديا– وأخواته بعد أن أحتل جنود هتلر النمسا.

في هذه المحادثة، يطمئن فتجنشــتين أخواته بالقول «أنه وبســبب علاقاته مع الشــخصيات الرئيسية والعوائل الكبيرة في النظام السابق وعلاقته بالناس فإنهم جميعاً لن يتعرضوا لأي أذى»، ولاحقاً عندما أصبحت أســتاذاً للفلسفة كنت أكره أن أكشف لطلبتي أن فتجنشتين – والذي كنت أعتبره والكثير من زملائي فيلسوفاً عبقرياً– كان شديد الغرور في الأمور العلمية.

لقد كنت شاهداً شخصياً على سلوك فتجنشتين مرة واحدة على الأقل، وحدث ذلك عندما كنت في مرحلة البكالرويوس، وكان فتجنشتين يقوم بزيارة إلى جمعية جويت Jowett Society. كان موضوع المحاضرة المعلن هو «أنا أفكر إذاً أنا موجود»، والعنوان مأخوذ بالتأكيد من عبارة الفيلســوف الفرنســي رينيه ديكارت الشهيرة. كانت القاعة مكتظة بالحضور، والجمهور يصغي لكل كلمة يقولها الضيف العظيم، ولكن الشــيء الوحيد الذي أتذكره الآن أن المحاضــرة لم تكن لها علاقة واضحة بالعنــوان المعلن للمحاضرة، ولذلك عندما انتهى فتجنشــتين من محاضرته نهض البروفيســور ريتشــارد H. A Richard من مكانه، وكان بادياً عليه السخط، وسأل فتجنشــتين «يا فتجنشتين (ودكتوراه كامبردج لم يكن معترفاً بها في أكسفورد كما يبدو) مع ذلك أنا أفكر إذاً أنا موجود». وضع فتجنشتين أصبع سبابته على جبهته، واكتفى بالقول: إن عبارة «أنا أفكر إذاً أنا موجود» جملة غريبة جداً. كنت ولا أزال

أعتقد أن الرد الأنســـب على فتجنشـــتين كان ينبغي أن يُستوحى من أحد مشاهد المسلسل الكرتوني «الرجال والنساء والكلاب»، والذي يقول فيه أحدهم «ربما ليس لديك جاذبية يا ليلي، وإنما الذي تقوله مجرد ألغاز».

التصادم مع لويس

Locking Horns With Lewis

خلال الفترة التي كنت فيها طالباً في الدراسات العليا تحت إشراف غلبرت رايل، أصبحت أدرك أن من عادته أن يرد بشكل مباشر وجهاً لوجه على أي إعتراض يوجه لأيٍّ من أفكاره الفلسفية، ورغم أن رايل لم يحدثني بذلك ولا أي شخص آخر حسب علمي، فإن حدسي يقول إن رايل يتبع المقولة التي أوردها أفلاطون في كتابه «الجمهورية» -وهي المقولة التي تنسب إلى سقراط-، وفيها يقول «يجب أن نتبع الحجة أينما قادتنا»، وهذا المبدأ - ضمن أمور أخرى - يتطلب أن يتم نقاش أي إعتراض بصورة مباشرة وجهاً لوجه، وقد حاولت أن أطبق هذا المبدأ طوال حياتي الجدلية.

هذا المبدأ السقراطي شَكَّلَ عنصر تحفيز للنادي السقراطي، وهو عبارة عن مجموعة كانت فاعلة في المشهد الفكري في أكسفورد أيام الحرب. لقد كان النادي السقراطي مسرحاً لمناظرات بين الملحدين والمسيحيين، وقد كنت أشارك بانتظام في هذه الجلسات، وكان رئيس النادي في الفترة من ١٩٤٢ إلى ١٩٥٤ الكاتب المسيحي لويس C. S Lewis. كان النادي يعقد اجتماعه في مساء كل يوم اثنين في قاعة السرداب في كلية القديس هيلدا. أشار لويس في مقدمة العدد الأول من «مجلة سقراط» إلى عبارة سقراط «يجب أن نتبع الحجة إينما قادتنا»، وقد لاحظ لويس في هذه المقدمة أن هذه الحلبة المخصصة (النادي السقراطي) للصراع بين الإلحاد والمسيحية كانت أمراً بديعاً.

تصادم العديد من كبار الملحدين في أكسفود مع لويس وأتباعه المسيحيين، ولعل أفضل مناظرة حدثت بين الطرفين كانت في فبراير من ١٩٤٨ وكانت بين لويس Lewis واليزابيث أنسكومب Elizabeth Anscombe، وهي المناظرة التي جعلت لويس يعيد كتابة الفصل الثالث من كتابه «المعاجز» Miracles. لازلت أتذكر عودتي مع مجموعة من الأصدقاء بعد انتهاء المناظرة العظيمة، حيث كنا نسير خلف اليزابيث وأصدقاءها، وكانت مبتهجة وكذلك كان حال أصدقائها. فور الانتهاء من المناظرة، خرج لويس وحيداً وكان يمشي بأقصى ما يمكنه ليلجأ إلى غرفته في كلية ماغدن Magdden College التي كانت تقع بالقرب من المكان الذي كنا نقطع فيه الشارع.

رغم أن البعض أعتبر أن نتيجة المناظرة أثرت بشكل دائم على معنويات لويس، ولكن أنسكومب Anscombe ذاتها كانت تختلف معهم في ذلك. لقد كتبت لاحقاً: «لقد كان اجتماع النادي السقراطي الذي قرأت فيه ورقتي البحثية بالنسبة لمجموعة من أصدقاء لويس فظيعاً وصادماً وهو ما أدى إلى إحباطه بشكل كبير، ولكن لا الدكتور هارفرد Havard ولا البروفيسور جاك بينت Jack Bennett يتذكر أن مثل هذا الشعور كان بادياً على لويس ... أنا أميل إلى التحليل المناقض لهذا الاعتقاد من قبل أصدقائه ... باعتباره مثالاً جيداً على ظاهرة تسمى «الإسقاط»[1] ... لقد كان لويس أكثر المدافعين عن الدين المسيحي تأثيراً في الحقبة الأخيرة من القرن العشرين ... لقد سألتني هيئة الإذاعة البريطانية BBC عما إذا كنتُ قد دحضت دفاع لويس عن الدين بشكل كامل ... أجبت لا، أنا فقط لم أكن أعتقد أن هناك

---

(١) الإسقاط هي حيلة دفاعية ينسب فيها الفرد عيوبه ورغباته المحرمة والعدوانية أو الجنسية للناس حتى يبرء نفسه ويبعد الشبهات عنها.

أسباباً كافية للاعتقاد بذلك، ولكن عندما عدت للتفكير في الأمور اللاهوتية، بدا لي أن الوحي المسيحي قوي جداً إذا كنت تعتقد بالوحي من الأساس»(١).

(1) G. E. M. Anscombe, The Collected Papers of G. E. M. Anscombe, vol. 2, Metaphysics and the Philosophy of Mind (Minneapolis: University of Min (Minneapolis: University of Minnesota Prrss, 1981), x.

تطورات إيجابية جداً

Highly Positive Development

خلال الفصل الأخير لي في جامعة أكسفورد، نشر آير[1] A.J. Ayer كتابه «اللغة، الصدق والمنطق» Language، Truth and Logic، وهو ما أقنع عدداً من أعضاء النادي السقراطي أنه لا بد من تفنيد هرطقة آير في الوضعية المنطقية، والتي تقول أن كل الفرضيات الدينية لا أهمية معرفية لها، وأنها يجب أن تُدحض. بدا لي أن الورقة الإولى والوحيدة التي قدمتها للنادي السقراطي وكانت بعنوان «اللاهوت والتكذيب» Theology and Falsification قدمت ما أعتبرته تفنيداً كافياً، وأعتقدت حينها أنني حققت نصراً كاملاً، وأنه لا حاجة لأية مناظرة في المستقبل بهذا الخصوص.

ألتقيت في أكسفورد بأنس دونسون Annis Donnison، والتي أصبحت فيما بعد زوجتي. لقد تعرفنا على بعضنا البعض عن طريق أخت زوجتي التي دعتنا إلى إجتماع النادي العمالي في أكسفورد، وبعد أن تعرفت على أنس Annis لم أعد أعير إهتماماً لأي شخص في هذا الاجتماع سواها، وبعد هذا اللقاء أتفقنا أنا وأنس على أن نلتقي مرة أخرى، وكان ذلك اللقاء الوحيد الذي واعدت فيه فتاة على الإطلاق. كان وضعنا الاجتماعي مختلفاً عندما التقينا لأول مرة، حيث كنت

---

(١) ألفرد جول آير (Alfred Jules Ayer): فيسلوف بريطاني ولد في ٢٩ أكتوبر ١٩١٠ وتوفي في ٢٧ يونيو ١٩٨٩، أبرز علام الوضعية المنطقية. تمحورت أفكاره حول نقد الميتافيزيقيا بمختلف فروعها كاللاهوت و الجمال و الأخلاق [١]. حيث رأى أن الميتافيزيقيا لا يمكن التأكد من حقيقتها من خلال التجربة. كما أنكر بديهية الأحكام المتعلقة بالماضي، وذهب إلى أنها ليست كبداهة الحاضر، لأننا لا نتمكن من الرجوع إلى الوراء للتيقن من صحة ما وقع في الماضي، والنتيجة أننا لا يمكننا أن نثبت ذلك بطريقة علمية.

أقوم حينها بالتدريس في كنيســة مســيحية مخصصة للرجال فقط، بينما كانت أنس Annis في ســنتها الأولى كطالبة فـي كلية ســومرفيل Somerville College في أكســفورد، وهي الكلية التي كانت تقوم في ذلك الوقت بفصل كل طالب يُقدم على الزواج.

لقد كانت والدة زوجتي قلقة من قيام طالب دراسات عليا مثلي بمواعدة أبنتها التــي كانت تصغرني كثيراً، ولذلك ســأَلَت أبنها – وهو الذي أصبح بعد ذلك أخو زوجتي– والذي أكد لها أن إبعادي عن أنس ســوف يكسر قلبها. كنت أفترض على الــدوام أن أخا زوجتي يريد لأخته الصغيرة أن تُتْرك وشــأنها لتدبر أمور حياتها؛ لأنه كان يعرف أنها فتاة عاقلة وأنها محل ثقة وأنها لن تتخذ أي قرار طائش.

فــي ذلك الوقت كنت قد أبتعدت منذ فترة طويلــة عن إيمان والدي، ومع ذلك فإننــي طبقت ما كنت تعلمته من آبائي المنهجيــين، فلم أحاول قط أن أخدع أنس قبــل الزواج لأنني كنت أعتقد دائمــاً أن ذلك عمل غير أخلاقي. وكوني أيضاً ابناً لأكاديمــي لم أحاول إقناع أنس بالــزواج مني قبل أن تتخرج وتحصل على الدرجة العلمية. أســتمريت في العمل كمدرس غير متفرغ في الكنيسة المسيحية في عام ١٩٥٠، وفي نفس الوقت كنت قد بدأت في العمل كمحاضر في فلســفة الأخلاق بجامعة أبردين الاسكتلندية في أكتوبر من نفس العام.

ما بعد أكسفورد

Beyonf Oxford

خلال سنوات إقامتي في أبردين شاركت بعدة حوارات إذاعية، كما شاركت في ثلاثة أو أربعة نقاشات إذاعية كانت تُنظم من قبل البرنامج الثالث في إذاعة BBC، وقد شـــاركت كموضوع لتجارب نفسية متعددة. من الأمور التي جذبتنا إلى أبردين هو أننا أصبحنا أصدقاء لكل الذين قابلناهم تقريباً، وما جذبنا أيضاً لأبردين تنوع وقوة الحركة التعليمية فيها، ولكون أبردين مدينة جديدة بالنسبة لنا توفرت فرص عديدة للتنزه، ومنها الســير على الشواطئ وبالخصوص في منطقة كيرنجورمس Cairrgrones.

في صيف عام ١٩٥٤، غادرت أبردين في طريقي إلى أمريكا الشـــمالية لأصبح بروفيسور الفلســفة بكلية ســتانفورد Stanford College الشمالية والتي حصلت فيمـــا بعد على رخصة لتصبح جامعة كييل University of Keele، وخلال الســبعة عشـــرة عاماً التي قضيتها هناك، كانت جامعة كييل أقرب ما تكون المملكة المتحدة إلى كليات الآداب في الولايات المتحدة. سرعان ما كرست جهدي للعمل هناك، ولم أغادر جامعة كييل إلا عندما بدأت تفقد ببطء تميزها.

قضيت العام الأكاديمي ١٩٧٠-١٩٧١ كأستاذ زائر في الولايات المتحدة، ولكنني استقلت في نهاية عام ١٩٧١ من جامعة كييل وانتقلت في يناير من عام ١٩٧٢ إلى جامعـــة كالغاري بكندا. كان هدفي الأول أن أســـتقر هناك ولكن بعد ثلاثة فصول فقط انتقلت إلى جامعة ردينـــغ University of Reading، وبقيت فيها حتى نهاية عـــام ١٩٨٢، وقبل أن أتقدم بطلب التقاعـــد المبكر وأحصل عليه من جامعة ردينغ

وقعت على عقد للتدريس فصلاً واحداً كل سنة في جامعة يورك في مدينة تورنتو الكندية، واســتمر ذلك لآخر ســتة أعوام من حياتي الأكاديمية. في منتصف هذه المدة استقلت من جامعة يورك لكي يتسنى لي قبول دعوة مركز الفلسفة الاجتماعية والسياســية في جامعة باولنغ غرين بولاية أوهايو الأمريكية، وذلك للعمل كباحث متميــز، وقد تم تمديد الدعوة لثلاث ســنوات أخرى، وبعد ذلك تقاعدت بشــكل كامل، ومازلت أقيم في ريدنغ.

الخطوط العريضة لمســيرتي العلمية لا تُظهر لماذا أصبحت فيلســوفاً، وعطفاً علــى اهتمامي الفلســفي منذ كنت في مدرســة كنغــزوود كان يفترض أن أصبح فيلسوفاً محترفاً قبل وقت طويل من ذهابي إلى أكسفورد، بل حتى خلال الفصلين الذين قضيتهما في أكســفورد قبل أن ألتحق بســلاح الطيــران الملكي فإن أقرب مدى وصلت إليه من الفلســفة كان خلال إجتماع النادي الســقراطي. خارج نطاق أبحاثي ودراساتي، كانت إهتماماتي الرئيسية سياسية. وهذا الأمر أستمر إلى ما بعد يناير ١٩٤٦، حيث صارت المواضيع التي أدرســها تشــمل الفلسفة، وأول مرة شعرت فيها أن مجال عملي يمكن أن يكون في الفلسفة كان قبل أن أتقدم للاختبار النهائي في ديسمبر من عام ١٩٤٧.

فــي الفصلين القادمــين من هذا الكتاب، أحاول أن أفصل في الأســاس الذي أســتندت عليه لســنوات طويلة في معارضة فكرة وجود إله، وسأبدأ أولاً بالغوص في نصف قرن من الحجج الإلحادية التي كونتها وطورتها ثم بعد ذلك أستخدمتها، أما في الفصل الثالث فســوف أتتبع التحولات العديدة التي حدثت في مســيرتي الفلســفية، وبالتحديد تلــك التي يمكن تبينها من خلال المناظــرات المتكررة التي شاركت فيها في موضوع الإلحاد.

خلال كل ذلك آمل أن يتضح، كما ذكرت في السابق، أن أهتمامي الطويل بالدين لم يأت سوى من باب الحيطة والأخلاق أو ببساطة من باب الفضول. أقول «من باب الحيطة» لأنه إذا كان هناك إله أو آلهة لهم علاقة بأحوال البشـــر فإن من الطيش أن لا نحاول أن نقف في الجانب الذي يقف فيه هـؤلاء الآلهة، وأقـول: إن اهتمامـي «من باب الأخـلاق»؛ لأنني شـعرت بالسـعادة أن أجد ما قالـــه ماثيـو أرنولـد[1] Matthew Arnold «أن الخلود ليس لأنفسنا بل لما نفعله من أجل الخير» صحيحاً، وأقول: إن اهتماماتي كانت فضولية؛ لأن أي شخص صاحب عقلية علمية يجب أن يبحث قدر استطاعته لكي يتعرف على هذه المواضيع. ولعلّي بعد كل هذه السنوات أكثر شخص مندهش من تحولي من نفي وجود الإله إلى إثبات إكتشافه.

(١) ماثيو أرنولد (١٨٢٢- ١٨٨٨) شاعر وناقد وكاتب ومصلح تربوي إِنجليزي.

الفصل
الثانـــي

إلى أين يقود الدليل؟
Where the Evidence Leads



إلى أين يقود الدليل؟
Where the Evidence Leads

عندما سـرحت Alice بخيالهـا وهي تنظر في المرآة فـي رواية لويس كارول Lewis Carroll الشـهيرة ألتقت بالملكة التي ادّعت بأن عمرها ١٠١ سـنة وخمسة أشهر ويوم واحد

قالت Alice: لا أستطيع تصديق ذلك

قالت الملكة بصوت خافت: ألا تستطيعين؟ حاولي مرة أخرى، خذي نفساً عميقاً وأغمضي عينيك.

ضحكت أليس Alice وقالت: لا فائدة من ذلك، لأن الشخص لا يمكن أن يصدق أشياء مستحيلة.

قالـت الملكـة: أعتقد أنك لم تتدربـي على ذلك بالقدر الكافـي، فعندما كنت فـي عمرك كنت أقوم بذلك نصف سـاعة يومياً (**لأنـي كنت أعتقـد بالكثير من المستحيلات بقدر الأشياء الست المستحيلة قبل تناول طعام الإفطار**).

أحسـب أن عليّ أن أتعاطف مع أليـس Alice، وخاصة عندما أتذكر كيف تغير مسار حياتي ودراستي حتى بعد أن درست الفلسفة تحت إشراف غلبرت رايل. أنا واثق أن ما حصل لي لم يكن مرجحاً إن لم يكن مستحيلاً.

بالـكاد يمكنني تخيُّل أنني عندمـا قمت بتأليف كتابـي «اللاهوت والتكذيب» وخلال نصف القرن القادم سـوف أنشر خمسـاً وثلاثين كتاباً في شتى مواضيع

الفلسفة، ورغم شهرتي في الكتابة في موضوع وجود الإله، فإن ذلك لم يكن على الإطلاق مجال إهتمامي الوحيد.

على مر السنين كتبت في مواضيع تتراوح ما بين فلسفة اللغة إلى المنطق، من الفلسفة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية إلى فلسفة العلوم، ومن علم ما وراء النفس Parapsychology ومن التعليم إلى النقاش حول الجبر والاختيار وموضوع الحياة بعد الموت، وعلى الرغم من أنني أصبحت ملحداً في الخامسة عشرة من عمري وقيامي بتطوير اهتماماتي غير الفلسفية عندما كنت في مدرسة كنغزوود، فإن عملية إنضاج وترسيخ آرائي الفلسفية استغرقت سنوات، وفي ذلك الوقت توصلت إلى مبادئ إرشادية لم تتحكم في طريقة كتابتي وتفكيري فحسب، بل في الحقيقة قادتني في النهاية إلى عملية التحول الجذري من الإلحاد إلى الإيمان.

بعض آرائي الفلسفية تشكلت حتى قبل أن أدخل إلى مدرسة كنغزوود. لقد كنت معتنقاً الشيوعية في فترة تسجيلي في المدرسة، وقد استمريت كاشتراكي يساري نشيط حتى بداية الخمسينيات من القرن الماضي عندما استقلت من حزب العمال Labour Party، وهو الحزب الذي يمثل تاريخياً الحركة اليسارية في بريطانيا.

ما منعني من الاشـــتراك الواقعي في الحزب الشـــيوعي - كما كان حال بعض زملائي- هو سلوك الحزب الشيوعي البريطاني بعد المعاهدة الألمانية -السوفياتية عام ١٩٣٩ حيث كنت مراهقاً آنذاك. هذا الحزب الذليل والغادر بدأ بإدانة الحرب ضد ألمانيا الاشـــتراكية القومية (النازيين) باعتبارها حربـــاً «إمبريالية»، وكنتيجة لذلك لم يكـــن يعتقد بأن البريطانيون معنيين. أســـتمرت هذه الإدانات حتى عام ١٩٤٠ فـــي الوقت الذي كانت البلاد تتعرض لخطر الغزو. لكن ما سُـــمِّيَ بالحرب الإمبرياليـــة أصبح فجـــأة «حرباً تقدمية، حرب الشـــعب» (حســـب وجهة النظر الشـــيوعية) وذلك عندما غزت ألمانيا الاتحاد السوفييتي، وفي السنوات التي تلت ذلك، أصبحت أشـــكك بصورة متزايدة بالنظرية والممارســـة الشيوعية التي تقوم على فكرة أن التاريخ محكوم بقوانين شبيهة بقوانين العلوم الفيزيائية.

وفـــي هذه الفترة -وكما هو حال أقراني في مدرســـة كنغـــزوود- تعرفت على الكتابات التفســـيرية للكاتب جوود[1] Joad، وقـــد كان معروفاً في ذلك الوقت في

(١) فيلسوف إنجليزي، عمل على نشر الفلسفة في المجتمع البريطاني في فترة الحرب العالمية الثانية.

الوسط البريطاني بنقاشاته الإعلامية في المواضيع الفلسفية ونمط كتاباته المميز (قام بتأليف أكثر من ٧٥ كتاب). أكتشــفت من خلال قراءة أكثر كتب جوود مبيعاً أن بعضها مع الأسف فاقد للمصداقية فيما يتعلق ببحث ما وراء علم النفس، وهو ما يعرف في الوقت الحالي بالباراسيكولوجي.

أنــا أفترض أن كثيراً منا عندما يتقدم فــي العمر، ينظر إلى الوراء.. إلى فترة الشــباب بمزيج من الحنين والخجل، أنا متأكد أن هذه المشــاعر شائعة جداً، ومع ذلك ليس جميعنا لديهم سوء الحظ في توثيق ونشر بعض هذه الأمور المخجلة كما هو الحال معي.

إن إهتمامي بما وراء علم النفس (الباراســيكولوجي) قادني في عام ١٩٥٣إلى نشر أول كتاب لي كُتب بطريق سيئة لا تطاق، وفي عام ١٩٥١ قمت بكتابة وتوزيع أثنين من الحوارات التي تهاجم سوء الفهم المنتشر عن ظاهرة الخوارق المزعومة لما وراء علم النفس. نشر هذه الحوارات دفع أحد الناشرين للطلب مني تأليف كتاب في هذا الموضوع، والذي بدافع من الغطرسة الشبابية أسميته «النهج الجديد في البحوث النفسية» A New Approach to Psychical Research.

تناول الكتاب الحقائق المفترضة والمســائل الفلسفية المتعلقة بالباراسيكلوجي، ومما يشــفع لي في ارتكاب بعض الأخطاء في أســلوب الكتابة في هذا الكتاب أن الناشر أراد أن يكون أسلوب الكتابة على شكل مقالات مبسطة. ومع ذلك كانت هناك أخطاء جوهرية، فعلى المســتوى العملي أعتقــدت بصحة عمل الباحث والرياضي في جامعة لندن ســول Soal، وهو عمل تبين لــي فيما بعد أنه فاقد للمصداقية، وعلى المســتوى الفلسفي لم أكن قد اســتوعبت حينها أهمية الباراسيكولجي في الحجة التي قدمها الفيلســوف الأســكتلندي ديفيد هيوم في القســم X من كتابه

«التحقيق» Inquiry، ولكن بعد عقود من ذلك الوقت قمت بتجميع كتاب من مجموعة قراءات أعتبر أنها أفضل ما كُتب قبل ذلك الوقت في هذا الموضوع، وأسميت الكتاب «قراءات في المشكلات الفلسفية للباراسيكولوجي»[1] Philosophical Problems of Parapsychology. وفي مقدمة الكتاب لخصت الحلول التي ظهرت في تلك السنوات لهذه المسائل.

(1) Parapsychology

استكشاف اهتمامات جديدة

Exploring New Interests

برز لدي اهتمامان فلسفيان عبر القراءات العلمية في مرحلة شبابي. الاهتمام الأول كان يتمثــل في افتراض أن علم الأحياء التطــوري evolution biology قادر على ضمــان إحراز تقــدم، وهذا الافتراض ظهر بقوة في كتاب جوليــان هكســلي Julian Huxley «مقــالات عالم أحياء» Essays of a Biologist، وهو المقــترح الذي عمــل على تطويـــره بإصــرار بقيــة حياته في كتـــاب «الوقــت، النهر المتجــدد» Time، the Refreshing River، وفــي كتاب «التاريخ إلــى جانبنا» History Is on Our Side.

قام جوزيــف نيدهــام Joseph Needham بدمــج هذا الافتراض مع فلســفة التاريــخ الماركســية، وهو المذهب الــذي يقوم على أن قوانــين الطبيعة ناتجة عن تطــورات تاريخية، فالماركســيون يعتقدون أن هناك قوانــين عالمية – مثل حتمية الحــروب الطبقية– تحكم تقدم المجتمعــات، وكجزء من عملية دحض هذا الفكرة قمت – عندما دعيت في منتصف ١٩٦٠ للمشـــاركة في سلسلة «أفكار جديدة في الأخـــلاق» – بتأليف كتاب «الأخلاق التطوريـــة» Evolutionary Ethics (وكان ذلك ســـبباً في تأليف كتاب «التطـــور الداروني» عندما طُلب مني المشـــاركة في توثيق سلسلة الحركات والأفكار في بداية الثمانينات من القرن الماضي، وفي هذا الكتاب الأخير أردت أن أبين أن ما يســـتدعي إحترام الداروني أنها تجسد مثال للحفاظ على أفكار ومعتقدات تفتقر لأســـاس متـــين مثل أن الفكرة الداروني هي ضمان للتطور البشري).

اهتمامي الفلسفي الثاني نتج عن قراءتي للأدبيات العلمية المشهورة هو محاولة رســم استنتاجات باركلية (نسبة إلى الفيلسوف الإنجليزي باركلي Berkeley) على ضــوء تطور الفيزياء في القرن العشــرين. تنتمي البيركلية الجديدة إلى مدرســة فلسفية تســمى المثالية Idealism، والمثاليون يعتقدون بأن الواقعية الفيزيائية هي حقيقة عقلية صرفة، وأن ما هو موجود إنما هو العقول ومحتوياتها.

المصــدر الرئيســي لأفكــار هذه المدرسة هو أعمال السير جيــمس جيــنز Sir James Jeans والسير أرثر أدنغتون Sir Arthur Eddington. لقد كان كتاب «الفلسفة والفيزيائيــون» Philosophy and the Physicists لمؤلفته ســوزان ســتبنغ Susan Stebbing هو ما ساعدني في شق طريق للخروج من هذه الغابة (المثالية).

بعد ذلك بســنوات، حاولت في كتابي «مدخل إلى الفلسفة الغربية» أن أبين أن المثالية قاتلة للعلم، وقد أستشــهدت في الكتاب بفقرة من كتاب «العقل، الشــعور والعلم» Mind، Perception and Science لمؤلفه المميز عالم الأعصاب البريطاني اللورد رســل برايــان Russell Brain، والذي أوضح أن أطبــاء الأعصاب عادة ما يكونون مثاليين يعتقدون بأن فعل الإحســاس بموضوع ما هو ببســاطة حدث يقع في دماغ المســتقبِل subject's brain، كما أستشــهدت بادعاء برتراند رســل بأن «الإحساس لا يقدم خبرة مباشرة بالموضوع الفيزيائي»، قلت: لو كان ذلك صحيحاً فإنه ليس هناك شيء اسمه إحساس، ولا يخفى أن نتيجة هذا التفكير المثالي هي التقليل من قيمة الاكتشافات العلمية، إذ يعتمد العلماء – ويجب عليهم ذلك– على الملاحظة المباشــرة في تبرير إكتشافاتهم، فإســقاط تلك الملاحظات المباشرة عن الاعتبار يقتضي إنتفاء قيمة مشاهداتهم. باختصار.. إن هذا الرأي يزيل أسس كل الاســتدلالات العلمية، وكرد على هذا الرأي قلت: إنه لا بد في الإحساس الواعي

من تجربة حســـية (مثال: صوت وصورة المطرقة أثناء عملية إدخال المسمار)، وإذا كان هناك ثمة معطى حســـي صحيح فإن ذلك الشيء (المطرقة والمسمار) يجب أن يكونا جزءاً من إكتسابي لتلك الخبرة.

رؤية جديدة في الفلسفة

New Inishts in Philosophy

فـــي الفترة التي قضيتها في أكســـفورد ١٩٤٦-١٩٥٠، ظهـــر إتجاه جديد في الفلســـفة يُســـمى بعض الأحيـــان «ثورة في الفلســـفة»، وكان هذا الاتجـاه في أوج ازدهاره. عندما كنت في أكســـفورد قضيت ســـنتين في درجة البكالريوس وسنتين أخريين في درجة الدراســـات العليا وثمانية عشـــر شـــهراً كمدرس في الكنيســـة المســـيحية وخلال هذه الفتـــرة تعمقت كثيرا في هذه «الفلســـفة الجديدة»، والتي وصفها عدد من خصومها بأنها لغوية أو لغة دارجة.

كان أبرز الرموز الفلســـفية في أكســـفورد في ذلك الوقـــت غلبرت رايل وجون أوســـتن، وكما أشـــرت من قبل كان رايل المشرف على دراســـتي في الدكتوراة، أما أوستن فسنحت لي الفرصة للتعرف عليه بعد تعييني في الكنيسة المسيحية، حيث كنت قادراً على الحضور بشـــكل منتظم لما كان يعرف بنقاشـــات «صباح السبت»، والتي كانت تُعقد في مكتب أوستن في أكسفورد صباح كل سبت لمناقشة التطورات العلمية.

هذه التجربة الفلســـفية الأكســـفوردية في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضـــي قدمـــت لي مجموعة رؤى ذات قيمة - والتي مـــا زلت أعتقد بصحتها -، ولكـــن من بين هـــذه الرؤى أعتبر أن أهمها هي الرؤيـــة القائلة بأن علينا أن نكون علـــى وعي دائم بأنه طالما أن الفلســـفة هي بحث تصوري يجـــب أن تكون مهتمة بالاســـتخدام اللغوي الصحيح، فنحـــن لا يمكننا الوصول إلـــى التصورات إلا من خلال دراســـة الاســـتخدام اللغوي، ومن ثم استخدام هذه الكلمات لشرح وتوضيح

التصــورات. هذه الرؤية ذكرتني بالباحــث الإنجيلي الذي ذكرته من قبل (وعبرت عنه بوصف أبي) والذي كان يدرس العهد القديم بطريقة مميزة من خلال تجميع وفحــص أكبر قدر ممكن من النصوص التي يمكــن أن يعثر عليها والتي يمكن أن تساعده في فهم النص العبري.

باعتباره تطوراً في توجهي الفلسفي في تلك الأيام فإن اتجاه «الفلسفة الجديدة» لم يكــن جديداً جداً ولم يكن ضيقاً جداً كما قد يبدو في بعض الأحيان. «الثورة» كانــت تتعلق بالتركيز علــى النحو التصوري conceptual grammar، أي اســتخدام التصــورات باللغة الدارجة، وهي الدراســة التي تســاعد في تجنــب العديد من المشاكل في الفلسفة، وإحدى هذه المسائل تتعلق بما إذا كان بمقدورنا الوصول إلى المعرفة عن طريق التعرف على العالم الخارجي. تم صياغة هذه المسألة لأول مرة في القرن الســابع عشر من قبل ديكارت، وتم قبولها بعد ذلك دون تساؤل من قبل فلاسفة عظماء أمثال لوك وباركلي وهيوم وكانت، ولكن إتجاه «الفلسفة الجديدة» رفض هذه المشكلة من الشك الديكارتي من خلال رفضه لنقطة البداية التي تقول أن الفرد كيان غير مادي وأنه لا يملك ســوى تجربته الخاصة. هذا الاعتقاد كان يتعارض مع الافتراض المتضمن فــي خطاباتنا المتكررة والتي كانت تركز على أننا نحصل علــى المعرفة من خلال التعرف على العالم الفيزيائي وعلى بقية البشــر، وكمــا قلت فلم يكــن ذلك جديداً بشــكل كامل، إذ لو كان أفلاطــون[1] الذي كتب

(١) فيلســوف يوناني كلاسيكي، رياضياتي، كتب عدد من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو، وضع أفلاطون الأسس الأولى للفلســفة الغربية والعلوم، نبوغ أفلاطون وأســلوبه ككاتب واضح في محاوراته الســقراطية (نحو ثلاثين محاورة) التي تتناول مواضيع فلســفية مختلفــة: المعرفة، المنطق، اللغة، الرياضيات، الميتافيزقياء، الأخلاق والسياسة.

«محاورة ثياتيتوس» وأرسـطو[1] الذي كتب «الأخلاق إلـى نيقوماخوس» في ندوة يديرها رايل وأوستن لشعرا أنهما في قمة الراحة وكأنهما في بيتهما.

(١) فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، وواحد من عظماء المفكرين، تغطي كتاباته مجالات عدة، منها الفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة واللغويات والسياسة والحكومة والأخلاقيات وعلم الأحياء وعلم الحيوان. وهو واحد من أهم مؤسسي الفلسفة الغربية.

تطورات في الفلسفة

Progress in Phiosophy

قبل مغادرتي أكسفورد، سلمت للناشر مادة مجمعة للسلسلة الأولى لكتاب «المنطق واللغة»، وبعد ذلك بفترة قصيرة تبعتها السلسلة الثانية، وقد تم تحرير كلتا السلسلتين، وقد كتبت مقدمة قصيرة لكلتيهما، الأولى في عام ١٩٥١، والثانية عام ١٩٥٣. بعد وقت قصير من تعييني كمحاضر في جامعة أبردين وجدت نفسي أتصرف كمتحدث رسمي غير معين في أسكتلندا لفلسفة «أكسفورد اللغوية»، وعندما قام نادي الكشافة الاسكتلندي الفلسفي -وهو تجمع لجميع من يقوم بتدريس الفلسفة في أسكتلندا- بإصدار مجلة جديدة بعنوان «الفلسفة الفصلية» أحتوى عددها الأول على هجوم لاذع على المدرسة الأكسفوردية، وقد طلب مني محرر المجلة الرد على هذا الهجوم، وكان ردي هو مقال «الفلسفة واللغة»، وهو ما أصبح بعد التعديل الفصل التمهيدي لكتاب يتكون من مقالات مجمعة تحت عنوان «مقالات في التحليل التصوري» Essays in Conceptual Analysis.

تعرضت الحركة لنقد من الجانب الإنجليزي عبر مايكل دَمِت Michael Dummett الذي وصف الحركة بأنها «نتاج اللغة الدارجة»، وادعى بأن «عضوية هذه المدرسة الفكرية تعتمد على الترشيح من قبل البروفيسور فلو» [1].

بالتأكيد كانت أعمال بعض الممارسين للفلسفة الجديدة -حتى إن كان عددهم قليلاً جدا- تافهة ومكررة ولا طائل منها، وقد كان لي رد فعل على هذا التكرار

(1) Michael Dummett, Truth and Other Enigmas (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1978), 431.

وعـــدم الجدوى من خلال ورقة بحثية كتبتهـــا وقدمتها في إحدى الأندية الثقافية وكانـــت بعنوان «الأمور ذات الأهميـــة» Matter That Matters، جادلت خلالها أنه كان من الممكن ومن المحبذ التركيز على المشـــاكل التـــي يمكن أن يجدها المهتمون بالفلســـفة -حتى الأشخاص العاديين غير الناضجين فلسفيا- مهمة وممتعة، بدلاً من إضاعة الوقت والجهد في أمور وهمية.

بـــدأت أقتنـــع -وهذا ما كتبته في كتـــاب «مدخل إلى الفلســـفة الغربية»- بأنه يمكن إحراز تقدم في الفلســـفة على الرغم من غيـــاب التوافق العام، فعدم وجود التوافق في الفلســـفة ليس برهاناً مســـتقلاً كافياً للقول بأن هذا الموضوع لا يمكن التقدم فيه. إظهار عدم وجود معرفة فلسفية بدعوى أنه سيظل هناك من لا يقتنع هي مغالطة شـــائعة صدرت حتى من فلاسفة معروفين مثل برتراند رسل، أما أنا فأسميها «ولكن سوف يظل هناك دوماً من لا يقتنع على الإطلاق». إذاً هناك إتهام حاصله: إن من المســـتحيل في الفلسفة أن تبرهن لشخص أنك على حق وأنه على خطـــأ، ولكن الجزء المفقود فـــي هذه الحجة هو التفريق بين إنتاج دليل وبين إقناع الشخص، فالشخص قد يقتنع بحجة باطلة، ويظل غير مقتنع بحجة ينبغي القبول بها.

يختلف التقدم في الفلسفة عن التقدم في العلم، ولكن ذلك لا يعني أنه مستحيل. في الفلســـفة، أنت تسلط الضوء على الطبيعة الجوهرية للاستدلال الاستنباطي، أنت تميز بين الأسئلة حول الحجج الصحيحة وغير الصحيحة وبين الأسئلة المتعلقة بصدق وكذب مقدماتها أو نتائجها، أنت تبين الاستخدام الصارم لمصطلح المغالطة، أنت تحدد وتشرح مثل هذه المغالطات من قبيل «ولكن سوف يظل هناك دوماً من لا يقتنـــع على الإطلاق». إلى الحد الذي تنجز فيه هذه الأمور.. نجد أن هذه الأمور

يتـــم الوصول لها عبر التفكير المنطقي، ويمكـــن رؤية التقدم الحاصل حتى لو ظل الإجماع والإقناع أمر غير متحقق وغير كامل.

إعطاء اهتمام أكثر للإلحاد

Paying Mmore Attention to Atheism

كان النادي السقراطي الذي يرأسه في ذلك الوقت لويس فاعلاً خلال ذروة نشاط «الفلسفة الجديدة»، ووجدت المبدأ السقراطي القائل «اتبع الدليل أينما قادك»، متجسداً هناك، وبشكل متزايد أصبح هذا المبدأ هو المبدأ الموجه في تطوير وتعديل بعض رؤاي الفلسفية، وخلال هذه التجمعات في النادي السقراطي أيضاً بدأ فلاسفة اللغة -الذين كانوا يُتهمون بتسفيه الالتزام بالضوابط التي كانت معتبرة في زمان سابق- باستكشاف ما صنفها الفيلسوف الألماني كانت على أنها أعظم ثلاثة أسئلة في الفلسفة: الإله، الحرية والخلود.

كانت مساهمتي في هذا المنتدى من خلال ورقة بحثية بعنوان «اللاهوت والتكذيب»، وكما ذكرت سابقاً فإن الأسس التي بنيت عليها أقتناعي بالإلحاد عندما كنت في الخامسة عشرة كانت ناقصة بوضوح.

لقد كانت مبنية على «عناد صغار السن»:

١- مشكلة الشر كانت بالنسبة لي دحضاً حاسماً لوجود إله كامل الخير وكامل القدرة.

٢- الدفاع عن حرية الإرادة» لا يعفي الخالق من مسئولية عدم إتقان الخلق. منذ أيام المدرسة، خصصت اهتماماً إضافياً للأسباب المؤيدة والمضادة للوصول إلى النتائج الإلحادية، وتمثلت بدايتي في عملية البحث في هذا المجال في مقالة «اللاهوت والتكذيب»، وقد تم عرض مقالة «اللاهوت والتكذيب» لأول

مرة في صيف عام ١٩٥٠ في النادي السقراطي في أكسفورد، وتم بعد ذلك نشرها في مجلة لطلبة البكالريوس، اسمها «الجامعة».

إعــادة طباعة المقالة لأول مرة كانت في عــام ١٩٥٥ في كتاب «مقالات جديدة في الفلسفة اللاهوتية»، وهو عبارة عن مقالات مجمعة قمت بتحريرها بمساعدة من ماكلنتير Alasdair MacIntyre، واحتوى الكتاب على مجموعة من الإســهامات القيمة في فلســفة الدين وفقاً لرؤية «الفلســفة الجديــدة»، وقد وصفت مجلة Times Literary supplement هذا الكتاب بأنه إضافة جديدة بشكل جذري.

كان هدفي الأساســي من مقال «اللاهــوت والتكذيب» هو بيان طبيعة ادعاءات اللاهوتيين، وتســاءلت هل إن تعدد القيود الذي يحيط بالكلام اللاهوتي ينتج عنه إماتــة الميت[1] – ولو بألف قيــد–؟ إذا أتيت بادعاء فإن عليك أن تســتثني بعض الأشــياء كي يكون إدعاوك مقبولاً. على ســبيل المثال الادعــاء بأن الأرض كروية ســوف يستبعد إمكانية أن تكون الأرض مسطحة، ورغم أنها تبدو مسطحة إلا أن هذا التناقض الواضح يمكن تفسيره عن طريق الحجم الهائل للأرض. الجهة التي ننظر منها إلى الأرض لها دور في ذلك، ولذلك فإن إضافة قيود للإدعاء قد يجعل الادعاء متسقاً مع الظاهرة التي تبدو متناقضة معه [2]، ولكن إذا أستمرت الظاهرة المتناقضة مع وجود هذا القيد فإن الإدعاء نفسه يصبح مشكوكاً فيه.

إذا كنا ندعي بأن الإله يحبنا فإن علينا أن نتسائل عن الظواهر التي يستبعدها هذا الادعاء، ومن الواضح أن الألم والمعاناة تمثل تحدياً لهذا الادعاء.

---

(١) كناية عن عدم تأثير إضافة القيود في حل المشكلة، إذ الميت لا يمكن إماتته.

(٢) يريــد المؤلف أن يبيّن أن إضافة قيد (كبيــرة وهائلة) للكرة الأرضية يرفع التناقض الظاهري المتوهم بين النظرية العلمية المثبتة لكروية الأرض وإحساسنا الوجداني بتسطح الأرض.

يعتبر الموحدون أن إضافة القيود اللازمة يمكن أن يتوافق مع وجود الإله وحبه للبشر، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لا نفترض ببساطة أن الإله لا يحبنا؟ الموحدون كما يبدو لن يســمحوا بتسجيل أي تحفظ ضد الادعاء بأن الإله يحبنا، ولكن هذا يعني أنه لا يوجد ما يدعم هذا الادعاء، وعندها سيصبح فارغاً، ولذلك أقول: إن الفرضية الرائعة يمكن أن يُقضى عليها بواسطة القيود الكثيرة.

رغم أن قصدي من وراء طرح هذه الأســئلة يبدو جلياً إلا أنني كثيراً ما أواجه بالادعاءات بأنني كنت أشــرح وجهة نظري حول معنــى أو غالباً عدم معنى اللغة الدينية، وكذلك الحال مع الادعاءات الســائدة بأننــي منجذب ومعتمد على مبدأ التحقق الذي تبنته جماعة فيينا، وهي التي تمثل مدرسة الوضعية المنطقية، والتي تتبنى الادعاء القائل بأن العبارات التي يمكن التحقق منها باستخدام مناهج العلوم هي وحدها التي لها معنى.

ولكــن في الحقيقة لم أُكَوِّن قط أطروحة شــاملة عن وجود أو عدم وجود لكل اللغة الدينية. لقد كان هدفي الأســاس في بحث «اللاهوت والتكذيب» وضع بعض «البهــارات» على الحــوار الدائر بين الوضعية المنطقية والدين المســيحي، وإقامة حوار أكثر فائدة بين الإيمان والكفر.

لم أكن أقدم مذهباً متكاملاً عن كل اللغة الدينية، وإنما كان هدفي الأساســي من مقال «اللاهوت والتكذيب» إثارة الجدل بين من يعتقد بالوضعية المنطقية وبين المســيحيين، وإقامة نقاش بــين المؤمنين بإله وغير المؤمنين بإلــه. أنا لم أقل بأن عبارات الاعتقادات الدينية لا معنى لها. لقد كنت ببســاطة أتحدى الموحدين لكي يشرحوا عباراتهم بشكل يمكن فهمه على ضوء المعطيات المتعارضة.

التعلم من عدم الاتفاق

Learning from Disagreement

نالــت المقالــة الكثير من الردود، ومن هذه الردود ما ظهر بعد عقود من نشــر المقالة، وكثير منها ســاعدني في تهذيب - وفــي بعض الأحيان - تصحيح آرائي، لكن أكثر الردود حدة في الانتقاد ربما كان أولها، وجاء من قبل هير R.M Hare - والذي أصبح أستاذ الفلسفة الأخلاقية في أكسفورد-.

دعا هير إلى عدم تفســير الكلام الديني باعتباره جملاً، بل باعتباره تعبيرات عــن التوجه العام، وهذا التوجه كما وصفه البروفيســور هير عبارة عن تفســير لخبرتنــا التي لا يمكن التحقق منها أو تكذيبها، وحســب علمي لم يطور هير هذه الفكرة بشــكل مكتوب، ولكن لا أعتقد أن مقولة هير ســوف ترضي المؤمنين طالما أنها تنكر أي أساس عقلاني للاعتقاد.

يقول باســل ميتشــل Basil Mitchell وهو الذي خلف لويس في رئاسة النادي السقراطي «إن هناك خطأً في عرضي لوجهة النظر اللاهوتية، فالأفكار اللاهوتية يجــب أن تكون أفكاراً مؤكدة، ولكي تكون كذلك، لابد من أن يكون هناك ما يُعتبر منافياً ومكذباً لما يدّعون حقانيّته، وأشــار ميتشــيل إلــى أن اللاهوتيين لا ينفون ذلك، فالواقع أن مشكلة الشر في النظرة اللاهوتية تظهر لأن وجود الألم يبدو أنه يحســب ضد حقيقة أن الإله يحب البشــر، وكان رد اللاهوتيين بالتمسك بمقولة الإرادة الحرة، ولكن ميتشــيل أكد على أن المعتقدين بالإله يقعون عادة في محذور تحويل توكيداتهم إلى صيغ فارغة من المعنى.

في كتاب ميتشيل «الإيمان والمنطق» Faith and Logic، قدم كوبي – وهو فيلسوف معــروف بأعماله عن أفلاطون – معالجة أفضل بكثير لهذا الموضوع. يقول كوبي: «إن اللاهوتيــين يعتقدون بغيب يتجاوز التجربة»، ولكن كوبي يدعى أنه يســتطيع تتبع بصمات هذا الغيب في التجربة. يؤكد المؤمنون بالإله على أنهم عندما يعبرون عن إعتقادهم فإنهم مجبرون على اســتخدام لغة محكومة بالقوانين المتناقضة[1]، ولاحــظ كوبي أنه يمكنك فهم العبارات اللاهوتية فقــط عندما تكون منصفاً في ثلاث قضايا:

١- المؤمنــون بالإله يعتقدون بأن الإله كائــن متعال، وأن العبارات التي تتحدث عنه تنطبق عليه ولا تنطبق على العالم الخارجي.

٢- المؤمنــون بالإلــه يؤمنون بأن الإله كائن متعال تســتلزم عــدم القدرة على إدراكه.

٣- وبما أن الإله سر، فلكي نفهمه لابد من أن نتحدث عنه بطريقة ذكية، فنحن يمكننا فقط أن نتحدث عن الإله من خلال صور، والعبارات اللاهوتية عبارة عن صور بشرية للحقيقة المقدسة التي يمكن التعبير عنها بالأمثال[1].

جــاءت ردود أخرى على مقالــة «اللاهوت والتكذيب»، ومــن ضمنها رد ريبرن هيمبك Raeburne Heimbeck وأريك مســكال Eric Mascall. في كتابه «اللاهوت والمعنى» Theology and Meaning، أتهم هيمبك وهو أســتاذ الفلسفة والدراسات الدينية بجامعة واشنطن الوسطى المقالة بارتكاب ثلاثة أخطاء مهمة. الخطأ الأول أنها افترضت أن معنى أية جملة مرهون بإمكان التحقق التجريبي من مضمونها.

(1) I. M. Crombie, “The Possibility of Theological Statements,” in Faith and Logic, ed. Basil Mitchell (London: Allen & Unwin), 50.

(2) Crombie, “The Possibility of Theological Statements,” 73, 72.

الخطأ الثاني أنها تضمنت خطأ وهو أن الاعتراض على معتقد هو نفسه عدم التوافــق معه[١]، أما الخطأ الثالث فهو أنهــا أفترضت أن العبارات المتعلقة بتعبير الإلــه عن حبه، أو عن وجــود الإله عبارات لا يمكن تكذيبها من حيث المبدأ، ولكن الخطأ الرئيســي حســب وجهة نظره، أن المقالة حددت الأسس للحكم بصدق أو كذب القضايا بالشروط التي تجعلها صادقة أو كاذبة[٢].

نبه ماســكال Mascall، مستعيناً بفكر فتجنشتين إلى أننا نستطيع إكتشاف إذا ما كان للعبارة معنى، فقط من خلال قدرة الناس على فهمها في الســياق اللغوي والمكاني الذي تُستخدم فيه[٣].

استشــهدت - بتوســع نوعاً ما - بهذه الــردود لأوضــح دور مقالة «اللاهوت والتكذيب» في تحفيز ظهور موجات جديدة من الأفكار التي ســاعدت في تحريك الميــاه الراكدة للخطاب اللاهوتي، وقد أســتمر هذا النقاش حتى يومنا هذا، وفي الحقيقة صدر عن مجلة ريتشموند للفلسفة عدد في عام ٢٠٠٥ أحتوى على مقال يناقش فائدة حججي التي قدمتها منذ عام ١٩٥٠.

لقد كان لهذه الردود أثر عليّ وعلى آرائي الفلسفية، وكيف لا تؤثر هذه الردود إذا كنت متســقاً مع نفســي في اتباع الدليل أينما قادني؟ فــي الطبعة البرونزية للمقالة أعترفت بصحة أثنين من الانتقادات الموجهة للمقالة. إنتقاد ميتشيل قادني

(١) يقصد هنا: هناك فرق بين القول بأن مشــكلة الشــر لا تتوافق مع الإيمان بقدرة الله المطلقة وحبه المطلق للبشــر من ناحية، والقول بأن مشــكلة الشــر متعارضة تماماً وضد الاعتقاد بوجود إله. فالأول لا ينكره المؤمنــون بالإله ويســعوه لرفع عدم التوافق هذا، في حين أنهم ينكــرون الثاني تماماً. وبالتالي مقالة فلو القديمة لم تفرق بين هذين الأمرين.

(2) Raeburne Heimbeck, Theology and Meaning (London: Allen & Unwin, 1969), 123, 163.

(3) Eric L. Mascall, The Openness of Being (Philadelphia: Westminster, 1971), 63.

إلى التفكير في غرابة موقفي من اللاهوتيين، فقد بيّن ميتشـــيل أن اللاهوتيين لا ينفون حقيقة «أن مســـألة الألم تســـجل ضد الادعاء بأن الإله يحب البشر»، وهي المشكلة ذاتها في مسألة وجود الشرور في العالم، وأعتقد أنه كان على صواب في ذلـــك، كما أدركت قوة نقد همبك واعترفت بأنني كنت على خطأ في عدم التمييز بين « اعتباره ضد » وبين القول «بأنه لا يتسق معه». حجتي الأساسية تنصب بشكل مباشر على الأمر الثاني لا الأول.

الإله والفلسفة

God and Philoaophy

بعد إحدى عشـــرة ســـنة من نشـــر كتاب «مقالات جديدة»، نشرت كتاب «الإله والفلســـفة»، وكانـــت محاولة مني لتقديم واختبار التوحيد المســـيحي. لم أجد أي عرض ســـابق كاف ومقبول لهذه المســـألة، بما فيها العرض الذي كان مقبولاً على نطاق واســـع من قبل المعاصرين المعتقديـــن بالإله، وقد طلبت من بعض الأصدقاء المســـيحيين وبعـــض الزملاء أن يقدموا لـــي اقتراحات في هـــذا الموضوع، ولكني وجدت القليل من الذي يســـتحق الاهتمام به ضمـــن ما قُدم أو لعدم وجود ترابط فيمـــا بينهما. ولذلك قمت بتجميع أقوى الحجـــج من عدة مصادر، ودعوت الذين لم يكونوا راضين بذلك إلى تقديم ما لديهم حتى نســـتطيع إنتاج شـــيء يرضيهم ويرضي أمثالهم.

لقد تم نشـــر كتاب «الإله والفلســـفة» لأول مرة في عام ١٩٦٦، وأعيد نشر هذا الكتاب في عام ١٩٨٤ بعنوان «الإله: دراسة نقدية» God: A Critical Enquiry، أما النسخة الأخيرة من الكتاب مع تمهيد من قبل الناشر ومقدمة غير مقنعة من قبلي فصدرت عام ٢٠٠٥. في كتاب «الإله والفلســـفة»، عرضت طرحاً منهجياً للإلحاد، وبشـــكل عام دعوت إلى أن تكون نقطة البداية في الســـؤال عـــن مفهوم الإله في حدود تماسكه وقابليته للتطبيق ومشروعيته.

عرضت في الفصول الأولى من الكتاب لحجج اللاهوت الطبيعي[1] بالإضافة

---

(١) اللاهـــوت الطبيعي هي فرع من اللاهـــوت يعتمد على العقل والتجارب العادية. وبالتالي فهي تختلف عن الوحي الديني الذي يقوم على أساس الكتب المقدسة والتجارب الدينية من مختلف الأنواع.

إلى عرض إدعاءات الوحي المقدس، وفي الوقت نفسه حللت فكرة التفسير، وفكرة النظام، وفكرة الغاية بالاعتماد على ديفيد هيوم وآخرين ممن يشاركونه في ذلك الرأي، وقلت بأن الحجة الغائية، والحجة الكونية، والحجة الأخلاقية التي تستخدم لتأكيد وجود الإله حجج غير صحيحة، كما حاولت أن أبين أنه من المستحيل الوصول إلى نتيجة صحيحة من خبرة دينية خاصة.

لكن الإسهام الأهم في الكتاب هو الفصل الذي كان بعنوان «البداية من البداية»، والذي نبهت فيه إلى أن هناك ثلاثة مواضيع بالتحديد يجب الإجابة عليها فيما يخص مفهوم الإله: كيف يمكن تعريف مفهوم الإله؟ كيف يمكن تطبيق التعبيرات الإيجابية والسلبية فيما يخص الإله؟ كيف يمكننا أن نوفّق ما بين تعريف صفات الإله مع الحقائق التي لا يمكن إنكارها؟. (كيف يمكن تفسير وجود الأمراض في العالم مع وجود إله قادر؟).

تم الرد على السؤالين الثاني والثالث من قبل المؤمنين بالإله، فقد تم الرد على السؤال الثاني من خلال نظرية التمثيل أو التشبيه، حيث تناولوا صفات الإله وحرية الإرادة لمعالجة مشكلة الشر. أما السؤال الثالث المتعلق بمسألة الشرور فتم الرد عليه بمبدأ الإرادة الحرة. ولكن السؤال الأول هو الذي لم يتم التطرق له بشكل كاف على الإطلاق.

التعريف والتحديد هي أمور يجب الاتفاق عليها وتوضيحها في موضوع الخطاب، ولكن لم يكن واضحاً كيف يمكن تعريف جوهر فرد مثل الإله الفسيفسائي (mosaic god)[1] وتمييزه عن الكون «المخلوق»؟ بأي إعتبار يمكن أن نفهم أن هذا

---

(١) كناية عن تعدد تصورات الأديان للإله الكامل.

الوجــود هو واحد لا يتغير على الــدوام، وهو في نفس الوقت فاعل في الزمان أو -بشــكل محيــر أكثر- على نحو ما خارج الزمان؟ ما لــم يكن لدينا مفهوم أصيل، متماسك، قابل للتطبيق (عن الإله)، لا يمكن إثارة السؤال حول وجود أو عدم وجود هذا الإله على نحو مناســب. وبعبارة أخرى: لا يمكننا البدء بنقاش الأسباب التي تجعلنــا نقول: إن هناك إلهاً على نحو مــا موجود قبل أن نقرر كيف يمكن تحديد الإلــه الذي نتحدث عنه، ولا يمكننا أن نفهم بشــكل منطقي مقبول كيف يمكن أن يُعاد ويتعدد تعريف نفس الكائن بمرور الزمن، وعلى سبيل المثال كيف يمكن لكائن «مجرد عن المادة والجسد وموجود في كل مكان» أن يُعرف ويعاد تعريفه وأن يكون قابلاً كموضوع لعدة توصيفات؟

يرد المؤمنون بالإله على هذا النمط من التفكير بعدة طرق، وأبرز هؤلاء ريشــارد سوينبيرن Swinburn (خلفني في جامعة كييل كبرفيسور في فلسفة الدين المسيحي في أكسفورد) من خلال كتاب «تماسك عقيدة الإيمان» The Coherence of Theism. علل سوينبرن ذلك بأن العبارة «فقط س الذين رأيناهم في وقت سابق هم ص» لا تؤدي إلى عدم تماسك الفرضية بأن هناك «س ليس ص».

ليس من حق أحد أن يحتج بأن ما أعتاد على رؤيته – ولنقل أنه س – يجب أن يكون ص، ولذلك فإن ص يجب أن تكون صفة أساســية لأي شيء يُصنف على أنه س. أما فيما يخص الهوية، فإن ســوينبرن يقول إن هوية الشــخص جوهرية، ولا يمكن تحليلها من خلال إستمرارية الجسد أو الذاكرة أو الشخصية.

قَبِل ماكي J. L. Mackie – وهو فيلسوف ملحد– بتعريف سوينبيرن للإله على أنه روحــاً وأنه حاضر في كل مكان، وأنه قادر على كل شيئ، وعليم بكل شيئ، وببساطة

أعتبر ماكي أنه «لا مشكلة في ذلك» عندما يتعلق الأمر بالتعريف والتمييز[1].

أدرك مؤرخ الفلسفة فردرك كبلستون Frederick Copleston قوة التساؤل الذي أثرتــه فيما يخص تماســك مفهوم الإله، ورد بجواب مختلــف. يقول فرديرك «لا أعتقد أن من المبرّر الطلب من العقل البشــري أن يكون قادراً على تحديد إله مثل فراشـــة واقفة على صندق زجاجي. الإله يصبح حقيقة واقعة للعقل البشــري في حركة الإنســـان نحــو التعالي، حيث يظهر الإله باعتبــاره الهدف غير المرئي لهذه الحركــة، وحيــث إن المتعالي لا يمكــن إدراك كنه ذاته، وإذا جـــاز التعبير فإنه لا بد – وفقاً لخلفيتنا التصورية أن ينشــأ الشــك ويظهــر، ولكن داخل هذه الحركة من التعالي فإن الشــك يعود للتوازن من خلال التوكيد (assertion – affirmation) المتضمن بالحركة في ذاتها، ضمن ســياق هذه الحركة الشــخصية للروح البشرية يصبح ذلك الإله حقيقة واقعة للشخص»[2].

ما الذي أعتقده اليوم عن الحجج المنصوص عليها في كتاب «الإله والفلســفة»؟ في رسالة عام ٢٠٠٤ إلى مجلة «الفلسفة الآن»، أوضحت أنني الآن أعتبر أن الإله والفلسفة بقايا تاريخية. لكن، بطبيعة الحال، لا يمكن للمرء أن يتبع الدليل حيثما يؤدي دون إعطاء الآخرين فرصة إبداء وجهات نظرهم في أمور لم تناقشها بشكل كامــل، وآرائي الحالية فـــي المواضيع التي تم التطرق لها هنـــاك، تم عرضها في القسم الثاني من هذا الكتاب، «اكتشافي للمقدس».

(1) J. L. Mackie, The Miracle of Theism (Oxford: Clarendon, 1982), 1.
(2) Frederick C. Copleston, Philosophers and Philosophies (London: Search Press, 1976), 76.

فرضية الإلحاد

The Presumption of Atheism

بعد مرور عقد من الزمن على نشر كتاب «الإله والفلسفة»، قمت بكتابة مقالة «فرضية الإلحاد» (نشرت في الولايات المتحدة تحت عنوان «الإله والحرية والخلود»)، وفي هذه المقالة جادلت بأن النقاش حول وجود الإله يجب أن يبدأ من فرضية الإلحاد، وأن عبء الإثبات يجب أن يكون على المؤمنين بالإله.

أشرت إلى أن هذا النهج الجديد يضع مسألة وجود الإله بشكل كامل في إطار منظور جديد، كما أنه يساعد في التخلص من المشاكل التصورية عن الإيمان التي قد لا يتم الاهتمام بها، مما يجبر اللاهوتيين على البدء من البداية المطلقة. استخدام المؤمنين بالإله لكلمة «الإله» يجب أن يوفر معناً يجعل من الممكن نظرياً وصف هذا الكائن. توصلت إلى نتيجة مفادها أنه مع هذا المنظور الجديد يظهر مشروع الإيمان بالإله بأكمله متزعزعاً أكثر مما كان عليه من قبل.

يمكن تبرير فرضية الإلحاد لعدم توفر المبررات الوجيهة للاعتقاد بوجود الإله، ولكن إذا لم يكن لدينا مثل هذه المبررات فإنه لا يوجد هناك سبب كاف للإيمان بوجود الإله، والموقف الوحيد المعقول هو أن تكون ملحداً سلبياً أو لاأدري agnostic (قصدت بالملحد السلبي النمطي وغير الأخلاقي)، ولا بد لي من الإشارة هنا إلى ما لا تتضمّنه «الفرضية». هي ليست فرضية مسبقة الحكم على نتيجة يراد أن تُثبت، وإنما هي مبدأ إجرائي لتحديد من سيقع عليه عبء الإثبات، مثل قاعدة «الأصل البراءة» - وهي القاعدة التي يستند إليها القانون العام الإنكليزي[1].

(١) يقصد: أن كل متهم بريئ حتى تثبت إدانته. وهو ما يوازي عندنا الحديث المروي: "البينة على من ادعى»

أجد أنه – في أي نظام منهجي سليم– على اللاهوتيين أن يبدأوا كما هو الحال في كل فرضية وجودية بتحديد المفهوم الخاص الذي سوف يستخدم لوصف الإله، وفقط بعد تلبية هاتين المهمتين بشكل مرضي يصبح مقبولاً البدء بتقديم البراهين المقصودة.

حفزت هذه الحجة العديد من الردود. باعتباره لا أدرياً، كتب الفيلسوف الإنجليزي أنتوني كيني Anthony Kenny، قائلاً بأنه قد يكون هناك فرضية لتبرير اللاأدرية (agnostic)، ولكن هذا التبرير ليس تبريراً للإلحاد السلبي أو الإيجابي. لقد أكد كيني على أن إظهار أنك تعرف يتطلب جهداً أكبر من إظهار أنك لا تعرف (وهذا يشمل حتى الإدعاء بأن تصور الإله غير متماسك)، لكنه قال: إن هذا لا يخلص اللاأدرية agnostic من الورطة، فالمتقدم للاختبار يمكنه تبرير عدم معرفته بالإجابة على أحد الأسئلة، ولكن هذا لا يمنحه القدرة على إجتياز الاختبار[1].

كاي نيلسون Kai Nielsen وهو زميل ملحد زاملته سابقاً، قدم نقداً يزعم فيه أن الموقف الأخلاقي المتميز هو أن تبقى غير ملتزم تماماً حتى تتوفر أسباب كافية لذلك. يذهب نيلسون للقول بأن المعتقدين بالإله والمتشككين لديهم مفهوم مشترك للعقلانية مع المعايير المطلوبة لتقييم مزايا ما يدعونه، وأضاف بأن هناك «علامة استفهام كبيرة» على «فرضية الإلحاد»[2] إذا لم تكن قادرة على إنتاج تصور عالمي ممكن القبول للعقلانية .

(1) Anthony Kenny, Faith and Reason (New York: Columbia University Press, 1983), 86.
(2) Kai Nielsen, review of The Presumption of Atheism by Antony Flew, Religious Studies Review 3 (July 1977): 147.

أكبـــر تحـــدي للحجة جاء من أمريـــكا، حيث قـدم أســتاذ المنطـق الجـهاتي Modal Logic ألفــن بلانتينغا Alvin Plantinga فكــرة مفادها أن الاعتقاد بالإله إعتقاد أساســي، وأكد على أن الإعتقاد بالإله مشابه للاعتقاد بالحقائق الرئيسية مثل وجود عقول أخرى، أو الاعتقاد الحسي (رؤية شجرة)، أو الاعتقاد بوجود ذاكرة (الإيمان بوجود ماضي). في جميع هذه الحالات، أنت تثق بقدراتك الإدراكية على الرغم من أنك لا تستطيع إثبات صدق الاعتقاد محل التساؤل. وبالمثل، فإن الناس يعتقــدون ببعض القضايا (كوجود العالم مثلا) كأصل، في حين تشــتق ما يترتب عليها من القضايا الأساسية هذه.

هذه الفرضية تقول: إن المعتقدون بالإله، قد يجادلون بأنهم يأخذون وجود الإله كقضية أساسية.

يعتبر الفيلسوف التوماوي (نسبة إلى الفيلسوف توما الأكويني) رالف ماكلينري Ralph McInerny إن من الطبيعي للإنسان أن يعتقد بالإله بسبب النظام، والترتيب، وقوانين الطبيعة التي تحكم الأحداث التي تقع في الطبيعة، ولذلك كثيراً ما يقول: إن فكــرة وجود الإله فطرية وهي تبدو كمسّــلمة ضــد الإلحاد. لذا فإنه في حين جــادل بلانتينغا بأن الموحديــن لا يتحملون عبء الإثبات، ذهب ماكلينري أبعد من ذلك بالقول أن الملحدين هم من يتحمل عبء الإثبات.

ينبغي أن أشــير هنا إلى أنه على خلاف حججي المضادة للاهوت، فإن فرضية الإلحــاد يمكن قبولهــا من قبل الموحدين عند وجود أســس قوية للاعتقاد بوجود الإله، فإذا افترضنا وجود مبررات مناسبة للاعتقاد بالإله، فالموحدون لا يرتكبون أي خطأ فلســفي في مثل هذا الاعتقاد! لأن فرضية الإلحاد في أحســن الأحوال نقطة انطلاق منهجية، وليست نتيجة وجودية.

تغيير وجهة نظري

Changing My Mind

كفيلسوف محترف، قمت بتغيير وجهة نظري أكثر من مرة في المسائل المختلف عليهـا، وينبغـي أن لا يكون ذلك مسـتغرباً بالطبع، مع الأخـذ بالاعتبار قناعتي بإمكانية التطور في الفلسـفة، وقناعتي بمبـدأ إتباع الدليل أينما يقودني. عندما كنت أقـوم بالتدريس في جامعة كييل في عام ١٩٦١، كتبت كتاباً حول كتاب هيوم «تحقيق بشان الفهم الإنساني». حتى ذلك الحين، كان يتم التعامل مع تحقيق هيوم (عادة يقال لـه «التحقيق الأول» لتمييزه عن كتابه اللاحق «تحقيق بشـأن مبادئ الأخلاق») على عكس ما جال في ذهن المؤلف بوصفها مجرد مقتطفات، أما الآن فهذه المقتطفات تعد أعظم أعمال هيوم.

وبخصـوص كتابي عن هيوم، كتب جلبرت رايل قائـلاً «أقدر عالياً ما جاء في الكتاب، فهو مملوء معرفة وحيوية». في حين كتب جون باسـمور John Passmore قائـلاً «إن أي مناقشـة لاحقة لعلمانيـة هيوم يجب أن تبدأ مـن فلو». رغم هذه الإشادات فإنني كنت دائماً أرغب بعمل تعديلات جوهرية في كتابي «فلسفة هيوم في الاعتقاد». مسألة واحدة على الأقل كانت تحتاج إلى تصحيحات كبيرة. الفصول الثلاثـة «فكرة الاتصال الضروري» و «الحرية والضرورة» و «المعجزات و المنهجية» جميعهـا كان بحاجة إلى إعادة صياغـة، على ضوء إدراكي المَبْنِيّ حديثاً بأن هيوم كان مخطئاً تماماً بالقول أننا ليس لدينا خبرة، وبالتالي ليس لدينا أفكاراً أصيلة، وليس في قدرتنا جعل بعض الأشـياء تحدث ومنع البعض الأخر من الحدوث، أي الضرورة الفيزيائية والاستحالة الفيزيائية.

ونتيجــة لخطأ هيوم هذا، تم تضليل أجيال من أتبــاع هيوم بتقديم تحليل في غاية الضعف للسببية والقانون الطبيعي، لأنه لم يكن هناك أساس إما لقبول وجود السبب والنتيجة أو قبول وجود قوانين الطبيعة. وفي الوقت نفسه، فإن هيوم ذاته فــي كتاب «الحرية والضرورة» Of Liberty and Necessity وكتاب «من المعجزات» Of Miracls كان يســعى لإيجاد أفكار عن أســباب تأتي بنتائج أقوى من تلك التي كان هيوم مستعداً لاعتبارها مشروعة.

في كتابه «تحقيقات جديدة»، نفى هيوم السببية وادعى أن كل ما يتضمنه العالم الخارجــي هو مجــرد ترابط دائم – أي: عبارة عن أحداث مــن هذا النوع يتبعها بانتظام أحداث من ذلك النوع –، وعندما نلاحظ هذا الترابط الدائم يتكون لدينا ميــل قوي في الربط بين أفــكار عن هذا وأفكار عن ذلــك، فنحن نرى الماء يغلي عندما يتم تســخينه فنربط بين تســخين الماء وبين غليانه فنعتقد أن هناك علاقة واقعية بين الاثنين، في حين أننا بذلك نُسقط ترابطاتنا النفسية الداخلية. بمجرد أن ينتهــي هيوم من البحث يتخلّص من تشــكيكه في الســبب والنتيجة ولا أدريته بالنســبة للعالم الخارجي كما يدعي، وفي الحقيقة فإن هيوم يتخلى عن تشــكيكه بالسببية وإنكاره للعالم الخارجي حتى قبل أن ينتهي من البحث، فليس هناك على سبيل المثال في فصل «في المعجزات» في كتابه «التحقيق الأول» أثر لأطروحته عن العلاقات الســببية، وما كان يقوله من أن الضرورات ليست سوى إسقاطات كاذبة على الطبيعة.

وفــي كتابه «تاريخ إنكلترا»، لم يقدم هيوم أية إشــارة لشــكه في الســببية أو فــي العالم الخارجي، وبهذا يذكرنا هيوم ببعض المعاصرين الذين ينكرون لمبررات إجتماعية أو فلســفية إمكانية المعرفة الموضوعية. وهــم بتخليهم عن الموضوعية

الشـــاملة يتخلون عن الدقة في البحث العلمي، بـــل إنهم فوق كل ذلك يعبرون عن قناعتهم الخاصة بعدم وجود معرفة موضوعية!!!

الموضـــوع الآخر الذي غيرت رأيي فيه هو الإرادة الحرة وحرية الإنســـان. هذا الموضوع مهم، لأن الســـؤال عما إذا كنا أحـــراراً أم لا يقع في جوهر أغلب الأديان الرئيســـية، وقد أشـــرت من قبل إلى تعارض وجود الشر في العالم الذي خلقه إله على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، وكان رد الموحدين على هذا التناقض المشاهد بالقول بأن الإله وهب الإنســـان الإرادة الحرة، وأن كل أو معظم الشرور الصارخة في العالم ترجع بشكل رئيسي أو جزئي إلى سوء استخدام هذه الهدية الخطرة، إلا أن المحصلة النهائية ســـتكون بالتأكيد أن الخيرات المتحققة من هبة الحرية أعظم بكثير من سلبها.

كنت في الواقع أول من ســـمى هذه الحجة «دفاع الإرادة الحرة»، وبغض النظر عما يمكن تســـمية هذه المناظرة «بـــين الإرادة الحرة وبين الجبريـــة»، أو بالتعبير العلمانـــي «بين الإرادة الحرة وبين الحتمية» فإن الســـؤال عمـــا إذا كنا أحراراً في أفعالنا أم لا له أهمية رئيسية.

ردي على وجهة نظر هيوم كان باتجاهين، أولاً: بعرض الرأي الذي أصبح يعرف بالتوافقية compatibilism. يزعم غيـــر التوافقيين أنه لا يوجد توافق بين الإرادة الحرة وبين الحتمية، وأما التوافقيون فلم يكتفوا بالقول بأن من الممكن التوفيق بين الإرادة الحرة وبين القول بأن إرادة شخص ما لا تتعارض مع كون مستقبله محتوم حتى قبل أن يقوم بالعمل، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك بالقول بأن الأفعال الإرادية يمكـــن أن تكون حرة حتى لو كان وقوعها حتمياً مـــن الناحية الفيزيائية، وحتى لو كان وجودها محكوماً بقوانين الطبيعة.

ورغــم اســتمراري بالاعتقاد بأن النـــاس يقومون باختيارات حـــرة، فإنني في الأعــوام اللاحقة بدأت ألحظ أنه لا يمكن القول بأن هذه الاختيارات الإرداية لها أســبابها المحددة فيزيائياً. بعبارة أخرى، التوافقية لا تصح، فالتوافق لا يصح في هذه الأمور. قانون الطبيعة ليس مجرد عبارة يتم التعبير بها عن حدوث شيء ما، وعندمــا يحدث فإن حدثاً أخر يتبعـــه، بل الأحرى القول أن القانون هو إدعاء بأن حدوث شيء ما يُحَتِّم بالضرورة حدوث الشيء الأخر، مما يجعل عدم حدوثه أمراً مستحيلاً، وليس هذا هو الحال في الإرادة الحرة. نحن بحاجة أيضا إلى تمييزات مطابقة بين معاني «الحتمية».

أسباب الأفعال البشرية تختلف بشكل جوهري عن أسباب الأفعال غير البشرية، فعند توفر جميع أســباب حدوث إنفجار ما فإنه يصبح من المستحيل على أية قوة في هذا العالم منع حدوث الانفجار، ولكن إذا أعطيتك أسباباً كافية لإظهار الفرح والابتهــاج فإن هذا لا يعني أن إقامة الاحتفـــال أصبح ضرورياً. ويترتب على هذا أنه ليس كل حركة إنسانية يمكن إرجاعها بشكل كامل إلى أسباب فيزيائية. يمكن التمييز بين معنيين للفظ «السبب» من خلال إستخدام مصطلح هيوم في الأسباب المادية والمعنوية، فعندما نتحدث بشــكل كامل عن أحداث غير بشــرية -الكسوف على ســبيل المثال- فإننا نســتخدم كلمة الســبب بالمعنى الذي يتضمن الضرورة الفيزيائية والاستحالة الفيزيائية (أي: ما حدث كان يجب أن يحدث، وعدم حدوثه مســتحيل)، ولكن هذا بالتأكيد ليس الحال عندما نتكلم عن الأســباب أو الدوافع في حالة الأفعال البشرية.

لنستخدم المثال السابق، أفترض أنني أخبرتك بأخبار مفرحة، فإذا كان رد فعلك هــو الابتهاج فإن من المحتمل جداً أن تصف إخباري لك بهذه الأخبار بأنه ســبب

لابتهاجك، ولكنني في الواقـع لم أكن سبباً في ابتهاجك، فهو لم يكن ضرورياً وكان بالإمــكان تجنبه، فقد تقرر أن لا تبتهج لأنك قــد تكون حينها في المكتبة، وبعبارة أخــرى: قد يكون نقلي لك أخباراً مفرحة دفعك للابتهاج، ولكنني أيضاً لم أمنعك من أن تبكي، ولنســتخدم تعبير الفيلســوف الرياضي ليبنــز Gottfried Leibniz «أسباب هذه اللحظة ترجح ولا تحتم».

ربمــا رفض هيوم مفهوم الحتميــة المادية لأنه لم يكن قــادراً على التمييز بين النوعــين اللذين أشــرنا إليهما هنــا، ومع ذلك فإن طريقة هيــوم في التصنيفات تؤشــر إلى الفرق الجوهري بين العلوم الطبيعية من جهة، وبين العلوم الاجتماعية والنفسية من جهة أخرى.

إعتماداً على الفرق الجوهري في الاســتخدامين للفظة «الســبب»، يصبح من الواضــح – على الأقــل أننا عندما نتحدث عن الســلوك البشــري– فإننا نحتاج إلــى التمييز المطابق بين معنيين مختلفــين جوهرياً للحتمية: الحتمية الناتجة عن الأسباب الفيزيائية، والحتمية الناتجة عن الأسباب المعنوية. من المؤكد أنه إذا كان هناك ســلوك ما يتحقق بنظام الأسباب الفيزيائية فإن فاعل السلوك لم يكن حراً في هذا السلوك، ولم يكن بمقدوره أن يمنعه من الحدوث. من المؤكد أن الفشل في تشخيص هذه التمييزات، سوف يضلل الكثير من الناس، وسوف يقودهم للاستنتاج بأن تفســير وقوع حدث ما بأسباب فيزيائية أو معنوية يؤيد مبدأ الحتمية الكونية الفيزيائية [١]، وهذا يعني أنه كان من المســتحيل على أي فاعل أن يســلك خلاف السلوك الذي صدر عنه.

---

(١) يقصد بذلك حتمية جميع حوادث الكون الشاملة لأفعال الإنسان الاختيارية.

ما نحتاجه لتجنب مثل هذه الأخطاء (كما فعلت في كتاب «الحياة الاجتماعية» و«الحكم الأخلاقي») هو التحليـل المنطقي لثلاثة ألفاظ: الفاعل، حرية الاختيار، والقـدرة على إختيـار غير ما اخترناه فـي الواقع. عندما نسـتطيع التمييز بين التحـركات movings والحركات motions فإنه يمكننا أن نفسـر تصور الحركة. التحـرك moving هو حركة يتـم القيام بها اختيارياً، أمـا الحركة motion فهي حركة لا يمكن تجنب القيام بها، فالقدرة على التحرك هي خاصية للبشر فحسب، أمـا الكيانـات التي لا تمتلـك الإدراك والقصد فإن ما تقوم بـه هو مجرد حركة motion.

الفاعلـون هم المخلوقات القادرة على حرية الاختيـار في أن تفعل أو لا تفعل: الاختيار بين عدة بدائل للفعل أو عدم الفعل وهي البدائل التي تتغير من وقت لآخر حسـب الظروف، والفاعلون -من خلال دورهم كفاعلين- وليس بوسـعهم تجنب الاختيار بين بديلين أو أكثر من البدائل المتاحة لهم في وقت الحدث.

التمييز الحاسم بين التحركات المتضمنة في الفعل، والحركات التي تشكل السلوك الضروري، وبين السـلوك الذي يستلزم السلوك الحتمي. يترتب على ذلك استحالة القول بالحتمية الفيزيائية الحاكمة على الكون، بما في ذلك حركة جسـد الإنسان، فالتحركات بالإضافة إلى الحركات هي محكومة بأسباب فيزيائية حتمية.

عطفـاً على تراجعـي عن القول بالتوافقية الكاملة، فـإن الكثير مما كتبته عن الإرادة الحرة أو الاختيار في سياقه العلماني أو الديني يحتاج إلى تعديل وتصحيح، ولكون هذا الأمر يتعلق بالسـؤال الثاني ضمن أسـئلة كانت الفلسفية الأساسية: «الإله والحرية والخلود» فإن تغيير قناعتي بشـكل جوهري في هذا الشـأن يماثل التغيير الجوهري لوجهة نظري في السؤال الأول عن الإله.

الفصل
الثالث

إعادة النظر في الإلحاد
Atheism Calmy Considered



إعادة النظر في الإلحاد
Atheism Calmy Considered

كان جورج هيرمن روث George Herman Ruth أفضل لاعب في الدوري، وكان في بدايته أفضل ضارب، وبعد ذلك أصبح لاعب وسط يسجل ٢٩ هدفاً في المباراة الواحدة، وفي الوقت نفســه لعب في مركز الضارب في ١٧ مباراة، وكان ذلك في عام ١٩١٩. بعد ذلك باع مالك نادي بوســتون هاري فريزي Harry Frazee –الذي قيــل في وقتها إنه يحتاج للأمــوال– باع روث إلى نادي نيويورك مقابل ١٢٥,٠٠٠ دولار. قاد روث نادي نيويورك للبطولة الأمريكية في ســبعة مواســم، وقاده أيضاً أربع مرات لبطولة العالم، ولم يستطع نادي نيويورك أن يحصل بعدها على البطولة إلا في عام ٢٠٠٤، أي بعد خمس وثمانين سنة.

من المثير أن عام ٢٠٠٤ كان العام الذي أعلنت فيه في نيويورك أيضاً تحولي إلى التوحيد بعد أكثر من ستة عقود من الإلحاد، حيث أعلنت أنني غيرت «فريقي» إن صــح التعبير، ولكنني بــدأت أيضاً أنظر إلى الأمور من زاوية أخرى، لأنني كنت لا أزال أمارس نفس «اللعبة» بنفس الحماس والمبادئ كما كنت في السابق.

واجب تجاه الحوار

A Duty To Dialgue

توجتُ رحلتي نحو التوحيد بنشر كتاب «فرضية التوحيد» The Presumption of Atheism، وفي كتاباتي اللاحقة تناولت عدة مواضيع بشكل مختلف تماماً. في الواقع إنني كتبت في مقالة نُشرت ضمن كتاب صدر في عام ١٩٨٦ تحت عنوان «الفلسفة البريطانية اليوم» British Philosophy Today بينت فيها أنني أرغب بعمل أشياء أخرى إن سمح لي الوقت بذلك.

أود على سبيل المثال أن استكشف النزاعات التاريخية الكبيرة حول هيكل الثالوث [١] Structure of the Trinity وحول ما يجري في القربان المقدس [٢] Eucharist. مع ذلك، وبحلول أواخر الستينات من القرن الماضي أصبح واضحاً لي أن الحاجة لجهودي ماسة في مكان آخر. كنت على قناعة بأن علّي في بقية حياتي تركيز طاقاتي في المجالات العلمية الشاملة مثل فلسفة العلوم الاجتماعية والفلسفة الاجتماعية.

بما أنني قلت الكثير حول فلسفة الدين خلال سنوات طويلة، فأجد نفسي ملزماً من الناحية الفكرية بأن أرد على أي أنتقاد قدر الإمكان، إما بالاعتراف بأنني كنت مخطئاً أو ببيان سبب عدم إتفاقي مع منتقديّ، ولذلك أستمريت في النقاش مع المدافعين عن التوحيد الذين أستمروا هم أيضاً في نقد وتحدي أفكاري

---

(١) العقيدة المسيحية في الثالوث.

(٢) أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، و هو تذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشيّة آلامه.

حتى بعد إنتقالي إلى مواضيع فلسفية أخرى، ولم يكن هذا التحدي شيئا جديداً بالنسبة لي.

في الواقع لقد أمضيت مسيرتي الفلسفية كلها في حوارات حماسية ونقاش عام مع مفكرين يختلفون معي في العديد من المواضيع التي تتراوح ما بين الفلسفة الاجتماعية، ومشكلة البدن-العقل، ومشكلة الإرادة الحرة -الحتمية فيما يتعلق بوجود الإله. لقد أستغرق النقاش في هذه المواضيع أكثر من نصف قرن من حياتي الفكرية.

في عام ١٩٥٠، سعيت لتحديد ماذا يُقصد بالقول «إن الإله يحبك»؟ وفي عام ١٩٧٦ حاولت أن أوضح «هل مفهوم الإله متماسك؟»، وفي عام ١٩٨٦ كنت أحاول أن أحدد على من يقع عبء تقديم الدليل؟ وفي عام ١٩٩٨ كنت أناقش تداعيات الإنفجار الكوني الكبير. خلال كل ذلك، لم يساعد إشتراكي في المناظرات والنقاشات اللاهوتية على تقوية آرائي فحسب، بل أتاح لي فرصة التعرف على العديد من الزملاء والخصوم الذين يستحقون الاحترام رغم اختلافي معهم.

الاحتفاظ بأسلحتي

Sticking to My Guns

مــن بين كل المناظـرات التي شــاركت فيها، كانت هنــاك مناظرتان في عامي ١٩٧٦، ١٩٩٨ أعتبرهمــا الأفضــل، الأولــى مناظرة عام ١٩٧٦ مــع توماس وارن Thomas Warren فــي مدينة دينتون بولاية تكســاس، حيــث كان الحضور ولعدة أيام يتراوح ما بين خمســة إلى سبعة الآلاف متابع، أما مناظرة عام ١٩٩٨ فكانت مع وليام لين كريغ William Lane Craig في مدينة مديسون في ولاية ويسكنسن، وكان الحضــور يقدر بأربعة الآلاف. فقط في هاتــين المناظرتين لعبت دور البطل في مناظرة عامة.

تُعقــد المناظــرات في المملكة المتحــدة عادة بحضور أكاديمــي قليل، لذا كانت تجربتي الأولى في مواجهة جمهور كبير كمناظرة في مواجهة البروفيسور الراحل الفيلسوف المســيحي توماس وارن Thomas B. Warren، وقد عقدت المناظرة في جامعة شمال تكساس، في مدينة دينتون، على مدى أربعة ليالي متتالية، بداية من ٢٠ ســبمتبر من عام ١٩٧٦، وهو التاريخ الذي تزامن مع المناظرة الرئاسية الأولى بين جيمي كارتر Jimmy Carter وجيرالد فورد Gerald Ford.

أمــام جمهور متحمس، قــدم البروفيســور ورن مجموعة مؤثرة من الرســوم واللوحــات التوضيحيــة، والمثير أن جزءاً كبيراً مــن محاضرته ذهب للهجوم على نظريــة التطور Theory of evolution، والتي كانت بالنســبة لــي في ذلك الوقت مشــروعاً غير مألوف، وعندما سألني البروفيســور ورن عما إذا كنت أعتقد بأن هناك موجوداً نصف قرد ونصف إنســان كان ردي بأن ذلك يشبه السؤال عما إذا

كان شـــخص ما أصلعاً أم لا. كان رأس المشرف على رسالتي في الدكتوراة غلبرت رايل يشبه البيضة (لم يكن على رأسه أية شعرة)، وليس هناك شك بأن أي شخص لابد أن يقول إنه أصلع، ولكن ليس من السهل تعريف من هو الأصلع ومن هو غير الأصلع.

ومــع ذلك، وأخذاً لآرائي الحالية بالاعتبار، ربمــا يكون عدد قليل من عباراتي الإخبارية[1] Declarative statements (الجمل التي ليست سؤال أو أمر أو إستفهام) فــي تلك المناظرة مهماً في توضيح قــوة أعتقاداتي الإلحادية في هذه النقطة من قبيل:

«أنا أعرف أنه ليس هناك إله»

«منظومة الاعتقاد المتعلقة بالإله» تتضمن «نفس التناقض» الموجود في «الأزواج غير المتزوجين أو المربعات الدائرية».

«أنا أميل إلى الاعتقاد بأن الكون لا بداية له وسيظل دون نهاية، وفي الحقيقة أعتقد أنه لا جدوى من تحدي أي من هذين الاعتقادين».

«أعتقد أن الكائنات الحية تطورت على مدى فترة طويلة لا يمكن حسابها من مواد غير حية».

لقد تأثرت بالاســتقبال الحافل من قبل المســتضيفين، ولكــن المناظرة أنتهت بتمسكي وتمسك ورن بأسلحتنا.

---

(١) العبارات الإخبارية هي العبارات التي تحتمل الصدق أو الكذب، وتأتي في مقابل العبارات الإنشائية التي تنطوي على ســؤال أو أمر أو اســتفهام...إلخ، ولا تحتمل في ذاتها الصدق أو الكذب، إلا إذا تم تحويلها إلى عبارات إخبارية.

إطلاق نار على زريبة

Shooting at the O.K. CORRAL[1]

كانت مناظرتي التالية بعد عشـرة سـنوات من تلك المناظرة، وكانت أيضاً في تكساس، وعقدت في دالاس في عام ١٩٨٥، وقد شعرت بأن الوضع يبدو كإطلاق النار المشـهور على زريبة O.K. أشـترك معـي في المناظرة ثلاثة من مشـاهير الملحدين: والالس ماتسـون Wallace Matson وكي نلسن Kai Nielsen وبول كيرتز Paul Kurtz، وقد واجهنا مجتمعين مجموعة من كبار الفلاسـفة اللاهوتيين: ألفن بلانتنغا Alvin Plantinga ووليام ألسـتون William P. Alston وجورج مافرودس George Mavrodes ورالف ماكنيري Ralph McInerny.

على عكس المعارك المشـهورة، لم تشـهد هذه المناظرة أية ألعاب نارية لأن كلا الفريقين لم يرغب بجذب الإنتباه لخصمه، وكلا الفريقين تمسـك برأيه بأن مهمة تقديم الدليل تقع على عاتق الطرف الأخر. أعتبرت أن تقديم الدليل هي مسؤولية المدعي، وليس مسـؤولية المنكر، أما على الطرف الموحد فإن بلانتينغنا أصر على أن الإيمان بالإله أمر أساسـي، وهو ما يعني أن الموحدين ليسـوا ملزمين بتقديم الحجج على صحة ادعائهم، كما أنهم ليسـوا ملزمين بتقديم حجج على إعتقادات أساسـية مثل وجود العالم، أما في جانبنا الملحد، فإن نلسـون جادل بأن فلسـفة الدين مملة، في حين أعتبر ماتسون بأن الحجج التقليدية على وجود الإله معيبة، أما كيرتز فادعى أنه من غير الممكن اسـتنتاج وجـود موحى مقدّس إعتماداً على الادعاء بوجود وحي مقدس.

(١) قصة تصور تبادل إطلاق النار بين أحد رعاة البقر الخارجين عن القانون وبين رجال الشرطة قرب زريبة خيول في الريف الأمريكي، وتم إنتاج فيلم بنفس أسم هذه القصة.

بينما كنت في دالاس، قابلت إثنين من فلاسفة المسيحية الإنجيلية، وهما تيري ميثي Terry Miethe، وهو يعمل في مركز دراســات أكسـفورد، وغاري هيبرماس Gary Habermas من كلية لينجبيرغر Lynchburg بولاية فرجينيا، واللذين أصبحا صديقايّ منذ ذلك الوقت.

في السـنوات التي تلت ذلك نُشرت لي مناظرتان، الأولى عن قيامة المسيح مع هيبرمــاس، ومناظرة أخرى عن وجود الإله مع ميثي. من جهتي -في مناظرتي مع ميثي- أعدت تأكيد مجموعة من مواقفي التي طورتها خلال سـنوات عن إنسجام تصـور الإله وفرضية الإلحاد، أما ميثي فقدم نسـخة رائعة مـن الحجة الكونية المبنية على المقدمات التالية:

بعض الكائنات المتغيرة بنحو محدود، موجودة.

الوجود الحاضر لكل كائن متغير بنحو محدود، ناتج عن آخر.

لا يمكـن أن يكـون هناك تسلسـل (تراجـع) لا نهائي لأسـباب الكائنات، لأن التسلسل اللانهائي للكائنات المتناهية لن يكون «سبباً» لوجود أي شيء.

إذاً، يوجد سبب أول للوجود الحاضر لهذه الكائنات.

السبب الأول يجب أن يكون لا متناهياً، ضرورياً، خالداً، وواحداً.

السبب الأول الذي لا سبب له، متطابق مع إله التقليد اليهودي-المسيحي.

هذه الحجة لا تسـتند إلى مبـدأ العلة الكافيـة Sufficient reason [1]- الذي رفضته، وإنما تستند إلى مبدأ السببية الوجودية. رفضت هذه الحجة على أساس أن الأسباب الفاعلة في الكون تكون فاعلة بذاتها دون الحاجة إلى علة فاعلة أولى.

(١) العلة الكافية قضية أو مجموعة قضايا معروف أنها صادقة، منها يمكن اشتقاق النتيجة منطقياً

مع ذلك، قلت إنه رغم صعوبة الاعتقاد بالوجود المســتمر للكون الفيزيائي – وهو ما يحتاج إلى تفســير خارجي–، فإن من الســهل اقناع العامة بأن الإنفجار الكبير يستلزم وجود علة أولى.

الاستمرار بسرعة

Holding Fast

فــي الوقت الذي كنت أقوم فيه بالتدريس عــام ١٩٨٠، في جامعة بولنغ غرين Bowling Green بولاية أوهايو كانت لي مناظرة طويلة مع ريتشــارد ســوينبيرن، وهو كما ذكرت ســابقاً بأنه خلفني في جامعة كييـل، وبعد ذلك أصبح استاذاً في أكسفورد.

أصبح سوينبيرن أشهر مدافع عن التوحيد في الدول الناطقـة بالإنكليزية، وقد أشــاد أحد زملائي السابقين من التيار الشكي ترنس بينلهم Terence Penelhum بكتاب ســوينبرن وهو بعنوان «إتساق التوحيد» The Coherence of Theism بقوله «أنا لا أعرف أي دفاع ضد الفلســفة الشــكية المعاصرة يمكــن مقارنته من حيث النوعيــة والوضوح في الفكر». أحد التصورات التي دافع عنها ســوينبرن بقوة هو تصور روح غير مادية عالمة بكل شيء، - وهو أحد أهم التصورات التي تناولتها في كتاب «الإله والفلســفة» - وكما هو الحال في مناظرتي مع بلانتيغا فإن مناظرتي مع ســوينبرن أنتهت إلى طريق مســدود حيث تمســك كلانا بموقفه، ولم أجد أي مبرر لتصور روح غير مادية، بينما لم يجد سوينبيرن مبرراً لأي شخص في رفض تلك الفكرة. لم تنتهِ حواراتي مع ســوينبرن إلى هذا الحد كما ســيتضح لاحقاً في هذا الكتاب، بل أســتمرت إلى اليوم (وبالمناســبة فعندما أنتشــر خبر تحولي إلى التوحيــد علق بلانتينغا على ذلك بالقول «إن هذا يدل على إخلاص البروفيســور فلو، فهو بعد كل هذه السنين من معارضة فكرة الخالق، ها هو يغير موقفه استناداً إلى الدليل»).

تلـــت المناظـــرة مع ســـوينبرن مناظـــــرة أخـــرى مـــع وليـام لــــين كريـــغ William Lane Craig في عام ١٩٩٨ في ميدسون بولاية ويسكنسون، وقد عقدت المناظرة بمناسبة الذكرى الخمسين لمناظرة محطة الإذاعة البريطانية البي بي سي BBC الشهيرة بين برتراند رسل وفريدرك كوبلستون Frederick Copleston.

جـــادل كريغ بأن أصل الكـــون والنظام المعقد فيه يمكن تفســـيره بأفضل نحو بوجـــود إله، وقد قمت بالرد عليـــه بأن معرفتنا عن الكون يجـــب أن تتوقف عند الانفجار الكبير، والذي ينبغي رؤيته على أنه الحقيقة النهائية Ultimate fact، أما ما يتعلق بحجة التصميم فأشـــرت إلى أنه حتى أعظم الكيانات تعقيداً في الكون – البشر – هي نتاج قوى فيزيائية وميكانيكية.

في هذه المناظرة كررت موقفي من أن الإله الذي هو على كل شيء قدير، يمكن أن يجعل البشر يختارون طواعية، وهذا يعني أن الدفاع التقليدي عن الإرادة الحرة لا يستطيع تجنب ما يترتب على ذلك من أن الإله حدد مصير كل الأشياء بما فيها الاختيارات الحرة.

كنت أرفض على الدوام الاعتقاد بفكرة المصير المسبق والتي تنص على أن الإله حتّم الخطيئة على معظم البشـــر. مـــن خصائص هذه المناظرة رفض كريج لأفكار المصير المســـبق التقليدية ودفاعه عن الإرادة الحرة الليبرالية. ذهب كريج إلى أن الإله يتدخل مباشـــرة في النتائج (المُســـبِّبات) ولا يتصـــرف كعامل ثانوي، ولذلك فقد كان من المستحيل أن يخلق الإله عالماً مكوناً من كائنات حرة دائماً تفعل الأمر الصائب، واستشهد كريغ بنصوص من الإنجيل تؤكد على رغبة الإله في أن يعيش كل الناس بأمان.

حديثــاً، وجــدت أن جــون ويســلي John Wesley – والذي أعتبره أحد أعظم أبنــاء بلدي – قاد حملة ضد فكرة المصير المســبــق وتأييــداً للبديل «الأرمني»[1] Arminian alternative، وخصوصاً في ورقته البحثية العظيمة «إعادة النظر بهدوء في المصير المســبق». أتفهم أن يعتبر بعض المفسرين اليوم أن كتابات القديس بول St. Paul في فكرة المصير المسبق كمرجعية لدور أفراد خاصين في أعمال الكنيسة وليس إلى خلاصهم أو هلاكهم.

(١) تعني عودة المسيح.

ظهوري الأول في نيويورك

My New York Debut

المناظرة العمومية الأخيرة لي كانت في ندوة في جامعة نيويورك، وتمت في مايو من عام ٢٠٠٤، وكان المشاركون الآخرون هم العالم الإسرائيلي جيرالد شرويدر Gerald Schroeder مؤلف أفضل الكتب مبيعاً في مجال العلم والدين وهو بعنوان «علم الإله» The Science of God، وكان من ضمن المشاركين أيضاً الفيلسوف الأسكتلندي جون هالدين John Haldane، والذي كان مشاركاً في مناظرة «التوحيد والإلحاد» حول وجود الإله إلى جانب صديقي جاك سمارت Jack Smart.

وكمفاجأة لجميع المهتمين، أعلنت في البداية أنني الآن أقبل بوجود الإله. ما أعتبر في وقته تبادلاً حاداً لوجهات النظر المتعارضة أثناء المناظرة أنتهى إلى أن يصبح بحثاً مشتركاً في التطورات العلمية الحديثة التي يبدو أنها تشير إلى ذكاء خارق. في الفيديو الذي عُرض في الندوة، أدعى عريف الندوة أن الإله هو أعظم إكتشافات العلم الحديث، وعندما سُئِلت في هذه الندوة إن كان بحثي حول أصل الحياة يشير إلى ذكاء إبداعي، أجبت بالقول: «نعم، أنا الآن أعتقد بذلك ... بشكل شبه كامل بسبب اكتشافات الحمض النووي DNA. ما قدمه إكتشاف الحمض النووي أوضح التعقيد الشديد غير القابل للتصديق للترتيبات اللازمة لخلق حياة، وهو الأمر الذي يوجب أن يكون هناك ذكاء خارق يجعل هذه العناصر المختلفة تعمل معاً. إنه التعقيد الخارق لهذه العناصر والدقة الهائلة في الطرق التي تتفاعل فيما بينها، واجتماع هذين الأمرين في الوقت المناسب بالصدفة هو ببساطة أمر

مســـتحيل، فلابد من أن الأمر يتعلق بتعقيد هائل أنتج ما وصلنا إليه، وهو ما بدا لي أنه نتاج ذكاء».

هذا التصريح مثّل بالطبع تغيراً كبيراً بالنسبة لي، ولكنه مع ذلك كان يتسق مع المبدأ الذي تبنيته منذ بداية مسيرتي الفلسفية في إتباع الحجة حيثما قادتني. لقد تأثرت بشكل خاص بالتفنيد المفصل الذي قام به جيري شرودر Gerry Schroeder لما أســميته « مبرهنة القــرد» monkey theorem، وهي الفكرة التي قُدمت بطرق مختلفة كرد على القائلين باحتمال حدوث الحياة بالصدفة مســتخدمين تشــبيه قيام مجموعة مــن القردة بالعبث على لوحة مفاتيــح الكمبويتر لينتج في النهاية قصيدة السونيته لشكســبير. أشار شرودر في البداية إلى تجربة قام بها المجلس الوطنــي البريطاني للفنون، حيث تم وضع كمبيوتر في قفص بداخله ســتة قرود، وبعد شــهر من العبث به بالإضافة لاستخدامه كمرحاض أنتجت القرود خمسين صفحــة مكتوبة ولكن دون كلمة واحدة! وقد علق شــرويدر بالقول: «إن هذه كانت هــي النتيجة بالرغم مــن أن الكلمة باللغة الإنجليزية يمكــن أن تتكون من حرف واحــد فقط (I، a)، فالحــرف A يمكن أن يصبح كلمة فقــط عندما يكون هناك مســافة على يمينه ويساره، فإذا كان هناك ثلاثون حرفاً ورقماً على لوحة المفاتيح فــإن إحتمال الحصول على كلمة مكونة من حرف واحد هو 30x 30 x 30 وحاصله ٢٧,٠٠٠. بعد ذلك قام شرودر بتطبيق قوانين الاحتمال Probability Rules علــى قصيـدة السونـيتة Sonnet لشكســبير، وتسائل شرودر: ما هو إحتمال الحصول على قصيدة السونيتة لشكسبير؟ وأكمل قائلاً: «كل بيت من أبيات القصيدة مكون من نفس العدد من الحروف، والقصيدة مكونة من ١٤ بيت، وقد أخترت القصيدة التــي تبدأ بجملة «Shall I compare thee to A summer’s day»، وقمت بحســاب

عــدد الحــروف فكان عددها ٤٨٨ حرفــاً. ما هـي إحتماليــة أن تعبث على لوحة المفاتيــح لتكتب ٤٨٨ حرفاً بنفــس تعاقب أحرف هذه الجملــة ؟ النتيجة هو ١٠ أس ٨٠. وهــذا الرقم (١٠ أس ٨٠) هو ١ مــع ٨٠ صفر بعده. ١٠ أس ٦٩٠ هو ١ مع ٦٩٠ صفر بعده. لا يوجد في الكون جســيمات كافية لتدوين المحاولات. عدد الجسيمات في الكون ليس حبات من الرمل، فنحن نتكلم عن بروتونــات والكترونات ونيترونات، إذا أخذت الكون بأكمله وحولته إلى شرائح كمبيوترية، يزن كل منها ١ من المليون غرام، وكانت قدرة كل شريحة على الاختيار من بين ٤٨٨ محاولة خلال جزء من المليون من الثانية لاختيار رقم عشوائي، فإن عدد المحاولات الناتجة منذ بدأ الزمان ســوف تصبح ١٠ أس ٩٠، وببســاطة لن تستطيع أبداً أن تنتج قصيدة السونيتة بالصدفة. هذا يتطلب أن يكون الكون أكبر بمقدار ١٠ أس ٦٠٠، في حين أن العالم يتوقع أن القرد يستطيع عمل ذلك[1].

بعد أن أســتمعت إلى محاضرة شرويدر Schroeder قلت له: إنه توصل بصورة مرضية وحاســمة إلى أن «مبرهنة القرد» مجرد كومــة من القمامة، وأنه كان من المناســب اختيار قصيدة الســونيتة كمثال لأن البعض يستخدم أعمال شكسبير أو مقطوعة موســيقية لهاملت كمثال، فإذا لم تكــن المبرهنة قادرة على الصمود في قصيدة واحدة، فمن المؤكد أنه ببســاطة من المســتحيل القول بأن عملاً رائعاً مثل أصل الحياة حدث بالصدفة.

(1) Gerald Schroeder, “Has Science Discovered God?” http://science. lenicam.com.

مبارزة مع دوكنز

Dueling With Dawkins

بالإضافة إلى مناظراتي العامة، أشـــتركت في مناقشات جدلية كتابية متعددة، ومن الأمثلة البارزة على هذه المناقشـــات الســـجال الذي حصل مع العالم ريتشارد دوكنز Richard Dawkins، فرغم أنني كنت من الممتدحين لأعماله الإلحادية فإنني كنـــت أيضاً من الناقدين لجين الأنانية في مدرســـته الفكريـــة. في كتابي «التطور الداروني»، أشرت إلى أن الإنتخاب الطبيعي لا ينتج بنحو إيجابي، وأنه فقط يقوم بالتخلص أو يميل للتخلص من كل الأشياء غير القادرة على المنافسة. فتحقق التنوع في الكون ليس بحاجة لتنشـــيط أي مزية واقعية تنافســـية لتفادي الإقصاء؛ فمن الكافي أن لا تكون تلك المزية عبئاً على حاملها وأن لا تضعف موقفه التنافسي.

لنقدم شرحاً مبسطاً، أفترضوا أنني أملك أجنحة لا فائدة منها تحت ملابسي، ولكن هذه الأجنحة من الضعف بحيث لا تســـتطيع رفعي عن الأرض، ولذلك فإن هذه الأجنحة لا تمكنني من الهروب من الحيوانات المفترســـة ولا تمكنني من جمع الطعام، ولكنها مادامت لا تجعلني «أكثر» عرضة للحيوانات المفترســـة فإني سوف أحتفظ بها وأورثها إلى أحفادي.

خطـــأ دارون كان في المبالغة في تقدير حجته، حيث قال إن الانتخاب الطبيعي ينتج شـــيئاً ما، والمبالغـــة تأتي بســـبب توظيفه لتعبير «الانتخـــــاب الطبيعي» أو «البقـــاء للأصلح» بدلاً من تعبيره المفضـــل في نهايـــة مقالته «الحماية الطبيعية» Natural preservation. لقد ذهبت للإشـــارة إلى أن كتاب دوكنز «الجين الأناني» كان تدريباً رئيسياً على ممارســـة التضليل الشعبي. كفيلسوف ملحد، أعتبرت أن

هـــذا النوع من العمل الشـــعبوي مدمـــر في كل جوانبه بمثابة إمـــا «كقرد عارٍ» أو «كحديقة حيوان بشـــرية» اللذان كتبهما ديسمود موريس Desmond Morris. قدم موريـــس في أعمالـــه، كنتيجة لأبحاثه الحيوانية قدراً إضافيـــاً من النفي المنهجي لفكرة أن المكونات المميزة لنا كنوع تبدو كظاهرة بيولوجية، ولكنه تجاهل الإختلاف الواضح بين البشر وبقية الأنواع.

من ناحية أخرى، أجتهد دوكنز في التقليل والانتقاص من ثمرة أكثر من خمسين عاماً من الأبحاث في مجال الجينات والتي توصلت إلى أن قسماً كبيراً من الصفات الظاهـــرة للكائنات الحية تتكيف نتيجة للتفاعل في ما بين مجموعة من الجينات، في حين أن معظم الجينات لها تأثيرات متعددة على هذه الصفات. يعتبر دوكنز أن الأمر الأساســـي الذي ينتج السلوك البشري يعود إلى خصائص الجينات الموجودة لـــدى الأفراد. وبالتالي، بعد أن أصر على أننا جميعاً مخلوقات غير مختارة نتيجة لنوع جيناتنا، أســـتنتج دوكنز أن كل ما نســـتطيع فعله هو أن نتقاسم صفاتنا غير المحببة مع الكائنات أحادية الخلية.

الجينات بالطبع لا هي أنانية ولا هي غير أنانية أكثر مما هو حال بقية الكائنات غير الواعية في المنافســـة أو الاختيار. (الانتخاب الطبيعي المتداول، ليس انتخاباً؛ بل هو بنحو ما حقيقة منطقية غير مألوفة، بمعنى أنه تحت المســـتوى البشـــري، الصراع من أجل الوجود ليس «تنافســـياً» بالمعنى الحقيقي للكلمة). ولكن ذلك لم يمنـــع دوكنز من القول بأن كتابه «ليس كتاباً في قصص الخيال العلمي... إنه علم .... نحـــن آلات قـــادرة على البقاء ... الروبوتات هي آلات مبرمجة بشـــكل أعمى للحفـــاظ على مكونات أنانيـــة تعرف كجينات». ورغـــم أن دوكنز أنكر ذلك بعض المرات إلا أنه يُحذِّر في كتابه من أخذ كلامه بصورة حرفية، وأضاف بشـــكل مثير

بـــأن حجة الكتاب العامـــة هي أننا –كحال بقية الحيوانـــات– مجرد آلات صُنعت بواسطة جيناتنا[1].

لو كان ثمة صحة لهذا الكلام، فإنه لا حاجة للاســـتمرار في النقاش، كما فعل دوكنز بالتبشـــير بالقول «دعونا نتعلم الكرم والإيثار لأننا ولدنا أنانيين»، لا بلاغة بمقدورها تحريك الروبوتات، فالجينات كما نشاهد لا تجعل أعمالنا حتمية، ولا هي قادرة على حساب وفهم متطلبات التصرف بأنانية مفرطة أو برحمة مضحية.

أعتـــزل بيبي روث كـــرة القدم الأمريكيـــة في عمر الأربعين، وهـــا أنا الآن لي ضعـــف عمره؛ في الثمانـــين من عمري، ورغم أنني غيّـــرت موقفي المتعلق بوجود إله، إلا أنني آمـــل أن يكون دفاعي عن الإلحاد ومناظراتي مع الموحدين والآخرين قد أوضحا اهتمامي الدائم بالأســـئلة اللاهوتية واســـتعدادي لمواصلة البحث عن إجابات متعددة. ليقُلِّ المحللون والأطباء النفسيون ما يشاؤون، ولكن «الجنين» الذي في داخلي ســـوف يظل كما كان، يســـعى دوماً إلى الحجج السليمة والاستنتاجات الصحيحة، وأتمنى أن يتم التعامل معي بنفس القدر من الشغف والمبدئية التي كنت عليها دائماً. في الجزء الثاني من الكتاب سوف أعرض لموقفي الحالي والأدلة التي قادتني للتمسك به.

(1) Richard Dawkins, The Selfi sh Gene (New York: Oxford University Press, 1976), x.



القسم الثاني

اكتشافي للمقدس



الفصل
الرابــع

حـــج العقل
Pilgrimage of Reason



حـــج العقـل
Pilgrimage of Reason

لنبدأ بمثال، تخيّل أن هاتفاً مرتبطاً بقمر صناعي سقط على ساحل جزيرة نائية تسكنها قبيلة لم يكن لها أي إتصال مع الحضارة الحديثة. يبدأ أبناء القبيلة بالعبث بالأزرار الموجودة على سـطح الهاتف وعندها سمعوا أصواتاً مختلفة عند الضغط على تسلسـل معين للأرقام. في البداية سوف يفترضون أن الهاتف هو من يصدر هذه الأصوات، أما أبناء القبيلة الأذكياء ولنقل علماء هذه القبيلة فأعادوا الضغط على نفس تسلسـل الأرقام وعندها سمعوا الصوت نفسه، وحينها يكون الاستنتاج لديهـم واضحاً، فهذا المركب الذي يتكون من بلورات ومعادن ومواد كيماوية يصدر صوتاً يشبه صوت الإنسان، وهذا يعني ببساطة أن هذه من خصائص الهاتف.

لكن مجلس حكماء القبيلة أجتمع لمناقشـة الأمر. وبعد نقاش طويل وعاصف للموضـوع يتوصلون إلى نتيجة مفادها: أن الأصوات التي تصدر من الجهاز يجب أن تكـون أتية مـن أناس مثلهم، وهـؤلاء الناس أحياء ويتمتعـون بالوعي ولكنهم يتكلمـون لغة أخرى. بدلاً من افتراض أن الأصوات تأتي من سـماعة الهاتف فإن عليهم استكشـاف إمكانية أنهم ومن خلال شـبكة إتصالات غامضة يسـتطيعون التواصل مع أناس أخرين، ويتمكنوا من الوصول إلى فهم أكبر للعالم الذي يتجاوز جزيرتهم. لكن علماء القبيلة ضحكوا أمام حكيم القبيلة قائلين: «إذا كسـرنا هذه الأداة فإن الأصوات سـتتوقف، وهذا يعني بوضوح أن هذه الأصوات ليست سوى أصـوات تصدر من خليط من الليثيوم وشـريحة طباعة أرقـام وصمامات ثنائية باعثة للضوء.

في هذا المثال، نرى كيف أن النظريات المسبقة تشكل الطريقة التي نرى بها الدليل بدلاً من أن ندع الدليل يشكل نظرياتنا، وعندها يمكن أن نتجنب القفزة الكوبرنكية (نسبة إلى كوبرينكس [١] Nicolaus Copernicus)، من خلال ألالاف من أفلاك التدوير البطلمية [٢]، وهنا كما يبدو تكمن الخطورة والشر المستشري للإلحاد العقائدي. تأمل في كلام مثل «علينا أن لا نطلب تفسيراً للكيفية التي وُجد بها العالم، إنه موجود وكفى» أو «بما أننا لا نستطيع قبول مصدرا متعالي للحياة فإننا نختار أن نؤمن باستحالة: إنبثاق هذه الحياة فجاءة بطريق المصادفة من المادة»، أو أن «القوانين الفيزيائية هي قوانين اللاقوانين التي ظهرت من فراغ- وانتهى النقاش».

في البداية، قد تبدو هذه العبارات كحجج منطقية لها صلاحية خاصة لا حاجة لمناقشتها، ولكن بالتأكيد فإن ذلك ليس أكثر من أن تكون إشارة إلى أن هذه العبارات إما أنها عقلانية وإما أنها حجج. لكي نقدم حجة عقلانية بأن شيئاً ما كذا وكذا، فإن من الضروري تقديم الأسباب التي تدعم ذلك. ولكن لنفترض أننا نشك بأن هناك ثمة ثغرة في هذا الكلام، أو لنكن أكثر تطرفاً فنقول أن لدينا شك بأن كل ما قيل له أي قيمة أصلاً. كمحاولة لفهم ما يقصده هؤلاء علينا أن نحاول إيجاد الدليل الذي يؤكد حقيقة ما يزعمون.

لأن هذا الكلام إذا كان عقلانياً وحجة، فلابد من تقديم الأسباب التي تؤيده من الناحية العلمية أو الفلسفية. وأيضاً لا بد من تقديم ما يمكن إعتباره ضد

(١) نيكولاس كوبرينكس: أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرماً يدور في فلكها في كتابه «في ثورات الأجواء السماوية»

(٢) المدافعون عن نظرية بطليموس بأن الأرض مركز الكون والرافضين لنموذج كوبرينكس الشمسي عن طريق استخدام تصور أفلاك التدوير للأعتراض على ملاحظة حركة الكواكب التي تتعارض مع نموذجهم.

هذا الكلام أو تقديم ما يمكن أن يقنع المعترض بالانسحاب والاعتراف بأنه كان مخطئاً. ولكن إذا لم يُقدم أي دليل أو سبب في صالحه، فإنه ليس هناك ما يدعونا للقول بأن هذا الكلام حجة عقلانية.

عندما يقول حكيم القبيلة للعلماء بأن عليهم أن يسكتشفوا جميع أبعاد الدليل فإنه يريد أن يقول أن الفشل في استكشاف ما يعتبر لأول وهلة منطقياً ومقبولاً يعيق بطبيعة الحال فهماً أفضل للعالم الذي يتجاوز الجزيرة التي تسكنها هذه القبيلة. غالباً ما يبدو للناس غير الملحدين كما لو لم يكن هناك دليلاً مقبولاً يقنع الملحدين أصحاب التفكير العلمي الجزمي ليكون علة كافية للقول «قد يكون هناك إلهاً في نهاية المطاف». ولذلك فأنا أسأل زميلي السابق الملحد السؤال المركزي البسيط: «ما الذي ينبغي أن يحدث أو يجب أن يحدث لكي تعتبره على أقل تقدير سبباً للتفكير في وجود عقل خارق؟».

وضع الأوراق على الطاولة

Laying The Cards On The Table

لأترك المثال جانباً، لألقي أوراقي على الطاولة، وأعرض أفكاري والأسباب التي تدعم ذلك. أنا الآن أؤمن بأن الكون قد جاء إلى الوجود بواسطة ذكاء لا محدود. أنا أؤمن بأن قوانين الكون المعقدة تُبيِّن ما أسماه العلماء عقل الإله. انا أؤمن بأن الحياة وإعادة الخلق أساسها مصدر إلهي.

لماذا أؤمن بذلك مع أني دافعت عن الإلحاد لأكثر من نصف قرن؟ الجواب باختصار هو أن هذه هي صورة العالم التي نبعت من العلم الحديث. العلم سلط الضوء على ثلاثة أبعاد للطبيعة وهي تشير إلى الإله.

الأول هو أن الطبيعة تخضع لقوانين.

الثاني هو بُعد الحياة في الكائنات الذكية المنظمة التي نتجت عن المادة.

الثالث هو الوجود الحقيقي للطبيعة.

ولكن ليس العلم فقط هو من قادني لذلك. ولكنني أستفدت من الدراسة المستحدثة للحجج الفلسفية التقليدية.

إن تراجعي عن الإلحاد لم يكن بسبب أي ظاهرة أو حجة جديدة. فخلال العقدين الماضيين كان مجمل الإطار الفكري لي في حالة تبدل. وكان هذا نتيجة تقييمي المستمر لأدلة الطبيعة. وعندما وصلت في النهاية إلى الإيمان بالإله، لم يكن ذلك تبدلاً للنموذج الإرشادي Paradigm Shift، فنموذجي الإرشادي مازال على حاله، وهو كما قال أفلاطون في الجمهورية على لسان سقراط «يجب أن نتبع الدليل حيثما ذهب بنا».

قد يتسائل شخص كيف أنني وأنا فيلسوف أتحدث في مواضيع عالجها العلماء. إن أفضل جواب على هذا السؤال هو بطرح سؤال أخر: هل نحن الآن بصدد العلم أم بصدد الفلسفة؟ عندما تدرس التفاعل المتبادل بين جسمين ماديين ولنقل على سبيل المثال أثنين من الجسيمات دون الذرية فإنك تتحدث في المجال العلمي، أما إذا كنت تسأل كيف ولماذا توجد هذه الجسيمات -أو أي جسم مادي- فأنت تتحدث حينها في الفلسفة. عندما تستنتج نتيجة فلسفية من معلومات علمية فأنت تفكر كفيلسوف.

التفكير كفيلسوف

Thinking Aa a Philosopher

دعونـــا نتطرق لهذه النظرة هنا. في عام ٢٠٠٤، قلت بأن أصل الحياة لا يمكن تفســيره إذا بدأنـــا بالمادة فقط. رد المنتقدون بروح المنتصـــر قائلين بأنني لم أقرأ قـــط مقالاً في مجلة علمية ولا تابعت التطـــورات العلمية الحديثة المتعلقة بالتولد التلقائـــي (التولد الذاتي من كائنات غير حيـــة). هم بهذا النقد لم يفهموا الهدف الرئيســـي من كلامي، فاهتمامي لـــم يكن منصباً على هـــذه الحقيقة أو تلك في الكيمياء أو في علم الجينات، بل كان إهتمامي منصباً على الســـؤال الرئيسي عن معنى أن يكون شـــيئ ما حياً، وما علاقة ذلك بالحقائق الكيميائية والجينية ككل. أن تفكر على هذا المستوى، فأنت تفكر كفيلسوف. وحتى لا أبدو متواضعاً أكثر من اللازم يجب أن أقول أن هذا عمل الفلاسفة وليس عمل العلماء كعلماء. التخصص الدقيـــق للعلماء لا يعطيهم أية ميزة عند مناقشـــة هذا الســـؤال، بالضبط كما أن لاعب البيسبول ليس من شأنه أن يحدد أي نوع من معاجين الأسنان أفضل.

بالطبع للعلماء، وللفلاسفة، ولأي شخص الحرية الكاملة في أن يقول ما يريد. وبالتأكيـــد لن يتفق كل العلماء معي في تفســـيري الخاص للحقائق التي يتوصلون إليهـــا، ولكن إختلافهم معي يجب أن يقوم على قدمين فلســـفيتين. وبعبارة أخرى أخرى، إذا انخرط العلماء في تحليل فلســـفي، فلا ســـلطتهم ولا خبرتهم بوصفهم علماء، هي ذات صلة، ويجب أن يكون ذلك واضحاً. عندما يقدمون رأيهم في علم الاقتصاد مثل تقديم ادعاءات حول عدد الوظائف التي يوفرها العلم والتكنولوجيا، فإن عليهم أن يقدموا تحليلهم في إطار التحليل الإقتصادي، وكذلك العلماء الذين

يتحدثون كفلاسفة عليهم أن يطرحوا رأيهم في الإطار الفلسفي، وكما قال ألبرت أينشتين Albert Einstein «رجل العلم هو فيلسوف ضعيف»[1].

ولحسـن الحظ أن الأمر ليـس كذلك دائماً، فقادة العلم خلال مئات السـنين الماضية وبعضهم من العلماء المعاصرين المؤثرين قدموا رؤية فلسفية تنبثق من عقل لاهوتي. وكذلـك الحال معي، فأنا أقدم رؤيتي الخاصة عـن العالم والتي أعتقد أنها قائمة فلسـفياً على تفسـير العديد من الظواهر التي واجهها العلماء والناس العاديين على حد سواء.

ثلاثة أبعـاد من البحث العلمي كانت على وجه الخصوص مهمة بالنسـبة لي، علـى ضوء الأدلـة المتداولة اليوم. أول هذه الأبعاد هو السـؤال الذي حير ولازال يحير الكثير من العلماء اللامعين، وهو من أين جاءت قوانين الطبيعة؟ والثاني هو السـؤال الواضح للجميع: كيف جاءت الحياة من اللاحياة؟ والثالث وهو السـؤال الذي يوجهه الفلاسـفة لعلماء الكون: كيف جاء الكون –بكل ما يحتويه من أشـياء مادية– إلى الوجود؟

(1) Albert Einstein, Out of My Later Years (New York: Philosophical Library, 1950), 58.

بناءاً على موقفي الجديد من نقاش الفلسفة التقليدية حول وجود إله، فإن أكثر ما أقنعني هو حجة الفيلسوف ديفيد كونوي David Conway المؤيدة لوجود إله في كتابه «عودة الحكمة: من هنا إلى البحث عن الحكمة» .The Recovery of Wisdom: From Here to Antiquity in Quest of Sophia كونوي فيلسوف بريطاني مميز في جامعة ميديلسيكس Middlesex، وهو معروف بالخصوص في مجالي الفلسفة التقليدية والحديثة معاً.

الإله الذي ندافع أنا وكونوي عن وجوده هو الإله الذي تحدث عنه أرسطو، فقد كتب كونوي قائلاً:

«وخلاصة القول، إن أرسطو حدد الصفات التالية للكائن الذي يفسر وجود العالم بمعناه الواسع،: الثبات، غير مادي، على كل شيء قدير، بكل شيء عليم، يتصف بالوحدانية، غير قابل التجزئة، يتصف بالخير المطلق ووجوب الوجود. هناك تشابه عجيب بين هذا الصفات وبين تلك الصفات التي ذُكرت للإله في التقليد اليهودي- المسيحي.

وهذا ما يبرر قولنا بأن أرسطو كانت لديه نفس فكرة الإله كمُسبِّب للوجود وهو نفسه الإله الذي يستحق العبادة في هاتين الديانتين»[1].

وكما يرى كونوي، فإن الأله الذي تؤمن به الأديان التوحيدية له نفس صفات الأله الذي يؤمن به أرسطو. في كتابه، يحاول كونوي الدفاع عما أسماه التصور

(1) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 74.

التقليدي للفلسفة. وهذا التصور يرى أن تفسير وجود العالم ينبثق من أن الإله كُلِّي القدرة وكُلِّي العلم خلق هذه العالم لكي يوجد ويستمر وجود الكائنات العاقلة عليه[1].

خلق الإله الكون من أجل أن يخلق جنس الكائنات العاقلة. يعتقد كونوي وأنا أشاركه في ذلك أنه من الممكن معرفة وجود وطبيعة هذا الإله الأرسطي عن طريق التجربة دون الحاجة إلى استدلال بشري.

لابد أن أؤكد على أن اكتشافي للألوهية مرّ عبر مستوى طبيعي صرف، دون الرجوع إلى أية ظواهر غير طبيعية (خارقة). لقد كان إكتشافي للإلوهية عبارة عن ممارسة ما يسمى باللاهوت الطبيعي [2]، وليس له علاقة بأي نوع من أنواع الوحي الديني. وأنا لا أدعي أنه حصلت لي أية تجربة شخصية مع الإله أو أية تجربة يمكن اعتبارها إعجازية أو غير طبيعية. باختصار، أكتشافي للألوهية كان عبارة عن رحلة عقل وليست رحلة إيمان.

(1) Conway, The Rediscovery of Wisdom, 2–3.

(٢) التوحيد المبنى على الدليل العقلي



الفصل الخامس

من كتب قوانين الطبيعة؟

Who Wrote Laws of Nature



من كتب قوانين الطبيعة؟
Who Wrote Laws of Nature

لعل أكثر الحجج الداعمة لوجودة الإله شهرة وقبولاً من الناحية الحدسية ما تسمى بحجة التصميم Argument from design. وفقاً لهذه الحجة فإن التصميم الواضح في الطبيعة يدل على وجود مصمم للكون. كثيراً ما أكدت على أن الحجة الغائية تنبثق في الواقع من حجة النظام، لأن هذه الحجة مستمدة من النظام المشاهد في هذا العالم، ومن خلال التصميم نتعرف على المصمم. على الرغم من أنني كنت منتقداً للحجة الغائية فإنني منذ ذلك الوقت بدأت أقتنع بأنه إذا ما تم صياغة هذه الحجة بطريقة صحيحة فإنها تمثل حجة مقنعة لإثبات وجود إله. التطورات التي حدثت في مجالين بالخصوص جعلتني أغير وجهة نظري. الأول هو السؤال عن أصل قوانين الطبيعة والأفكار ذات الصلة بالعلماء البارزين، أما المجال الثاني فهو السؤال عن أصل الحياة والتكاثر.

ماذا أعني بقوانين الطبيعة؟ ببساطة أنا أعني بالقانون الإطراد والتماثل في الطبيعة. بعض أمثلة الكتب الدراسية قد توضح ما أقصد:

ينص قانون بويل على أن حجم عينة غازية عند درجة حرارة ثابتة يتناسب عكسياً مع الضغط الواقع عليها.

ووفقاً لقانون نيوتن الأول للحركة:

يظل الجسم في حالته الساكنة (إما السكون التام أو التحرك في خط مستقيم بسرعة ثابتة) ما لم تؤثر عليه قوة خارجية تغير من هذا الحالة.

طبقاً لقانون الحفاظ على الطاقة:

في أي نظام معزول، الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم ولكن يمكن تحويلها من صورة لأخرى

النقطة المهمة ليست في أن هناك إطرادات في الطبيعة، ولكن المهم أن هذه الإطرادات كلها دقيقة من الناحية الرياضية، وهي كونية وشاملة ومترابطة فيما بينها. أعتبر آينشتين بأن هذه القوانين تمثل «السبب المتجسد».

السؤال الذي ينبغي أن نطرحه هو كيف جاءت هذه القوانين كحزمة واحدة. هذا هو السؤال الذي بالتأكيد طرحه العلماء من نيوتن إلى آينشتين إلى هيزنبرغ وأجابوا عليه، وجوابهم كان عقل الإله. لم يقتصر هذا النوع من التفكير على العلماء القدماء أمثال أسحاق نيوتن Newton وجيمس ماكسويل James Maxwell، بل أمتد ليشمل العديد من العلماء البارزين في العصر الحديث الذين أعتبروا أيضاً أن قوانين الطبيعة عبارة عن أفكار لعقل الإله.

ختم ستيفن هوكنج Stephen Hawking كتابه «التاريخ المختصر للزمن» A Brief History of Time وهو من أكثر الكتب مبيعاً بالفقرة التالية:

«إذا أكتشفنا نظرية كاملة فإنه ينبغي أن تكون مفهومة من قبل الجميع، وليس من قبل بعض العلماء، ولذا علينا جميعاً كفلاسفة وعلماء وأناس عاديين أن نشارك في نقاش السؤال التالي: لماذا نحن والكون موجودون؟ وإذا استطعنا الوصول إلى إجابة لهذا السؤال فإن ذلك يعد بمثابة نصر كامل للعقل البشري، وعندها سوف نتعرف على عقل الإله». وفي الصفحة التي تسبق الفقرة السابقة تسائل هوكنج «حتى لو كانت هناك فقط نظرية موحدة واحدة ممكنة فإنها سوف تكون عبارة عن

قوانين ومعادلات، ولكن ما الذي يمكّن هذه القوانين من أن تصف العالم؟»[1].

كان لدى هوكنج المزيد ليقوله في المقابلة التي تلتها[2]:

«الانطبــاع الطاغي هو أن هناك نظام، وكلما ازداد إكتشــافنا لهذا الكون كلما إزددنا قناعة بأن الكون محكوم بقوانين الطبيعة، ولكن يظل السؤال قائماً لماذا وُجد العالم؟ وإن أحببت، فبمقدورك أن ترى الله هو الجواب على هذا السؤال»[3].

---

(1) Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, 1988), 175, 174.

(2) Gregory Benford, "Leaping the Abyss: Stephen Hawking on Black Holes, Unified Field Theory and Marilyn Monroe," Reason 4.02 (April 2002) : 29.

(٣) كان هذا هو موقف الفيزيائي هوكنج الســابق، لكن بعدما نشــر كتابه الأخيــر "التصميم العظيم» The Grand Design الذي حاول فيه تفسير نشأة الكون دون الحاجة لافتراض وجود إله تغير موقفه بنحو واضح. ترجم كتابه الجديد أيمن أحمد عياد، دار التنوير، بيروت، ٢٠١٣.

من الذي كتب كل تلك الكتب؟

Who Wrote All Those Book ?

قبـل زمن طويل من هوكنج، اسـتخدم آينشـتين اللغة ذاتهـا، حيث كتب «أريد أن أعـرف كيف خلق الإله العالـم ... أريد أن أعرف أفكاره أمـا الباقي فمجرد تفاصيـل»[١]. في كتابي «الإله والفلسـفة»، كتبت بأننا لا نسـتفيد كثيراً من هذه الفقرات، فقد قال آينشتين أنه يؤمن بإله سبينوزا Spinoza's God [٢].

يعتبر باروخ سبينوزا Baruch Spinoza أن الإله والطبيعة مترادفان، ويمكن القول دون تردد بأن آينشتين بالنسبة لليهود والمسيحين والمسلمين كان ملحداً، بل أنه كان «الأب الروحي لجميع الملحدين». ولكن صدر حديثاً كتاب بعنوان «آينشتين والدين» Einstein and Religion لماكـس جامر Max Jammer وهو أحد أصدقاء آينشـتين يقدم صورة مختلفة تماماً عن تأثير سبينوزا على قناعات آينشتين الشخصية.

في الكتاب، بين جامر أن آينشـتين كان يعرف القليل عن سبينوزا، وأن آينشتين لم يقرأ لسبينوزا سوى كتاب الأخلاق Ethics، وقد رفض مرات عدة طلبات للكتابة عن فلسـفة سـبينوزا[٣]. وفي رده على أحد الطلبات، قال آينشـتين «إنه لا يملك معرفة متخصصة ليكتب مقالة علمية عن سـبينوزا». رغم أن آينشتين يشترك مع سبينوزا في الإيمان بالحتمية Determinism، إلا أن جامر يعتبر أن لا مسوِّغ للقول أن أفكار سـبينوزا أثرت على فكر آينشـتين. لاحظ جامر أيضاً أن آينشتين شعر

(1) Albert Einstein, quoted in Timothy Ferris, Coming of Age in the Milky Way (New York: Morrow, 1988), 177.

(2) Antony Flew, God and Philosophy (New York: Dell, 1966), 15.

(3) Max Jammer, Einstein and Religion (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1999), 44.

بأنه قريب من ســبينوزا لأنهما يشتركان في حاجتهما إلى الإنعزال، وقدرهما بأن يُعــاد قراءتهما في الأرث اليهودي وأن يتــم تجاهلهما في الأرث الديني، ورغم أن آينشتين أشار إلى إيمان سبينوزا بوحدة الوجود فإنه عبر عن نفيه أن يكون مؤمناً بوحدة الوجود أو بالإلحاد[1].

«أنا لســت ملحداً، ولا يمكن أن أعتبر نفســي مؤمناً بوحــدة الوجود. نحن في موقــف طفل صغير يدخل مكتبة كبيرة مملؤة بكتب بلغات مختلفة، والطفل يعرف أن هناك من كتب هذه الكتب، ولكنه لا يعرف كيف. هو لا يفهم اللغة التي كُتبت بها هذه الكتب. الطفل يظن بأن هذه الكتب مرتبة بطريقة معينة ولكنه لا يعرف هذه الطريقة، وهذا ما يبدو لي موقف أذكى شخص فيما يخص الإله. نحن نرى العالم منظمــاً بطريقة رائعة، ويتبع قوانين معينــة ولكننا لا نعرف هذه القوانين. عقولنا المحدودة لا تستطيع إستيعاب القوة الغامضة التي تحرك هذه الكويكبات»[2].

في كتاب «وهم الاله» The God Delution، شــاطرني دوكنز في موقفي القديم بأن آينشــتين كان ملحداً، وبذلك فهو يتجاهل كلام آينشــتين المشــار إليه أعــلاه بأنــه ليس ملحــداً ولا مؤمـناً بوحدة الوجود، وهذا محيــر لأن دوكنــز أستشــهد فــي إحدى المرات بجــامر، ولكنه تــرك عــدداً كبيراً من عبارات جامر المهمة عن آينشتين في هذا الشأن.

لاحظ جـامر على ســبيل المثال رفض آينشتين المســتمــر إعتباره ملحداً، وقد أعلن في محادثة مع الأمير هيبرتس أمير لونشتين Hubertus of Lowenstein «ما يجعلني أشــعر بالغضب أن الناس الذين يقولون بأن الإله غير موجود يستشهدون

(1) Jammer, Einstein and Religion, 45.
(2) Jammer, Einstein and Religion, 45 – 46.

بكلامي لتأييد أرائهم». نفى آينشـتين إعتناقه الإلحاد لانه لم يجد أن إنكاره للإله الشخصي[١] Personal God يعني أبداً إنكاراً لوجود إله. من المؤكد أن آينشتين لم يؤمن بالإله الشـخصي[٢] ولكنه قال: «إنه سؤال مختلف إذا ما كان الاعتقاد بالإله الشـخصي محل نقاش. دعم فرويد هذا الـرأي في أخر مؤلفاته، ولن أدخل أبدا في تفاصيل هذا الموضوع، لان هذا الاعتقاد بالنسـبة لي يفتقر لأية نظرة متعالية للحياة، وأشـك أن ينجح أحد في تقديم وسـائل عظيمة للبشـرية تلبي حاجاتهم الميتافيزيقية»[٣].

كملخص ينتهي جامر إلى أن آينشتين كما هو الحال مع ميموندس maimonides وسـبينوزا يرفض بشـكل قاطع أي نوع من التجسيد في الفكر الديني. ولكن على خلاف سبينوزا الذي رأى أن النتيجة المنطقية لنفي الإله الشخصي جعل الإله في هوية مشـتركة مع الطبيعة، في حين أصر آينشتين على «أن الإله يُظهر نفسه في قوانين الكون كروح أعظم من تلك التي للإنسان، وأن على المرء بما يملك من قوى هزيلة أن يشـعر بالتواضع». أتفق آينشتين مع سبينوزا على إن من يعرف الطبيعة يعرف الإله، ولكن ليس لأن الطبيعة هي الإله، ولكن لأن استخدام العلم في دراسة الطبيعة سوف يقود إلى الدين[٤].

(١) الإله الشخصي هو شخص كالإنسان، لكن من دون جسم، ويتفوق عليه في صفاته الكيفية والكمية.
(2) Jammer, Einstein and Religion, 48.
(3) Jammer, Einstein and Religion, 150. 218
(4) Jammer, Einstein and Religion, 148.

عقل آينشتين المتفوق

Einstein's "Superior Mind"

من الواضح أن آيشــتين يعتقد بمصدر متعالي لعقلانية العالم، وهو ما يســميه «العقــل الفائق»، «الروح الفائقة»، «القوى المنطقية الفائقة» و «القوة الغامضة التي تحرك الكويكبات»، وهذا كان واضحاً في عدد من عباراته: «لم أجد على الإطلاق تعبيراً أفضــل من تعبير «إيماني» religious للوثــوق بالطبيعة العقلانية للحقيقة والقدرة الخاصة في الوصول للعقل البشــري، في حين أن العلم يفتقر لهذه الثقة. إذا كان المبشــرون يريدون أن يســتفيدوا من ذلك فهذا شأنهم، فليس هناك علاج لذلك»[(١)].

بالتأكيد هي القناعة القريبة من الشعور الديني لعقلانية وذكاء هذا العالم التي تتجاوز العمل العلمي نوعياً، هو الاعتقاد الراســخ المرتبط بشعور عميق بإن هناك عقل متفوق يتجلى في عالم التجربة وهو ما يمثل تصوري عن الإله. أي شخص مر بتجربة مكثفة وناجحة في الحقل العلمي سوف يشعر باندفاع من التقديس العظيم للعقلانية التي تتبدى في الوجود .... عظمة السبب المتجسد في الوجود[(٢)].

«تديني يتضمن تقديراً متواضعاً للروح المتفوقة اللانهائية التي تظهر نفسها في أدق التفاصيل التي نستطيع إدراكها بعقول واهية وضعيفة. هذه القناعة العاطفية العميقة بوجود القوة المنطقية المتفوقة التي تتبدى في الكون الذي لا يمكن الإحاطة به هو الذي شكل فكرتي عن الإله»[(٣)].

(1) Albert Einstein, Lettres a Maurice Solovine reproduits en facsimile et traduits en francais (Paris: Gauthier-Vilars, 1956), 102–3.
(2) Jammer, Einstein and Religion, 93.
(3) Albert Einstein, The Quotable Einstein, ed. Alice Calaprice (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005), 195–6.

قفزات كوانتمية (جبارة) تقود نحو الإله

Quantum Leaps Toward God

آينشـــتين، وهو مكتشف النظرية النســـبية ليس هو العالم العظيم الوحيد الذي ربط بين قوانين الطبيعة وعقل الإله.

رواد فيزياء الكوانتم وهم من عظماء المكتشـــفين في الزمن الحديث من أمثال ماكس بلانك Max Planck، ورنر هيزنبيرغ Werner Heisenberg، ارون شرودنجر Erwin Schrödinger وبـــول ديراك[١] Paul Dirac، كل هؤلاء صدرت عنهم عبارات بخصوص الربط بين قوانين الطبيعة وعقل الإله سأورد بعضاً مما قالوه لاحقاً.

ورنر هيزنبيرغ Werner Heisenberg وهو مشهور بمبدأ عدم اليقين وميكانيكا المصفوفات Uncertainity Principle and Matrix Mechanics قال: «خلال مسيرة حياتي أضطررت بشـــكل متكـــرر إلى التأمل في العلاقة بـــين حقلين من الحقول الفكريـــة: الحقل العلمي والحقل الديني، ولم أكن قادراً على الإطلاق على الشـــك بذلك الواقع التي يشـــيرون إليه»[٢]. وفي موضع أخر يقول «لقد ســـألني أحدهم علـــى نحو مفاجـــئ: هل تؤمن بالإله الشـــخصي؟ .... فقلت له هـــل لي أن أعيد صياغة ســـؤالك، شخصياً أفضل صياغة السؤال على النحو التالي: هل يمكنك أو أي شـــخص أخر أن تصل إلى النظام المركزي للأشـــياء والأحداث التي لا يبدو أن وجودها محل شـــك بنفس القدر الذي يمكنك الوصول إلى روح soul إنسان أخر؟ وأنا أستخدم لفظة روح soul بشكل متعمد حتى لا يُساء فهمي. إذا وضعت سؤالك

(1) For the most part, these quotations are taken from Roy AbrahamVarghese, The Wonder of the World (Fountain Hills, AZ: Tyr, 2003).
(2) Werner Heisenberg, Across the Frontiers, trans. Peter Heath (San Francisco: Harper & Row, 1974), 213.

على هذا النحو فإن جوابي ســيكون نعم .... إذا كانت القوة المغناطيسية هي التي وجهت هذه البوصلة فمن ســيكون مصدر ذلك ســوى النظــام المركزي؟! إذا كان مقرراً لنا أن ننقرض فإن أموراً فظيعة يمكن أن تحدث للجنس البشــري أكثر من مخيمات الغاز أو القنبلة الذرية»[١].

إرون شــرودنجر، وهو رائد أخر من رواد الكوانتم وهو الذي أكتشــف الموجات الميكانيكية، يقــول «إن الصورة العلمية للعالم من حولي ناقصة جداً. إنها تعطيني الكثيــر من المعلومات الواقعيــة وتضع كل خبراتنا في نظام رائع الإتســاق، ولكن الصمــت الرهيب الــذي يحيط بقلوبنا هو ما يهم حقاً. إنها لا تســتطيع أن تقول كلمة واحدة عن الإحســاس باللون الأحمر والأزرق، عن المر والحلو، عن مشــاعر البهجة والحزن. إنها لا تعرف شــيئاً عن الجمال والقبح، عن الخير والشــر، عن الإله والخلود». تتظاهر العلوم بقدرتها على الإجابة على الأسئلة في هذه الأبعاد، ولكن الإجابات غالباً ما تكون سخيفة جداً بحيث أنها تجلعنا نميل إلى عدم أخذها على محمل الجد. العلم متحفظ أيضاً عندما يكون الســؤال عن الوحدة العظيمة التي ننتمي إلى جزء منها، والأســم المشــهور في زماننا لهــذه الوحدة هو «الإله». يوصــف العلم في العادة على أنه إلحادي، وبعدما قلناه فإن هذا لن يكون مفاجئاً. إذا كانــت صورة العالم لا تحتوى حتــى على الجمال والبهجة والحزن، فإذا أتفقنا على أن نقتطع منها الشــخصية personality فكيف يمكن لهذه الصورة أن تحتوي على أعظم فكرة عندما تعرض نفسها لعقل الإنسان»[٢].

ماكس بلانك، كان أول من عرض لفرضية الكوانتم، وهو يعتقد بطريقة لا لبس

(1) Werner Heisenberg, Physics and Beyond (San Francisco: Harper & Row, 1971), excerpted in Timothy Ferris, ed., The World Treasury of Physics, Astronomy and Mathematics (New York: Little, Brown, 1991), 826.
(2) Erwin Schrödinger, My View of the World (Cambridge: Cambridge University Press, 1964), 93.

فيهــا بأن العلم يكمــل الدين، وهو يؤكد على أنه «ليس هناك أي تعارض بين العلم والديــن، لأن كل واحد منهما مكمل للأخر»، ويقول بأن «العلم والدين يقاتلان في المعركة ذاتها في حرب صليبية متواصلة ضد مذهب الشــك[١] skepticism وضد الدغمائيــة[٢] dogmatism وضد الكفــر والخرافات ... وكنتيجة يقاتلان من أجل الإله»[٣].

بول ديــراك، والذي أكمل عمل هايزنبيرغ وشــرودنجر بصياغة ثالثة لنظرية الكوانتم، لاحظ أن «الله هو رياضي بمرتبة عالية جداً، وهو يســتخدم الرياضيات المتقدمــة في بناء الكــون»[٤]. وقبل أجيال من هؤلاء العلماء، أكد تشــارلز داروين Darwin Charles علــى الفكرة ذاتها بقوله «العقل يقول لي أنه من الصعب بدرجة كبيرة بل من المســتحيل أن ندرك هذا الكون الهائل والرائع، بما في ذلك الإنســان مــع قابلياته على النظر إلى الماضي البعيد والذهاب بذهنه إلى المســتقبل البعيد، ليقول بعد ذلك بأن هذا الكون حدث بالصدفة العمياء أو الضرورة.

عندما أتأمل بذلك أجد نفســي مضطراً للميل إلى الســبب الأول الذي يمتلك عقلاً ذكياً يشابه بدرجة ما الإنسان: عندها أستحق أن أوصف بالمُوحِّد»[٥].

(١) الشــكوكية أو مذهب الشــك هو إتجاه فلسفي يقول بأن المعرفة الحقيقية في حقل معين هي معرفة غير محققة أو مؤكدة.

(٢) الدوغماتية (أو الدوغمائية) هي التعصب لفكرة معينة من قبل مجموعة دون قبول النقاش فيها أو الإتيان بأي دليل ينقضها لمناقشــته أو كما هي لدى الإغريق الجمود الفكري. وهي التشــدد في الاعتقاد الديني أو المبدأ الأيديولوجي، أو موضوع غير مفتوح للنقاش أو للشــك. يعود أصل الكلمة إلى اليونانية δόγμα والتي تعني «الرأي» أو «المعتقد الأوحد».

(3) Max Planck, Where Is Science Going? trans. James Murphy (New York: Norton, 1977), 168.

(4) Paul A. M. Dirac, “The Evolution of the Physicist’s Picture of Nature,” Scientific American 208, no. 5 (May 1963): 53.

(5) Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin 1809-1882, ed. Nora Barlow (London: Collins, 1958), 92–3.

أستمر هذا القطار من الأفكار في المسير من خلال كتابات مجموعة من كبار الباحثين العلميين في وقتنا الحاضر، وهؤلاء يتراوحون ما بين علماء من أمثال بول ديفيز Paul Davies، وجون بارو John Barrow، وجون بولكنغهور John Polkinghorne، وفريمان دايسون Freeman Dyson، وفرانسيس كولينز Francis Collins، وأوين جنجريتش Owen Gingerich، وروجر بنروز Roger Penrose، إلى فلاسفة العلوم من أمثال ريتشارد سوينبيرن وجون ليزلي John Leslie.

ديفيز وبارو، على وجه الخصوص قاما بتطوير أفكار آينشتين وهايزنبرغ، وغيرهم من العلماء بخصوص العلاقة بين عقلانية العالم وعقل الإله. كلاهما حصل على جائزة تمبلتون على هذا الاكتشاف، وقد صححت أعمالهم الكثير من التصورات الخاطئة الشائعة، كما سلطت الضوء على المواضيع التي نناقشها هنا.

قوانين من؟

Whose Laws?

في كلمته في حفل جائزة تمبلتون، أشــار بــول ديفيز إلى نقطة وهي «أن العلم يمكن أن يتقدم فقط عندما يملك العلماء نظرة كونية لاهوتية». لا أحد يســأل من أين جاءت قوانــين الفيزياء، ولكن حتى أكثر العلماء إلحــاداً يقر كحقيقة إيمانية بوجود نظام في الطبيعة قائم على القوانين، وهذا النظام في جانب منه على الأقل قابل للإدراك من قبلنا». وقد رفض ديفيز أثنتين من نقاط ســوء الفهم الشــائعة. يقــول ديفيز بأن «الفكرة القائلة بأن نظرية كل شــيء ســتُظهر أن هذا العالم هو العالم المتســق الوحيد منطقياً «هي فكــرة خاطئة برهانياً»، لأنه لا يوجد أي دليل على أن العالم ضروري من الناحية المنطقية، وفي الحقيقة من الممكن تخيل وجود عالــم بديل متســق منطقياً». ثانيــاً، يقول: «من الهراء بكل مــا للكلمة من معنى» افتراض أن قوانين الفيزياء هي قوانينا وليســت قوانين الطبيعة. سوف لن يصدق علمــاء الفيزيــاء أن قانون نيوتن للجاذبية هو صناعــة ثقافية. وهو يصر على أن قوانين الطبيعة هي «موجودة واقعياً»، وعملنا هو إكتشافها وليس صنعها.

يلفت ديفيــز الانتباه إلى حقيقة أن قوانين الطبيعة التي تحكم الظواهر لم يتم اســتخلاصها من خلال الملاحظة المباشــرة، وإنما تم اســتخلاصها من التجارب والحسابات الرياضية. القوانين كتبت بشفرة الكون بحيث أن على العلماء التنقيب لفك «رسالة الطبيعة، رســالة الله وليست رسالتنا». السؤال المُلح كما يقول ديفيز ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

- من أين جاءت قوانين الفيزياء؟
- لماذا لدينا هذه القوانين وليس حزمة أخرى من القوانين؟
- كيف لنا أن نمتلك مجموعة من القوانين التي تحول غازات ساكنة إلى حياة ووعي، وذكاء؟

هذه القوانين «تبدو مبدعة ومحكمة كما يقول بعض المعلقين، ومنها نشأت الحياة والوعي». ويخلص ديفيز إلى أن هذه «الطبيعة المفتعلة للوجود الفيزيائي بالنسبة لي مجرد مُعطى، وهي تشير إلى معنى أعمق للوجود». وهذه الكلمات من قبيل الغاية والتصميم -كما يقول ديفيز- تبين بنحو غير كامل ما عليه الكون، «ولكن لا بد أنها تحكي عن شيء ما، ولا شك في ذلك مطلقاً»[1].

في كلمته في حفل تمبلتون لاحظ جون بارو، بأن التعقيد غير المتناهي والبنية الرائعة للكون محكومة بقوانين قليلة بسيطة متماثلة وواضحة. في الحقيقة، «هناك معادلات رياضية، تتمايل على الورق، تخبرنا كيف يسلك هذا الكون بأسره». على غرار ديفيز، رفض بارو فكرة أن نظام الكون تم فرضه من عقولنا. وعلاوة على ذلك، فإن «الانتخاب الطبيعي لا يتطلب فهم الجسيمات الأولية quarks والثقوب السوداء التي تعمل من أجل بقاءنا على قيد الحياة وتكاثرنا».

يلاحظ بارو أن هناك في تاريخ العلم نظريات جديدة توسع أو تعيد صياغة نظريات قديمة. على الرغم من أن نظرية نيوتن للميكانيكا والجاذبية قد تم استبدالها بنظرية آينشتين وسيعقبها نظرية أخرى في المستقبل، لكن بعد ألف

(1) Paul Davies, Templeton Prize Address, May 1995, http://aca. mq.edu.au/PaulDavies/prize_address.htm. See also Davies's "Where Do the Laws of Physics Come From?" (2006), http://www.ctnsstars.org/conferences/papers/Wheredothelawsofphysicscomefrom.doc.

ســنة ما زال المهندســون حالياً يعتمدون على نظريات نيوتــن. وبالمثل -كما يقول بارو- فإن التصورات الدينية عن الكون تستخدم التشبيهات والتقريب إلى الأذهان للمساعدة في فهم الأمور النهائية، «إنها ليس الحقيقة الكاملة، ولكن ذلك لا يمنع من كونها جزءاً من الحقيقة»[1].

(1) John Barrow, Templeton Prize Address, March 15, 2006,http://www.templetonprize.org/barrow_statement.html.

صانع القوانين الإلهي

The Divine Lawmaker

قلة من الفلاسـفة كتبوا عن المصدر الإلهي لقوانين الطبيعة. في كتابه «الصانع اللاهوتي: محاضرات في الاستقراء، قوانين الطبيعة، وجود الإله»، أدعى الفيلسوف الأكسـفوردي جون فوستر John Foster وجود اطرادات regularities في الطبيعة، ورغـم قدرتنا على وصفها، إلا أن أفضل من يفسـرها هو العقل الإلهي. إذا كنت تقبل فكـرة وجود قوانين، فلا بد أن يكون هناك اطراد في الكون. من هو الفاعل (أو الفاعلين) الذي قام بذلك؟ يرى فوستر أن الخيار التوحيدي هو الخيار الوحيد الجـدِّي كمصدر، ولذلك «فإن هناك ما يبرر الاسـتنتاج بنحـو عقلاني بأن الإله -إله الوحدانية- هو الـذي خلق القوانين من خلال فرضه الاطرادات على العالم بوصفها اطرادات». وحتى لو كنت تنكر وجود قوانين، فإن هناك ما يؤيد تفسـير الاطرادات استناداً إلى الله»[1].

في رده على نقد دوكنز لحجته في الغائية، قدم سوينبيرن رؤية مشابهة: «ما هو قانون الطبيعة؟ (وهذه مسألة لم تواجه أيٍّ من نُقَّادي). أن تقول بأن هناك قانوناً طبيعياً هو أن تقول أن كل الأجسـام تسلك بنحو معين (مثال: تتجذب إلى بعضها البعض وفقاً لمعادلة معينة)، وهذا بالنسبة لي كأنك تقول أن كل جسم في الطبيعة الضرورية يتصرف بهذه الطريقة (مثال: أن يجذب كل جسم ما في طريقه)، ولعله أكثر بساطة أن نقول أن هذا التناغم مصدره كيان واحد جعل هذه الأجسام تسلك

(1) John Foster, The Divine Lawmaker: Lectures on Induction, Laws of Nature and the Existence of God (Oxford: Clarendon, 2004), 160.

بهــذه الطريقة بدلاً من إفتراض أن كل الأجســام تتصــرف بطريقة معينة بحكم حقيقة نهائية عمياء»[1].

الحجة المركزية لســوينبرن هو أن الإله الشخصي مع صفاته التقليدية التي له يقدم لنا شــرحاً أفضل لعمل قوانين الطبيعة. رفض ريتشــارد دوكنز هذه الحجة على أساس أن الإله كحل هو معقد جداً لشرح الكون وقوانينه. هذا الكلام صدمني باعتباره شــيئاً غريباً أن تقول ذلك عن تصور كائن روحي على كل شيء قدير. ما هو المعقد في فكرة الإله كامل القدرة وكامل المعرفة، وهي الفكرة التي لبســاطتها تم إستيعابها من قبل أتباع الأديان الثلاثة العظيمة: اليهودية والمسيحية والإسلام؟ وقد علق بلانتينغا مؤخراً على كلام دوكنز، بالإشــارة إلى أنه وفقاً لتعريف دوكنز الخاص، الإله بســيط -ليس معقد- لأنه روح، وليس جســماً مادياً، وبالتالي ليس له أجزاء.

وبالعودة إلى مثال التلفون الفضائي الذي طرحته في الفصل الســابق، نجد أن قوانين الطبيعة تمثل مشكلة للملحدين لأن صوت العقلانية يُسمع من خلال آليات المادة mechanisms of matter. كتب بول ديفيز «العلم يقوم على فرضية أن الكون عقلاني ومنطقي على كافة المســتويات». وديفيز هو أكثر مفســري العلم الحديث تأثيراً في العصر الراهن، كتب قائلاً «يزعم الملحدون أن قوانين الطبيعة توجد دون منطــق، وأن الكون مناف للعقــل. وأنا كعالم، أجد صعوبة في قبول ذلك. يجب أن يكون هناك أساس عقلاني غير متغير يقوم عليه هذا الكون المنظم والمنطقي»[2].

---

(1) Richard Swinburne, “Design Defended,” Think (Spring 2004): 14.
(2) Paul Davies, “What Happened Before the Big Bang?” in God for the 21st Century, ed. Russell Stannard (Philadelphia: Templeton Foundation Press, 2000),

هؤلاء العلماء الذين يشيرون إلى عقل الإله لا يقدمون مجرد سلسلة من الحجج أو عملية استدلال منطقية. ولكنهم يقدمون رؤية للواقع تنبثق من جوهر تصورات العلم الحديث وتفرض نفسها على الذهن العقلاني. وهي الرؤية التي أجد شخصياً أنها مقنعة ولا يمكن دحضها.



الفصل
الســادس

هل عرف الكون أننا قادمون؟

Did the Univers Know We Were Coming ?



هل عرف الكون أننا قادمون؟
Did the Univers Know We Were Coming ?

تخيَّـل أنك دخلت إلى غرفة قي الفندق الذي تسـكن فيه فـي رحلتك المقبلة، ووجدت أن جهاز التسـجيل الموجود بجانب السرير يعزف المعزوفة الموسيقية التي تحبها، ووجدت أن اللوحة المعلقة أعلى السـرير تشبه تماماً اللوحة الموجودة أعلى المدفأة في بيتك، والغرفة ينبعث منها العطر الذي تفضله، فقمت بهز رأسك متعجباً وألقيت حقائبك على الأرض. بعد ذلك أتجهت إلى الثلاجة الصغيرة الموجودة في الغرفـة وفتحت بابهـا وحدقت في محتوياتها فوجدت مشـروبك المفضل وقطعة الحلوى والكعكة التي تحبهـا، بل وجدت قنينة من نوع المياه الذي تفضله. بعدها، أدرت ظهـرك للثلاجة ونظـرت إلى المنضدة الموجودة فـي الغرفة فوجدت عليها الكتـاب الجديد لمؤلفك المفضل، وعندما ألقيت نظـرة في الحمام حيث تصطف على الرف مواد الاعتناء بالبشرة وجدت أن جميعها من النوع الذي تستخدمه في العادة، وعندما قمت بتشغيل التلفزيون وجدت القناة التلفزيونية التي تفضلها.

مع كل شي تشاهده في الغرفة تجد أنك أقل ميلاً إلى التفكير بأن كل ما حدث كان من باب الصدفة، أليس الأمر كذلك؟ وقد تتسائل كيف استطاع مدير الفندق أن يعـرف كل هذه الأمور التفصيليـة عنك. وقد تتعجب من هذه الإعداد الدقيق، حتى أنك تفكر مجدداً كم سيكلفك كل ذلك من مبالغ مالية، ولكنك بالتأكيد سوف تميل إلى الاعتقاد بأن شخصاً ما كان يعرف بقدومك.

كوننا الدقيق

Our Finely Tuned Universe

سيناريو هذه العطلة خارق، وهو يوازي حجة التوافق Fine-tuning Argument. الشـــهرة المعاصرة لهذه الحجة ســلطت الضوء على بعد جديد لقوانين الطبيعة. كتب عالــم الفيزياء فريمن دايســون Ferrman Dyson قائلاً « كلما قمت بفحص هذا الكون ودرست تفاصيل تكوينه، وجدت دليلاً أضافياً على أن الكون يعرف أننا قادمون»[1].

وبعبــارة أخرى، يبدو أن قوانــين الطبيعــة صُنعت بطريقة تحرك العالم نحـو نشــأة الحياة. هــذا هــو المبــدأ الأنثروبولـوجي، الذي أصبح مشــهوراً بفضـل مفكـريــن من أمثال مارتن ريــز Martin Rees، جون بــارو John Barrow، وجون ليسلي John Leslie. لنأخذ أبسط قوانين الفيزياء كمثال على ذلك. لقد تم حساب أنه لو تغير جزء بســيط من الثوابت الأساســية في القوانين - وعلى سبيل المثال سرعة الضوء أو كتلة الإلكترون - فإنه لن يكون هناك كوكب قادر على توفير البيئة المناسبة لحياة الإنسان.

لقد تم تفســير هذه الدقة بطريقتين. بعض العلمــاء أعتبر أن هذه الدقة تدل على الصنع الإلهي، والبعض الأخر خمّنَ بأن كوننا هو كون من ضمن أكوان أخرى متعددة، والفرق هو أن كوننا هُيئَ لكي يوفر الشروط اللازمة لحياة الإنسان. عملياً

(1) Freeman J. Dyson, Disturbing the Universe (New York: Harper & Row, 1979), Also cited in John Barrow and Frank Tipler, The Anthropic Cosmological Principle (Oxford: Clarendon, 1988), 318.

لـــم يدع أي عالم معروف أن دقة الصنع كانت بنحو صرف نتيجة لعوامل الصدفة في هذا الكون.

في كتابه «العقول اللانهائية»، يجادل جون ليسلي -وهو من أعلام منظري المبدأ الأنثروبي- بأن إن دقة الصنع فُسِّـــرت بشكل أفضل بواسطة القول بوجود تصميم إلهي. يقول ليسلي إنه ليس متعجباً من وجود حجج محددة لصالح حالات التوافق، بل من حقيقة أن هذه الحجج موجودة على نحو وافر (= يزيد على القدر المطلوب لنشـــأة الحياة). «إذا كانت هناك أمور في الطبيعة تحدث بطريقة تثير الإعجاب، فإن هذه الأمور ســـتُرى بنحو أفضل كأدلة لصالح الاعتقاد بإله» . وقدم ليســـلي أمثلة على هذه الأمور:

١- مبدأ النســـبية الخاصة الذي يجعل للقوى مثل القوة الألكترومغناطيســـية تأثيـــر غير متغير بغض النظر عن الزاويـــة الصحيحية لتأثيرها على حركة الأجســـام. هذا يجعل من شفرة الجينات تعمل، وكذلك الكواكب، وفي نفس الوقت تترابط فيما بينها عند الدوران.

٢- قوانين الكم تمنع الإلكترونات من التصاعد إلى الحالة الذرية.

٣- الطاقـــة الإلكترومغناطيســـية لها قوة واحدة تجعـــل أكثر من عملية تحدث في وقت واحد، وهو ما يجعل النجوم تضيئ لمليارات الســـنين، وهو ما يجعل تكـــون الكربون في النجـــوم ممكناً، كما يضمن عدم اســـتبدال اللبتونات [1] بالجســـيمات الذرية quarks، ويترتب عليه إستحالة تشكل الذرات. وهذا ما

(١) اللبتون هو جســـيم أولي ومكون أساســـي للمادة. أشـــهر اللبتونات المعروفة هـــو الالكترون والذي يحكم عمليات الكيمياء كلها لأنه موجود في أغلفة الذرات وترتبط به الخصائص الكيميائية كلها. وتوجد فئتين أساسيتين للبتونات: المشحونة منها (وتعرف أيضا بلبتونات شبيه - الإلكترون)، ومحايدة (المشهورة باسم نيترينو).

يحتم علـــى البروتونات أن لا تتحلل ســـريعاً ولا تصطدم مع بعضها البعض بقـــوة، وهو ما قد يؤدى إلى أن تصبح الكيمياء مســـتحيلة. كيف يمكن لقوة واحـــدة أن تلبي إحتياجات كثيرة ومختلفـــة، في حين يبدو أننا بحاجة لقوى عديدة لكل واحدة من هذه العمليات؟ [1]

(1) Leslie, Infinite Minds, 203–5.

نظرية الأكوان المتعددة هي في مقابل نظرية الصنع الإلهي (ومع ذلك سوف أحاول التدليل على أن وجود الأكوان المتعددة لن يلغي السؤال عن المصدر الإلهي).

عالـــم الكونيات مارتن ريس Martin Rees هو أحـــد أكبر مؤيدي فكرة الأكوان المتعـــددة. لاحظ ريس أن «أي كون مهيئ للحياة – وهو ما يمكن أن نســـميه الكون الحيـــوي Biophilic universe– يجـــب أن يتـــم تعديله على نحـــو معين لكي تتوفر الشروط الأساسية لحياة أي نوع نعرفه. تتأثر النجوم الموجودة منذ القدم، والذرات المســـتقرة مثل الكربون والكربون والســـليكون يمكن أن تجتمع في مركب معقد من الجزئيـــات ... ألخ – كل هذه الكائنات تتأثر بشـــكل دقيـــق بالقوانين الفيزيائية، وحجم ومعدل توسع الكون ومحتوياته»[1].

يقول ريس أنه يمكن تفســـير ذلك من خلال فرضية وجـــود «أكوان» كثيرة، مع قوانـــين وثوابت فيزيائية مختلفة، وكوننا كجزء مـــن مجموعة أكوان، حدث نتيجة لظهـــور تعقيد complexity ووعـــي consciousness. وإذا كان هذا هو الحال، فإن الدقة في الصنع لن تكون مصدر تعجب.

عـــرض ريس لأكثر صيغ فرضيـــة الأكوان المتعددة تاثيراً، وهـــي فكرة «التمدد الأبدي»، وهي فكرة قدمها علماء الكون أندريه لنده Andrei Linde وأليكس فينكن Alex Vilenkin، ووفقـــاً لهـــذه الفكرة فإن الأكوان المتعددة نشـــأت عن إنفجارات

(1) Martin J. Rees, “Numerical Coincidences and ‘Tuning’ in Cosmology,” Astrophysics and Space Science 285 (2003): 376.

عظيمـــة لكل من هـــذه الأكوان مع اختلاف في البعد الزمانـــي والمكاني من الكون الذي نعيش فيه.

تعتبر أطروحة الثقب الأسود لكل من آلان غوث Alan Guth، وديفيد هاريسون David Harrison، ولي ســمولين Lee Smolin أن الأكوان نتجت عن ثقوب ســوداء Black Holes على صورة مجالات زمكانية غير متواصلة mutually inaccessible. وأخيــراً، أفترضــت كل من ليزا رانــدال Lisa Randall ورامان ســاندرم Raman Sundrum أن هنـــاك أكواناً في أبعـــاد مكانية مختلفة قد تتفاعل أو لا تتفاعل مع بعضها البعض بفعل الجاذبية. أشـــار ريس إلى أن هـــذه الأفكار للأكوان المتعددة «تخمينية بشـــكل كبير»، وهي تتطلب وجود نظرية تصف باتساق فيزياء الكثافات العالية ultrahigh densities وتكوين الهيـــاكل configuration of structures وفـق أبعـــاد أضافية وهكـــذا دواليك. وواحدة مـــن هذه الأفكار فقـــط يمكن أن تكون صحيحـــة. ويضيـــف ريس «وفي الحقيقة يمكن ألا يكـــون أي منها كذلك: فهناك نظريات بديلة تقود إلى أن هناك كوناً واحداً»[1].

(1) Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," 385.

نظرية البندقية متعددة الاتجاهات
A Blunderbuss Theory

رفض كل من بول ديفيز Paul Davies وريتشارد سوينبيرن Richard Swinburne فكرة الكون المتعدد. ديفيز، وهوعالم فيزيائي وعالم كونيات، كتب «من الصحيح أن كل شيئ في كونٍ لامتناهي يمكن أن يحدث سوف يحدث»، ولكن هذا لا يعد تفسيراً على الإطلاق. إذا أردنا أن نفهم لماذا يُعتبر الكون صديقاً لصالح نشأة وبقاء الحياة، فإن ذلك لا يفيدنا عندما يقال أن كل الأكوان الممكنة موجودة. نظرية الأكوان المتعددة «مثل البندقية المتعددة الجوانب، فهي تفسر كل شيئ ولا تفسر شيئاً»، ويعني ديفيز بذلك أنها ادعاء لا معنى له. إذا قلنا أن العالم وكل ما فيه جاء إلى حيز الوجود قبل خمس دقائق -بما في ذلك ذكرياتنا حول سنوات عديدة عشناها والأدلة على أحداث وقعت منذ آلاف السنين- فإن إدعاءنا هذا غير قابل للدحض، لأنه يفسر كل شيئ ولا يفسر شيئاً في وقتٍ واحد.

التفسير العلمي الصحيح كما يقول ديفيز، عبارة عن رصاصة محددة الاتجاه. فكرة الأكوان المتعددة تستبدل كوناً واقعياً منتظماً عقلانياً بمجمع لا متناهي من أكوان وتجعل عملية «التفسير» لا معنى لها. سوينبيرن كان قوياً في إزدرائه لتفسير الأكوان المتعددة: «إنه من الجنون إفتراض وجود مليارات الأكوان (المرتبطة سببياً) كمصادرة لتفسير معالم كون واحد، ولكن عندما نفترض وجود إله واحد كمصادرة، فإن هذه المصادرة سوف تؤدي المهمة»[1].

(1) Paul Davies, "Universes Galore: Where Will It All End?" http:/ /aca.mq.edu.au/ PaulDavies/publications/chapters/Universesgalore.pdf.

ثلاثة أمور يمكن أن تقال عن حجة الكون الدقيق. الأول: ثمة حقيقة صلبة تؤكد بأننا نعيش في كونٍ فيه قوانين محددة وثوابت، وأن الحياة فيه لم تكن ممكنة لو كانت بعض هذه القوانين والثوابت مختلفة. الثاني: حقيقة أن وجود القوانين الحالية والثوابت هي التي تسمح ببقاء الحياة لا تجيب على السؤال عن أصل الحياة. هذا سؤال مختلف تماماً، كما سوف أحاول أن أبين، فهذه الشروط ضرورية لنشأة الحياة ولكنها ليست كافية. الثالث: حقيقة أن من الممكن منطقياً أن تكون هناك أكوان متعددة مع قوانين الطبيعة الخاصة بها، لا تعني أن هذه الأكوان موجودة. حالياً لا يوجد دليل يؤيد فكرة الأكوان المتعددة، وستظل هذه الفكرة مجرد فكرة جدلية.

وما هو مهم جداً هنا هو حقيقة أن فرضية وجود الأكوان المتعددة لا تفسر أصل وجود قوانين الطبيعة. يعتبر مارتن ريس Martin Rees أن فكرة الأكوان المتعددة التي لها قوانينها الخاصة بها تطرح سؤالاً حول القوانين الكلية التي تحكم كل الأكوان، النظرية الشاملة التي تشبه قائد فرقة العزف الموسيقية. «القوانين الكلية التي تحكم الأكوان المتعددة ربما تسمح بوجود تفاوت بين الأكوان، فبعض ما نعتبره «قوانين طبيعية» قد تكون –وفقاً لوجهة النظر هذه– قوانين محلية متناغمة مع القوانين الكلية، ولكن القوانين المحلية وفقاً لهذه النظرية ليست ثابتة»[1].

سؤالنا عن كيفية تحكّم القوانين بالأكوان المتعددة يماثل سؤالنا عن أصل قوانين الطبيعة بشكل عام. كتب بول ديفيز يقول إن «أنصار نظرية الأكوان المتعددة عادة ما يكونون غامضين حول كيفية إختيار قيم المتغيرات parameter values في هذا المجمع الكوني. إذا كان هناك «قانون للقوانين» يحدد قيم المتغيرات، فإن ذلك

(1) Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," 386.

يعني أننا نحيل كل كون إلى الكون الأخر، وعندها نكون قد نقلنا المشكلة مرتبة إلى الأعلى، لماذا؟ أولاً لأننا بحاجة لتفسير من أين جاءت هذه القوانين»[1].

يقــول البعض أن القوانين حدثت عرضــاً كنتيجة للطريقة التي برد فيها الكون بعــد الإنفجار العظيم. ولكن كما أشــار ديفز، فإن هــذه الحوادث يمكن اعتبارها ظهــور ثانوي لقوانين عميقة تحكم مجمع الأكوان». مرة أخرى، حتى تطور قوانين الطبيعة والتغيرات على الثوابت تتبع قوانين معينة. «ونعود مرة أخرى إلى السؤال عن كيفية حدوث هذه القوانين العميقة. مهما أرجعنا إلى الوراء خصائص نشــأة الكون بكيفية معينة، فإن هذه النشأة لا بد أن تتبع قوانين قبلية محددة» .

ســواء أكان هناك أكوان متعددة أو لا، فإننا لابد أن نعود إلى الســؤال: من أين جاءت هذه القوانين؟ والتفسير الوحيد المقنع هنا هو العقل الإلهي.

(1) Davies, “Universes Galore: Where Will It All End?”



الفصل
السابـــع

كيف حدثت الحياة؟
How did Life Go Live ?



كيف حدثت الحياة؟
How did Life Go Live?

عندما عرضت وسائل الأعلام لأول مرة خبر تحولي إلى التوحيد تم الاستشهاد بكلامي على أن أبحاث علماء الأحياء في الحمض النووي DNA أظهرت أن تركيبة الحمض النووي معقدة بطريقة يصعـــب معها تصديق الترتيبات اللازمة لحصول الحيـــاة، وأنـــه لابد أن يكون هنـــاك ذكاء وراء هذه العملية. كتبت في الســـابق أن هناك مســـاحة متاحة لحجة التصميم لتفســـير نشأة الحياة من المادة غير الحية، وخصوصاً إذا كانت هذه المادة تمتلك القدرة على إعادة إنتاج نفسها جينياً. وقلت أنه لا يوجد تفسير طبيعي شافي لهذه الظاهرة.

هذه التصريحات أثـــارت غضباً من النقاد الذين أدعوا أنني لم أكن على دراية بأحدث الاكتشـــافات في مجال التولد التلقائي[١] Abiogenesis . أدعى ريتشـــارد دوكنـــز أنني لجأت إلى «إله الفجوات» [٢] God of the gaps. في مقدمتي الجديدة لطبعة عام ٢٠٠٥ من كتاب «الإله والفلســـفة» قلت «إنني شـــخصياً مســـرور لأن أصدقائـــي من علماء الأحياء أكـــدوا لي أن علماء الأحيـــاء البكتيرية قادرون في الوقت الحالي على تقديم نظريات في التطور بخصوص المادة الأولى، وأن مجموعة

---

(١) عملية طبيعية من الحياة الناشئة عن مواد غير حية مثل مركب عضوي بسيط.

(٢) نـــوع من النقاش في علوم الإلهيات والذي يتم خلالـــه جعل الفراغات (النقص) في المعرفة العلمية دليلاً على وجود الإله. كما يمكن أن يرمز إلى نظرة إلى الإله مشـــتقة من الإيمان الديني الذي يقول أن كل ما يمكن تفســـيره بعلم الإنســـان ليس من اختصاص الإله، هذا يعني أن دور الإلـــه يتحدد في الفجوات في التفســـيرات العلمية للطبيعة. الفكرة تتضمن دمج بين التفســـيرات الدينية مع التفسيرات العلمية. يمكن القول أنه كلما تمكن العلم من إعطاء شرح أدق للعالم قل دور الإله في هذا العالم.

مــن هذه النظريات تتوافق مع الدلائــل العلمية المؤكدة»[1]. ولكن يجب أن أنبه إلى أن الأعمال الحديثة التــي رأيتها والتي تعكس وجهة نظر علماء الفيزياء في عمر الكون، تعطي وقتاً محدوداً لنظريات الأحياء البكيترية لوقوع ما يدعون.

هناك إعتبار أكثر أهمية يتمثل في التحدي الفلسفي الذي يواجه دراسات أصل الكون، إذ أن معظم دراسات أصل الحياة التي يقوم بها علماء الفيزياء لا تأخذ في الاعتبار إلا نادراً البعد الفلسفي في النتائج.

في المقابل، فإن الفلاســفة لم يقولوا ســوى القليل عن الطبيعة وأصل الحياة. الســؤال الفلسفي الذي لم يتــم الإجابة عليه في دراسات أصــل الحيــاة هو هذا: كيــــف يمكن لكــونٍ ذو مــادة لا عقــل لهــا أن تنتج كائنات لهــا نهايات جوهرية Intrinsic ends، ولها قدرات على التكاثر، و«مشــفرة كيمائياً» coded chemistry؟ هنــا نحن لا نتعاطى مع علم الأحياء Biology، وإنما نتحدث عن مشــكلة مختلفة تماماً.

(1) Freeman J. Dyson, Disturbing the Universe (New York: Harper &Row, 1979), 250. Also cited in John Barrow and Frank Tipler, The Anthropic Cosmological Principle (Oxford: Clarendon, 1988), 318.

الكائن العضوي الهادف

The Purpose-Driven Organism

دعونا ننظر أولا في طبيعة الحياة من وجهة نظر فلسـفية. تمتلك المادة الحية هدفاً موروثـاً أو نظاماً محدداً الغاية ليس موجـوداً على الإطلاق في المادة التي جاءت منها. في واحدة من الأعمال الفلسفية القليلة التي كتبت حول الحياة، قدم ريتشـارد كاميـرون Richard Cameron تحليلاً مفيداً عـن وجهة directedness الكائنـات الحية. الكائن الحي كما يقول كاميـرون غائي teleological، بمعنى أنه يملك نهايات أو أهداف أو غايات.

«علماء الأحياء المعاصرون وفلاسـفة علم الأحياء، والعاملين في مجال «الحياة الاصطناعية»، كما يقول كاميرون «لم يأتوا حتى الآن ببيان مقنع لما ينبغي أن يكون حياً، وقد دافعت عن فكرة أن أرسـطو يمكن أن يسـاعدنا في ملأ هذا الفراغ.... فأرسطو لم يدع أن الحياة والغائية متلازمان ببساطة بالصدفة، وإنما عرف الحياة باصطلاحات غائية، وأعتبر أن الغائية هي أمر أساسي لحياة الكائنات الحية»[١].

أصل التكاثر الذاتي هو المشـكلة الرئيسية الثانية. ويلاحظ الفيلسوف المتميز جون هالدين John Haldane أن نظريات أصل الحياة «لا تقدم تفسيراً كافياً، لأنها تفترض مسـبقاً وجود التكاثر الذاتي في مرحلة مبكرة، ولم يتبين أن هذا التكاثر يمكن أن يتم من خلال الوسائل الطبيعية من أصل مادي»[٢].

(1) Richard Cameron, “Aristotle on the Animate: Problems and Prospects,” Bios: Epistemological and Philosophical Foundation of Life Sciences, Rome, February 23–24, 2006.

(2) John Haldane, “Preface to the Second Edition,” in Atheism and Theism (Great Debates in Philosophy), J. J. C. Smart and John Haldane (Oxford: Blackwell, 2003), 224.

يلخص ديفيد كونواي هذين المأزقين الفلسـفيين في رده على إدعاء هيوم بأن نظام الحفاظ على الحياة في الكون لم يصمم من قبل أي شكل من أشكال الذكاء. التحدي الأول هو في تقديم تفسـير مـادي «للانبثاق الأول للمادة الحية من مادة غيـر حية». كـون المادة حية يعني أن لها نظاماً غائيـاً، وهو غير متحقق فيما هو قبلها. أما التحدي الثاني فهو تقديم تفسـير مادي «لإنبثاق الحياة من الأشـكال الأولية المتقدمة، التي كانت غير قادرة على التكاثر ذاتياً، وإنتاج كائنات حية قادرة علـى التكاثر. من دون وجود مثـل هذه القدرة، فإنه لم يكـن ممكناً لهذه الأنواع المختلفة أن تنبثق من خلال طفرة عشوائية وانتقاء طبيعي.

وفقا لذلك، فإن هذه الآلية لا يمكن الاحتجاج بها في أي تفسـير لكيفية إنبثاق صور حياة تتوفر فيها هذه القدرة من أشياء تفتقر لذلك. ويخلص كونواي إلى أن الظواهر البيولوجية هذه «تزودنا بالسـبب الذي يجعلنا نشك في أي تبرير ممكن لانبثاق صور الحياة من أسـاس مادي، وهو ما يجعلنا نلجأ مرة أخرى إلى الحجة الغائية»[1].

(1) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 125.220

تحدي تصوري عميق

A Deep Conceptual Challenge

يتعلق البعد الفلسفي الثالث لأصل الحياة بأصل تشفير coding ومعالجة المعلومات الذي هو أمر أساسي لجميع أشكال الحياة. أفضل وصف لذلك، قُدم من قبل عالم الرياضيات ديفيد بيرلينسكي David Berlinski، الذي يشير إلى أن هناك دراما غنية تحيط بفهمنا الحالي للخلية.

تتكرر الرسالة الوراثية في الحمض النووي في النسخ المتماثلة، ثم يتم نسخها من الحمض النووي إلى الحمض النووي الريبوزي[(١)] RNA . وبعد هذا تتم ترجمة الرسالة ونقلها من الحمض النووي الريبوزي RNA إلى الأحماض الأمينية، وأخيراً يتم تجميع الأحماض الأمينية إلى بروتينات. يتم التنسيق بين الهيكلين الأساسيين لمعالجة المعلومات والنشاط الكيميائي في الخلية عن طريق شفرة وراثية عالمية.

الطبيعة الرائعة لهذه الظاهرة تصبح واضحة عندما نسلط الضوء على كلمة «شفرة». يقول بيرلنسكي: «الشفرة في حد ذاتها مألوفة بحدٍّ كاف، فهي عبارة عن مخطط إعتباطي arbitrary أو نظام للربط بين أثنين من الموضوعات المنفصلة. لنأخذ مثالاً مألوفاً، فشيفرة مورس Morse code على سبيل المثال تنسق النقاط والشرطات مع الأحرف الأبجدية . وعندما نستخدم كلمة «إعتباطي»، فإننا نريد

(١) عبارة عن بوليمر حمضي نووي مؤلف من ارتباط تكافئي لمجموعة من النيكليوتيدات. تم تكوين الحمض النووي الريبيوزي عن طريق عملية النسخ الوراثة اعتماداً على بنية المورثات في الدنا بوساطة أنزيمات تدعى أنزيمات بلمرة RNA ثم تجرى عليها تعديلات أخرى بوساطة انزيمات أخرى. تعمل الرنا كقالب لترجمة الجينات إلى بروتينات، وأيضا كناقل للحموض الأمينية إلى الريبوسومات لتشكيل البروتينات، وأيضا هو مكون أساسي في بنية الريبوسوم.

بذلك التفريق بين الشفرة والربط الفيزيائي الصرف بين موضوعين. لنأخذ مثالاً ملموســاً، فشيفرة مورس Morse code على سبيل المثال تتسق النقاط والشرطات مع الأحرف الأبجدية [١]، وعندما نستخدم كلمة إعتباطي فإننا نريد بذلك التفريق بين الشــفرة وبين الربط الفيزيائي بين جسمين، وعندما نقول أن الشفرة تتضمن مخططاً أو رسماً فإننا نريد أن نؤكد على مفهوم الشيفرة باللغة الرياضية، وعندما نشــير إلى أن الرموز تعكس الارتباط على نحو ما فإننا نعيد تصور الشــفرة إلى استخداماتها البشرية.»

هذا بدوره يقودنا إلى السؤال الكبير: «هل يمكن أن نفسر أصول نظام التشفير الكيمائي بطريقة لا تجعلنا بحاجة إلى اللجوء إلى تفســير هذه الشفرات واللغات وأنظمة التواصل، على أســاس الكلمات الرائجــة في عالــم المادة؟ [٢]كارل وويس Carl Woese وهــو أحد رواد دراســات أصــل الحياة، يلفت النظــر إلى الطبيعة الفلســفية الغامضة لهذه الظاهــرة، فقد كتب في مجلــة RNA قائلاً « الحقائق التشفيرية والميكانيكية والتطورية لهذه المسألة تصبح مسائل منفصلة. فكرة تعبير الجــين gene expression، على غرار فكرة تكرار الجين gene replication القائمة علــى مبدأ فيزيائي لم تعد صحيحة. ليس فقط لأنه لا وجود لمبدأ فيزيائي، ولكن وجود الشــفرة هو مجرد لغز. قواعد التشــفير معروفة. ولكنها لا توفر أية إشارة لماذا توجد الشــفرة ولماذا توجد آلية التشــفير على النحو التي هي عليه. يعترف وويــس بأننا لا نعرف أي شــيئ عن هذا النظام. «أصــل الترجمة، قبل أن تصبح

(١) شــفرة موريس هي شــفرة حرفية من اجل إرسال المعلومات التلغرافية، باســتخدام تتابعات قياسية من عناصر طويلة وقصيرة تعبر عن الحروف والارقام والعلامات والحروف الخاصة الموجودة في الرســالة. العناصر الطويلة والقصيرة من الممكن ان يتم تكوينها عن طريق صوت، علامات أو فتح وغلق المفاتح وهما مشهورين على انهم نقاط وعلامات مائلة.

(2) David Berlinski, “On the Origins of Life,” Commentary (February 2006): 25, 30

ألية صحيحة لفك الشــفرة، صارت الآن جزءاً من الماضي، ولا أريد أن أدخل في تخمينــات عن عملية صعود نجمها، كما لا أريد أن أدخل في تخمينات حول أصل نظام الشحن tRNA أو الشفرة الجينية Q[١] .

يسلط بول ديفيز الضوء على المشكلة نفسها. ويلاحظ ديفيز أن معظم نظريات النشــوء الحيوي ركزت على كيمياء الحيــاة Chemistry of life، ولكن «الحياة هي أكبر من مجرد مجمع للتفاعلات الكيميائية، فالخلية هي أيضاً مكان لنظام تخزين ومعالجة وتكرار المعلومات. نحن بحاجة لشرح أصل هذه المعلومات، والطريقة التي تتــم بها معالجة المعلومات، وهو ما يؤكد على أن «الجين ليس ســوى مجموعة من الأوامر الترميزية بالإضافة إلى أنه وصفة لتصنيع البروتينات». الأهم من ذلك، أن هذه التعليمات الوراثية ليست من نوع المعلومات التي تجدها في الديناميكا الحرارية والميكانيكا الإحصائية، وإنما تشــكل معلومات دلاليــة semantic، information، وبعبــارة أخرى، لديها معنى محدد، وهذه التعليمات يمكن أن تكون فعالة فقط في بيئة قادرة على تأويل المعنى بالشــفرة الوراثية». وعندها يبرز السؤال الأصلي إلى الواجهــة وهو «كيف يمكن للمعلومات ذات المعنى أو الدلالة أن تنبثق بصورة فورية مــن مجموعة من الجزئيات غير العاقلة الخاضعــة لقوى عمياء وفاقدة الهدف، وهذا ما يمثل تحدياً فكريا عميقاً»[٢].

(1) Carl Woese, “Translation: In Retrospect and Prospect,” RNA (2001): 1061, 1056, 1064.
(2) Paul Davies, “The Origin of Life II: How Did It Begin?” http://aca. mq.edu.au/PaulDavies/publications/papers/OriginsOfLife_II.pdf.

الرؤية من خلال زجاج معتم
Through A Glass Darkly

في الحقيقة، لدى علماء الأحياء البكتيرية نظريات تطور تفسر كيف نشأت المادة الأولى، ولكنهم يتعاملون مع جوانب مختلفة من المشكلة. إنهم يتعاملون مع تفاعل المواد الكيميائية فيما بينها، في حين أن سؤالنا هو حول الكيفية التي يكون بها شيئ ما متحرك بشكل جوهري نحو غاية محددة، وكيف يُدار أمر المادة بآلية التشفير؟ لكن حتى على المستوى الخاص بهم، فإن علماء الأحياء البكتيرية لازالوا بعيدين جداً عن جواب محدد لهذه الأسئلة. لقد تم تسليط الضوء على هذا الموضوع بواسطة اثنين من أعلام الباحثين في أصل الحياة.

أندي نول Andy Knoll وهو أستاذ علم الأحياء في جامعة هارفارد ومؤلف كتاب «الحياة على كوكب ناشئ: أول ثلاثة مليارات سنة من الحياة» Life on a Young Planet: The First Three Billion Years of Life يقول: «إذا حاولنا تلخيص ما نعرفه عن التاريخ العميق للحياة على الأرض، عن أصل الحياة، عن مراحلها المتعددة التي أعطت فرصة لنشأة الأحياء، فإن علينا أن نعترف بأننا ننظر هنا من خلال زجاج معتم. نحن لا نعرف كيف بدأت الحياة على هذا الكوكب، ولا نعرف متى بدأت الحياة على وجه الدقة، ولا نعرف ما هي الظروف التي بدأت فيها»[1].

كتب رئيس الجمعية الدولية لدراسة أصل الحياة أنتونيو لازانو Antonio Lazcano في أحد التقارير قائلاً «هناك خاصية للحياة تبدو مؤكدة: ما

(1) Andy Knoll, PBS Nova interview, May 3, 2004.

كان للحياة أن توجد لولا وجود آلية جينية – آلية تستطيع تخزين ونقل معلوماتها الذرية التي يمكن أن تتغير بمرور الوقت ... ليس واضحاً بشكل دقيق كيف نشأت الآلية الأولى للوراثة»، ويكمل قائلاً «في الحقيقة قد لا نكون قادرين على معرفة مسيرة الحياة على الأطلاق»(١).

أما بالنسبة لأصل التكاثر، فإن جون مادوكس John Maddox، وهو المحرر الفخري لمجلة «الطبيعة» Nature كتب قائلاً «السؤال الرئيسي هو متى (ثم كيف) تطور التكاثر الجنسي؟ على الرغم من مرور عقود من التخمين لازلنا لا نعرف»(٢). وأخيراً، يشير العالم جيرالد شرويدر Gerald Schroeder إلى أن وجود الظروف التي ساعدت على وجود الحياة لا تفسر كيف خرجت الحياة إلى الوجود. لقد أستمرت الحياة على الكوكب فقط بسبب توفر الظروف المناسبة التي وجهت المادة لإنتاج كائنات هادفة end-directed وقابلة للتكاثر».

كيف نفسر أصل الحياة؟ جورج والد George Wald الحائز على جائزة نوبل في علم الوظائف قال في إحدى المرات «لقد أخترنا أن نصدق المستحيل: أن الحياة نشأت فجاءة عن طريق الصدفة»، وفي السنوات اللاحقة، خلص جورج والد إلى أن العقل الأزلي الذي سماه مصفوفة الواقعية الفيزيائية matrix of physical reality التي يتكون منها الكون هي التي وهبت الحياة «كيف ذلك، وهناك إحتمالات أخرى في حين أننا في كون يمتلك خصائص مميزة وغريبة هي التي وهبت الحياة؟ لابد أن أعترف أنه بدا لي في الأونة الأخيرة أن كلا السؤالين متطابقين. هذا على فرض أن العقل، وبدلاً من أن يكون قد تطور من خلال الحياة، فإنه كان

---

(1) Antonio Lazcano, “The Origins of Life,” Natural History (February 2006).
(2) John Maddox, What Remains to Be Discovered (New York: Touchstone, 1998), 252.

موجوداً على الدوام على شـــكل مصفوفة matrix تمثل مصدر الواقعية الفيزيائية، بحيـــث أن مكونات الواقعية الفيزيائية هي مكونات عقلية. العقل هو الذي يحتوي الكون الفيزيائي، وهو الذي وهب الحياة، وفي النهاية من خلاله وُجدت المخلوقات التي تعرف وتصنع: العلم والفن والتكنولوجيا»[1].

هذه هي الخلاصة. إن التفســير المرضي الوحيد لأصل الحياة الهادفة القابلة للتكاثر كما رأينا هو العقل الذكي اللامتناهي.

(1) George Wald, “Life and Mind in the Universe,” in Cosmos, Bios, Theos, ed. Henry Margenau and Roy Abraham Varghese (La Salle, IL: Open Court, 1992), 218.

الفصل
الثامــن

هل تأتي بعض الأشياء من لا شيئ؟
Did Something Come From Nothing



هل تأتي بعض الأشياء من لا شيئ؟
Did Something Come From Nothing

في أحد المشاهد الأخيرة من فيلم «صوت الموسيقى» The Sound of Music، تعتــرف ماريا التي لعبت دورهــا جولي أندرو وكابتن فون تــراب الذي لعب دوره كريستوفر بلمر، يعترف كل منهما بحبه للآخر. كل منهما كان متفاجئاً بحب الأخر له، وتســألا كيف حدث ذلك الحب، ولكنهما على ثقة أنه جاء من مكان ما، وأخذا يغنيان «ليس هناك شيئ جاء من لا شيئ، لا شيئ يمكنه ذلك»[1].

ولكن هل هذا صحيح؟ أم يمكن أن يأتي شــيئ من لا شــيئ؟ وكيف يمكن أن يؤثر هذا السؤال على فهمنا للكيفية التي جاء بها الكون للوجود؟ هذا هو موضوع البحــث العلمي الملتزم في مجال الكونيات، وكذلك فيما يخص الحجة الكونية في الفلسفة. في كتاب «فرضية الإلحاد»، عرّفت الحجة الكونية على أنها الحجة التي تبدأ من فرضية وجود الكون، وأقصد بالكون القائم الذي جاء إلى الوجود بســبب كائن آخر (أو ذاك الذي يمكن أن يكون سبباً لوجود بقية الكائنات).

(1) “Something Good,” music and lyrics by Richard Rodgers, 1965.

الكون النهائي
The Ultimate Universe

فــي كتاب «فرضية الإلحــاد» والكتابات الإلحادية الأخــرى، جادلت بأن علينا أن نأخذ الكون نفســه وأكثر قوانينه الأساســية بإعتبارها أموراً نهائية. كل نظام تفسير يجب أن يبدأ من نقطة ما، ونقطة البداية هذه لا يمكن تفسيرها من داخل النظام. لذا لا محالة، أن كل الأنظمة من هذا القبيل تشتمل على الأقل على بعض الأساســيات التي لا تفُسّــر في ذاتها. وهذه النتيجة تأتي من الطبيعة الأساســية للتفسير المتعلقة بالسؤال: لماذا يوجد شيء ما على الحالة التي هو عليها.

لنفترض على سبيل المثال، أننا لاحظنا أن الطلاء الأبيض الجديد الموجود فوق الموقد أصبح لونه بنياً متســخاً، وبعد أن بحثنا عن الســبب، أكتشــفنا أن هذا ما يحدث عادة عند تفاعل مثل هذا النوع من الطلاء مع هذا النوع من المواقد. وتقدمنا خطوة ثانية في معرفة السبب، فعلمنا أن هذه الظاهرة يمكن تفسيرها على أساس إطرادات أوسع وأعمق لتركيب كيميائي: فحين يتفاعل الكبريت المتصاعد من لهب الموقد مع شــيئ ما في الطلاء فإنه يعمل على تكوين مركب كيميائي، وأن هذا هو الســبب في تغير لون الطلاء. وبعد البحث أكثر أكتشفنا وجود قذارة في مطبخنا، وهــي إحدى النتائج التي لا تعد ولا تحصــى المترتبة على نظرية الذرية-الجزيئية atomic-molecular theory لتكون المادة. هكذا هو الحال في عملية التفسير، ففي كل مرحلة نفترض بعض الأمور كحقيقة مسلمة، وهذا هو حال الأشياء.

فــي مناظراتي مع المعتقدين بوجود إله، شــاهدت كيــف أنهم يصلون إلى هذه المرحلة التي لا مفر منها. مهما فكر الموحدون، لتفسير شيء ما، من خلال إرجاعه

إلــى وجود وطبيعة الإله، فــلا يمكنهم تفادي أخذ تلك الحقيقــة بوصفها نهائية وجوهرية وتتجاوز التفســير. ولا يمكنني رؤية كيف يمكن أن يعرف شيء ما ضمن كوننا، أو يُحدَس عقلانياً، بوصفه يشــير إلى واقعية ما متعالية تقبع خلف، فوق، أو تتجاوز. إذاً لماذا لا نأخذ الكون ومعظم معالمه الأساســية بوصفها هي الحقيقة النهائية.

الآن، معظم النقاشــات التي عرضت لها فيما ســبق لا تســتند إلى التطورات الحادثــة في مجــال الكونيات. في الحقيقــة، أن إثنين من كتبي الرئيســية ضد اللاهوتيــة كتبتهمــا قبل وقت طويل مــن ظهور نظريـة الانفجــار الكبير أو قبل عرض حجة التوافق Fine-tuning argument المنبثقة من فكرة الثوابت الفيزيائية Physical constants. ولكن مــع بداية الثمانينات من القرن الماضي، بدأت بإعادة النظــرة فــي كلا الفكرتين. وقد أعترفــت آنذاك بأن على الملحدين أن يشــعروا بالإحبــاط من الإحصاءات الكونية الحديثة، حيث بدا أن علماء الكونيات يقدمون الدليــل العلمي على ما قاله القديس توما الأكويني من أنه يصعب على الفلســفة إثباته، يعني أن للكون بداية.

عندمـــا تعرفت كملحد على نظرية الانفجار الكبير، بدا لي أنها ســـوف تحدث فارقاً كبيراً لأنها تقول بأن للكون بداية، وأول جملة في سفر التكوين تذكر أنه «في البداية خلق الإله السموات والأرض»، وكانت مرتبطة بما حدث في الكون.

طالما أن الكون يمكن أن لا يكون بلا نهاية فحســـب، بل أيضاً بلا بداية، فيبقى من الســـهل أن ترى وجوده (ومعظم معالمه الرئيسية) كحقائق مسلمة. وإذا لم يكن هنـــاك أي ســـبب يدعو للاعتقاد بأن للكون بداية، فإنـــه لا حاجة لافتراض وجود شـــيء ما خلق كل شـــيء كمصادرة. ولكن نظرية الانفجار الكبير غيرت كل شيء. فإذا كان للكون بداية، فإنه يصبح من المشـــروع تماماً، بل لا مفر من، إثارة السؤال عن الذي أنتج هذه البداية. وهذا ما يغير الوضع بشكل كامل.

وفـــي نفس الوقت، توقعت أن الملحدين ســـوف يرون أن فكـــرة الانفجار الكبير تتطلب تفسيراً فيزيائياً، وهو ما قد لا يكون متاحاً للبشر. ولكن أعترف أيضاً بأن المعتقدين بالإله يمكن أن يرحبوا بشـــكل منطقي بفكرة الانفجار الكبير باعتبارها تميل لتأكيد اعتقادهم المسبق بأنه «في البدء» الكون كان قد خُلق بواسطة الإله.

يبدو أن علماء الكونيات المعاصرين مرتبكين، كما هو حال الملحدين، في إمكانية أن تتضمن إكتشافاتهم نتائج لاهوتية. وكنتيجة لذلك، أبتكروا طرقاً للهروب تحافظ علـــى الوضع الإلحادي القائم. ومن ضمن هذه الطـــرق فكرة الأكوان المتعددة، أي العدد الهائل من الأكوان الذي نشـــأ من أحداث متقلبة من الفراغ اللانهائي، أو ما يُسمى بالكون المكتفي بذاته حسب تعبير ستيفن هوكينز.

إلى أن تحين البداية

Until A Beginning Comes Along

كما ذكرت ســـابقاً، لــم أجد أن فكرة الأكوان المتعددة مفيــدة. وقلت أيضاً بأن التعاطـــي مع فرضية الأكوان المتعددة كمصادرة هو بديل يائس. إذا كان وجود كون واحد يحتاج إلى تفســير، فإن وجود أكوان يحتاج إلى تفسير أكبر بكثير، وعندها يتضاعف حجم المشــكلة بمقدار عدد الأكوان الكلــي. هذا الوضع يبدو مثل طفل صغير لا يصدق معلمه إدعاءه بأن الكلب أكل كراســة واجبه المدرســي، فيستبدل ذلك بالإدعاء بأن مجموعة من الكلاب أكلت كراسة واجبه.

أخذ ســتيفن هوكنج إتجاهاً أخر في كتابــه «ملخص لتاريخ الزمان». فقد كتب هوكنج قائلاً «إنه إذا كان بإمكاننا أن نفترض وجود بداية لهذا الكون فإنه بإمكاننا كذلــك أن نفترض وجود خالــق لهذا الكون. ولكن إذا كان الكون في الواقع مكتفي بذاته، وليس له حدود، فإنه لن يكون له بداية ولا نهاية، فهو موجود وانتهى الأمر. إذاً هل بقي مكان للخالق؟»[1]. في عرضي للكتاب بعدما تم نشــره، أشرت إلى أن الاقتراح المُتضمن في نهاية الســؤال لن يســاعد إلا في اللجــوء إلى غير الإلهي. وتناسقاً مع هذه الخاتمة، قلت: الذين ليسوا من علماء الفيزياء النظرية، سيكونون مجبرين على أن يردوا، مثل بعض الشــخصيات في مسلســل برودواي (مسلســل فكاهــي): «إذا لم يكن الانفجار الكبير هو البداية، فإنه ســيظل كذلك على الأقل حتى تظهر بداية أخرى». بدا على هوكينج على الأقل شــيء من التعاطف مع هذا

(1) Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, 1988), 174.

الرد، حيث قال «إن تمدُّد الكون لن يمنع من وجود الخالق، ولكنه سوف يزيد فقط من الوقت اللازم لإنجاز عمله»(١).

كتـــب هوكينز ايضاً قائلاً: «قد يقول قائل أن الزمـــان بدأ مع الانفجار الكبير، وهذا ببساطة يعني أن الزمان قبل الانفجار الكبير لا يمكن تحديده»(٢).

اســتنتجت من هذا النقاش أنه حتى لو اتفقنـــا على أن الكون بدأ مع الانفجار الكبير فإن الفيزياء يجب أن تظل لاأدرية بشكل قاطع، فمن المستحيل من الناحية الفيزيائية إكتشاف من الذي سبب الانفجار الكبير. من المؤكد أن الإيحاء بأن الكون المتغير باستمرار في مقابل التصرف في الكون الثابت الخامل إلى الأبد يحدث فارقاً في المناقشـــة. لكن المغزى من القصة في نهاية المطاف هو أن القضايا المطروحة قضايا فلسفية وليست قضايا علمية، وهو ما يعيدنا إلى الحجة الكونية.

(1) Antony Flew, "Stephen Hawking and the Mind of God" (1996), http://www.infi dels.org/library/modern/antony_fl ew/hawking.html.
(2) Hawking, A Brief History of Time, 9.

شيء ما أكبر من أن يفسره العلم

Something Too Big For Science To Explain

ديفيد هيوم هو الناقد الفلسـفي الأساسـي للحجة الكونية لوجود الإله. وعلى الرغـم مـن أنني أتفقـت مع حجج هيوم فـي كتبي السـابقة، إلا أنني بدأت في التعبير عن شـكوكي حول منهجه. على سبيل المثال، كنت قد أشرت في مقال في كتاب تذكاري للفيلسـوف تيرينس بينلهم Terence Penelhum أن بعض فرضيات تفكير هيوم أسـفرت عن أخطـاء قاتلة. وهذه الأخطاء تشـمل أطروحته في أن ما نسـميه «أسباباً» ليسـت سـوى نوع من «تداعـي المعاني» أو الافتقار لمثل هذا التداعـي. قلت أن أصل – أو على الأقل التحقق من صحة – تصوراتنا السـببية، والأسس التي يفترض أن تبنـى عليها معارفنا السببية، تستند إلى وفـرة وتكـرار النشـاط التجريبي لمخلوقـات مكـونة من لحـم ودم، وفاعـلة في عالم العقل-المستقل mind -independent world (تجربة محاولة سحب ودفع أشياء، والنجاح في سـحب أو دفع بعضها وعدم النجاح مع البعض الأخر، وتجربة التسـاؤل ماذا سـيحدث لو»، وماذا عن التجريب وبالتالي الإكتشـاف من خـلال التجربة «ماذا يحـدث عندمـا»). يبدو لي الأمـر، أن الخبرة التجريبية تتمثل فـي أننا كفاعلين نتعـرف، ونطبق، ونصحح فكرة السـبب والمسـبب، ونحدد مـاذا نعني بمصطلح ضروري ومصطلح مستحيل. توصلت في النهاية إلى أن محاولة هيوم الخيالية لن توفر لنا بوصلة لتحديد معانى للسبب والمسبب وقوانين الطبيعة»[1].

(1) Antony Flew, “The Legitimation of Factual Necessity,” in Faith, Scepticism and Personal Identity, ed. J. J. MacIntosh and H. A. Meynell (Alberta: University of Calgary Press, 1994), 111–17.

ولكن فـــي كتاب ديفيد كونواي «إعادة اكتشـــاف الحكمـــة»، وطبعة عام ٢٠٠٤ من كتاب ريتشـــارد ســـوينبيرن «وجود الإله» وجدت ردوداً متفاعلة من نقد هيوم (وكانـــت) للحجة الكونية. تناول كونواي بشـــكل منهجي كل اعتراضات هيوم.على ســـبيل المثال، يعتقد هيوم أنه لا يوجد سبب لوجود أي سلسلة من الكائنات المادية وراء مجموع كل عضو من أعضاء هذه السلســـلة. إذا كانت هناك سلسلة لا بداية لهـــا لكائنات غيـــر ضرورية الوجود، فإن ذلك يعد ســـبباً كافياً للكون ككل. رفض كونواي هذا الاعتراض على أســـاس أن «التفسيرات السببية لأجزاءٍ من –من هذا القبيل– بلغة الأجزاء الأخرى، لا يمكن أن تضيف شيئاً إلى التفسير السببي للكل، إذا كانـــت المفردات المذكورة كأســـباب هي مفردات يحتـــاج وجودها في ذاته إلى تفســـير ســـببي» . لنفترض أن هناك فيروس كمبيوتر قادر على تكرار نفســـه في أجهزة كمبيوتر متصلة بشـــبكة. حقيقة أن ملايين الكمبيوترات المرتبطة بالشبكة قد أصيبت بالفيروس، لا يفسر بذاته وجود فيروس يكرر نفسه.

وفيما يتعلق بحجة هيوم ذاتها، كتب سوينبيرن:

«السلسلة اللانهائية ككل لن تقدم لنا تفسيراً على الإطلاق، لأنه لن يكون هناك أسباب من أعضاء السلسلة تقع خارج هذه السلسلة. في هذه الحالة، سيكون وجود الكون على مر الزمن اللانهائي حقيقة قاهرة متعذرة التفسير. سيكون هناك تفسيراً (بلغة القوانين) للســـؤال: لماذا يستمر موجود ما بالوجود؟ ولكن ما سيتعذر تفسيره هو اســـتمرار الكون في الوجود في الزمـــان اللامتناهي. وجود الكون المادي المعقد عبر زمن متناهي أو لا متناهي «أكبر بكثير» من قدرة العلم على التفسير»[1].

(1) Richard Swinburne, The Existence of God (Oxford: Clarendon, 2004), 142.

الحاجة إلى عنصر إبداعي

The Need For A Creative Factor

إذا كان ردنــا على نقد هيوم كافياً، يصبح من الممكن تطبيق الحجة الكونية في سياق علم الكونيات الحديث. يجادل سوينبيرن بأننا يمكن أن نفسر الأوضاع state of affairs فقط بلغة أوضاع أخرى. القوانين بحد ذاتها غير قادرة بشكل كافي على تفسير هذه الأوضاع، وكتب سيونبرن يقول «إذا لم يكن لدينا قوانين في بداية الكون لأنه لم يكن هناك أوضاع قبل ذلك فإنه لا يمكننا تفسير الكون»[1]. إذا كان هناك قانون معقول لتفسير بداية الكون، فلا بد أن يقول لنا شيئاً ما مثل «الفراغ المكاني يقود بالضرورة لظهور الطاقة – المادة». وهنا «الفراغ المكاني» هو ليس عدماً بقدر ما هو «مفردة مُعرَّفة»، شيء ما موجود هناك. هذا الاعتماد على القوانين للحصول على الكون الذي بدأ من «الفراغ المكاني» يطرح أيضاً سؤالاً: كيف أن الطاقة – المادة matter-energy نتجت في الزمن الصفري t0 وليس في زمن أخر.

أظهر فيلسوف فلسفة العلم جون ليزلي John Leslie أن أياً من التكهنات الكونية المألوفة اليوم لا يمنع من احتمال وجود الخالق. وقد تكهن عدد من علماء الكون بأن الكون نشأ من «العدم». في عام ١٩٧٣، وضع إدوارد تريون Edward Tryon نظرية مفادها أن الكون كان يتذبذب في فراغ في فضاء أكبر. وجادل ليزلي بأن الطاقة الكلية للكون كانت صفراً، لأن الجاذبية التي تمسك طاقة الكون هي كمية سلبية في معادلات الفيزياء.

(1) Richard Swinburne, “The Limits of Explanation,” in Explanation and Its Limits, ed. Dudley Knowles (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), 178–79.

باســـتخدام نهج آخـــر، تكهن كل من جيم هارتل Jim Hartle، وســـتيفن هوكينغ Stephen Hawking، وأليكس فيلكـــن Alex Vilenkin بأن الكون الكمي-المتذبذب quantum-fluctuated جـــاء من العدم. «العدم» عبارة عن حالة خاصة من الرغوة الزمكانيـــة الفوضوية مع إرتفاع خيالي في كثافة الطاقة. تكهن أخر (من هوكينغ) يقول «إن الوقت يصبح أكثر فأكثر مشـــابه للمكان في الأوقات الأولى من الانفجار الكبير».

يعتقد ليسلي أن هذه التكهنات لا علاقة لها بالموضوع، ويقول «بغض النظر عن كيفية وصفك للكون باعتبـــاره موجوداً منذ الأزل، أو باعتباره قد انتظم من خارج الزمان والمكان، أو وُجد في الفضاء من دون زمان، أو أنه بدأ بشـــكل كمي ضبابي حيث لم تكن هناك نقطة بداية، أو أنه نشأ عندما كانت الطاقة الكلية صفراً- فإن النـــاس الذين يرون أن المشـــكلة في حدوث وجود هائل نتج من شـــيئ ما بدلاً من حدوثه من لا شيئ، سوف يكونون أقل ميلاً إلى أن المشكلة قد حُلت» .

إذا كانت لديك معادلة تحســـب بدقة إحتمال وجود شيئ من الفراغ فإنه سوف يظل عليك أن تسأل لماذا تنطبق هذه المعادلة في هذه الحالة بالذات. في الحقيقة، لاحظ هوكنج أنه يجب علينا أن نُدخل على المعادلات عنصر إبداعي.

في مقابلة بعد وقت قصير من نشر كتابه «موجز في تاريخ الزمان»، أقر هوكينـج بـــأن نموذجه ليس له أي تأثير على وجـــود الإله. عندما نقول بأن قوانين الفيزياء هي التي حددت كيف بدأ الكون، فكأننا نقول أن الإله لم يختر «أن يســـلك الكون بصـــورة اعتباطيـــة لا نفهمها. ولكنها لا تقول شـــيئاً عن أن الإلـــه موجود أو غير موجود- فقط تقول أنه ليس اعتباطياً»[٢].

(1) Richard Swinburne, "The Limits of Explanation," in Explanation and Its Limits, ed. Dudley Knowles (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), 178–79.
(2) John Leslie, Infi nite Minds (Oxford: Clarendon, 2001), 194–95.

حجة استقرائية جيدة

A Good C-Iinductive Argument

تم إعـــادة صياغة الحجة بلغـــة كونية حديثة. ولكن ليســـلي وجد أن ذلك غير مرضي. لاحظ ليسلي أن بعض الناس يدعون بأن وجود الكون في أي لحظة معينة يمكن تفســـيره على أســـاس حقيقة أنه وجد قبل ذلك الوقت وهلم جراً إلى ما لا نهايـــة. وهناك علماء فيزياء يعتقدون بأن الكون وجد خلال زمن لا نهائي، إما من خلال سلسلة من الانفجارات أو كجزء من حقيقة التمدد الأبدي الذي أوجد أكوان الانفجار الكبير. في حين أن أخرين يقولون أن الكون وجد من زمن محدود بطريقة حساب معينة، ولكنه وُجد من زمن لا متناهي بطريقة حساب أخرى.

ورداً على هذه الأراء، أكد ليسلي على «أن وجود سلسلة لا متناهية من الأحداث الماضية لا يمكن أن يُعد تفسيراً ذاتياً حين يتم تفسير كل مرحلة من خلال المرحلة التي تســـبقها». «إذا كانت هناك سلسلة من كتب الهندسة التي نعتقد بأن كل منها نســـخ مما ســـبقه، فنحن بذلك نظل نحتاج إلى إجابة مقنعة عن سبب وجود هذه الكتب من الأســـاس، فالسلسلة بأكملها تحتاج إلى تفسير». وأضاف ليسلي قائلاً: «فكر في ألة زمن تسافر إلى الماضي حيث لا يوجد أحد صممها أو صنعها. وجود مثل هذه الأداة يمثل دوران للتفســـير الذاتي، وحتى لو كان الســـفر خلال الزمان معقولاً، فإن التفسير الذاتي لن يكون معقولاً»[1].

يلخص ريتشارد سوينبيرن Richard Swinburne عرضه للحجة الكونية بالقول: «هنـــاك فرصة بأن، الإله إذا كان موجوداً، فإنه ســـيخلق تعقيد ومحدودية الكون.

(1) Leslie, Infi nite Minds, 193–94.

إنــــه من غير المرجح أن يكون الكون قد وجد بلا ســـبب، ولكن من المرجح جداً أن الإله وُجد بلا ســـبب. ولذلك فإن حجة وجود الكون ســـوف تُحيل إلى وجود الإله بنوع جديد من أنواع الاستقراء». في نقاش جرى حديثاً مع سوينبيرن، لاحظت أن توصيفه للحجة الكونية صحيح من ناحية أساسية. وبعض معالم الحجة تحتاج إلى تعديل، إلا أن هذا التفسير يقود إلى وجود الكون. حجة ريتشارد سوينبيرن الكونية توفر تفسيراً واعداً، ولعله في النهاية أصح التفسيرات.

الفصل
التاسع

إيجاد مساحة للإله
Funding Space for God



إيجاد مساحة للإله
Finding Space for God

في المشـــهد الأول من مسرحية ماكبث Macbeth لشكسبير، وهـي إحدى أشهر مســـرحياته، يواجه ماكبث وبانكو Banquo وهما أثنان من الجنرالات في الجيش الملكـــي ثلاثة من الســـاحرات، حيث تتحدث إليهما الســـاحرات ثم يختفين. يقول بانكـــو «الأرض لها فقاعات كمـــا أن للماء فقاعات، وهـــؤلاء فقاعات كذلك، أين أختفين؟. يرد ماكبث: «في الهواء، ما بدا لك أنه جسد تبخر كهواء في الريح». إنه مســـرح ترفيهي وأدب جميل، وفكرة الشخص الذي يختفي «كما الهواء في الريح» نادراً ما تشـــكل مشكلة لمشاهدي المســـرح والأدب، ولكنها في السابق، مثلت عقبة حقيقية للفلاسفة في سعيهم إلى «إتباع الدليل إينما قادهم».

لا يوجد أحد هناك

There's No One There

في كتابي «الإله والفلسـفة»، وفي منشـورات لاحقة له، ذكرت بأن تصور الإله غير متماسـك، لأنه يفتـرض أن الإله روح معنوية حاضرة فـي كل مكان وزمان، ووجهة نظري كانت مباشرة. الإنسان كما نفهمه بالمعنى المعتاد مكون من لحم ودم، ولذلك فإن قولنا أن «شـخص من دون جسد يبدو بلا معنى له مثل قافية الأبيات المنسوبة إلى هفز ميرنز Hughes Mearns:

وأنـا أسيـر فـوق الـدرج

قابلت شخصاً لم يكن هنـاك

ولم يكن هنـاك اليـوم أيضاً

أه كم أتمنى أن يذهب بعـيداً

أن تقول بأن هناك «شـخص من دون جسد» مشابه جداً لقولك «هناك شخص ما ليس موجودا هناك». إذا كنا نريد التعرف على شخص من دون جسد، فلابد أن نمتلك وسائل مناسبة للتعرف على ما نسميه «شخص». أستمر الفلاسفة المتأخرون من أمثال بيتر ستراوسـن Peter Strawson وبيدي راندل Bede Rundle في تطوير هـذا النقد. وفي الآونة الأخيرة، وجدنا نسـخة من هـذه الحجة في أعمال جون غاسكين John Gaskin أستاذ الفلسفة والزميل في كلية الثالوث بدبلن. فقد كتب غاسـكين «غياب الجسـد ليس فقط مبرر واقعي للشك في أصل وجود الشخص (لا شـخص هنـاك) ! ، بل هو أيضاً مبرر للشـك في أن هـذا الكيان غير المادي

يمكن أن يكون فاعلاً»[1]. تم الرد على هذا النقد من قبل الموحدين، وقد شـــهدت فترة الثمانينات والتسعينات صحوة للتوحيد في أوساط الفلاسفة التحليليين. قام العديد من هؤلاء المفكرين بدراســـات مطولة عـــن الخصائص المرتبطة بالإله مثل مفهوم الخلود.

تم الرد على هذا النقد من قبل الموحدين. وقد شـــهدت الثمانينات والتسعينات نهضة إيمانية في التوحيد في أوساط الفلاسفة التحليليين. قام العديد من هؤلاء المفكرين بدراسات مطولة عن الصفات المرتبطـة تقليدياً بالإله مثل الخلود.

تصدى إثنان من هؤلاء المفكرين، وهما توماس تريســـي Thomas Tracy وبراين ليفتو Brian Leftow بمنهجية لمســؤولية الدفاع عن تماســـك فكـــرة «روح معنوية حاضرة في كل زمان ومكان». ففي حين تناول تريســـي الســـؤال عن كيفية تعريف كائـــن لا مـــادي، حاول ليفتو أن يبين أن الإله يجب أن يكـــون خارج المكان والزمان وكيف يمكن أن يتصرف الكائن غير المادي في الكون.

(1) John Gaskin, “Gods, Ghosts and Curious Persons,” unpublished paper.

كمال الفاعلية
The Perfection Of Agency

في كتابه «الإله والفعل والتجسـيد» و» الإله الفاعل»، أجاب تريسي باستفاضة على سـؤالي كيف يمكن أن يكون هناك شخص دون جسد وكيفية تعريف شخص كهذا. أعتبر تريسـي أن الأشخاص (البشري والإلهي) الفاعلين يفعلون عن قصد. وهو يرى الإنسـان كفاعل عضوي، كجسـد قادر على الفعل القصدي. ولكن على الرغم من أن كل الفاعلين المتجسـدين (كأشخاص البشر) يجب أن يكونوا وحدات نفسـية (وليسـت عقول زائد أجسـاد)، وأنه لا يجب أن يكـون كل الفاعلين غير متجسدين.

لا توجد حجة مضادة للثنائية تبين أن الجسـد هو شـرط ضـروري لكينونة الفاعل، طالما أن الشـرط الوحيد لكينونة الفاعل هو أن يكون ببساطة قادراً على الفعل القصدي. يرى تريسـي أن الإله فاعل، لأن كل أفعاله قصدية. التحدث عن الإله كشخص، هو تحدث عن فاعل يقوم بأفعاله عن قصد. قدرة الإله على الفعل متميزة، والأفعال التي تُعزى إلى الإله لا يمكن من حيث المبدأ أن تُنسـب للفاعلين الأخريـن. على سـبيل المثال، الإله عبـر فعله القصدي، فهـو الفاعل الذي يمنح الوجود لكل الكائنات.

لاحظ تريسي أنه يمكن تعريف الإله من خلال النمط الفريد لطريقة فعله. «إذا تصورنـا الإله بإعتباره الفاعل الكامـل، فإنه يمكن القول أن الإله هو فاعل موجد لذاته، وتتبدى حياته كوحدة كاملة من القصد، وهو خالق كل شيء وعلى كل شيء قديـر». «أن نقول أن اللـه يحب، فكأننا نقول أن الله يظهر هذا الحب في أفعاله،

وهـــذه الأفعال تمثل هويته كفاعل. ولكن اللـــه فاعل بحيث أن نمط حياته وقدرته تختلف بشكل جوهري عنا. «بما أن نطاق ومحتوى فعل الإله مميز، فكذلك ستكون خاصية حبــه وصبره وحكمته». هــذا الفهم للأفعال الإلهية يســاعد في إعطاء محتــوى لوصفنا للإله بأنه محب أو حكيم، ومع ذلــك لا بد أن نعترف بأن فهمنا محدود للغاية [1].

(1) Thomas F. Tracy, God, Action and Embodiment (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1984), 147, 153. See also The God Who Acts, ed. Thomas F. Tracy (University Park: Pennsylvania State University Press, 1994).

براين ليفتو، وهو اســتاذ بجامعة أكسفورد، يعالج هذه الأفكار في كتابه «الزمان والخلود» Time and Eternity. في نقاشــي معه، أشــار ليفتــو إلى أن فكرة الإله الخارج عن الزمان والمكان تتوافق مع نظرية النسبية الخاصة [(١)] Special relativity. يقــول ليفتو «هناك الكثير مــن الحجج التي يمكن عرضها لبيــان أن الإله خارج الزمان. الشــيئ الذي أثر عليّ أنك إذا أخذت النســبية الخاصة بشكل جاد جداً، فستعتقد بأن كل شــيء في الزمان هو أيضاً في المكان. إنه مجرد اتصال للأبعاد الأربعة. ليس هناك موحد يقول أن الإله موجود في المكان بالمعنى الحرفي. إذا لم يكــن الإله في المكان، وكل من في الزمــان هو في المكان، فهذا يعني أن الإله ليس في الزمان. السؤال إذاً يصبح هكذا: ما هو المعنى الذي يمكن تصوره لكائنٍ مشابهٍ للشخص خارجٍ عن الزمان؟

يستمر لفتو بالقول «حسناً، الكثير من المحمولات الشخصية لن تنطبق. الإله لا ينســى، أنت تنسى ما هو في الماضي. الإله لا يتوقف عن فعل شيء، أنت تستطيع فقــط أن تتوقف عن فعل ما هو في الماضي. ولكن هناك محمولات شــخصية، لا يبدو أن مرجعيتها الأساســية: الزمان-الأشــياء مثل العلم Knowing، الذي يمكن

(١) النظرية النســبية الخاصة أو نظرية اللاتغير the invariant theory، كما كان يسميها أينشتين،وهي التســمية الأكثر دقة، هي نظرية فيزيائية للقياس في إطار مرجعي اقترحها ألبرت أينشــتين عام ١٩٠٥. كبديل عن نظرية نيوتن في الزمان والمكان لتحل بشكل خاص مشاكل النظرية القديمة فيما يتعلق بالأمواج الكهرومغناطيســية عامــة، والضوء خاصة. وهي تدعى «خاصة» لأنها تعالــج حالة خاصة تتعلق بحركة المراجع (المختبرات) بالنسبة لبعضها البعض بسرعة منتظمة وفي خط مستقيم.

أن يكـون حالـة من الميل دون مرجعية زمانية. وسـأجادل بـأن القصد هو أيضاً كذلك. القصد هو حالة من الميل بحيث لو كان شـيئاً ما سيقع، فإنك ستفعل شيئاً ما. ولذلك أنا أميل للاعتقاد بأن هناك أسـباباً للاعتقاد بأن الإله خارج الزمان. وأيضـاً أميل للاعتقاد بأنه يمكننا العثور علـى معنى من هذا القبيل دون الغوص في مستنقع الوحل.

السـؤال الثاني الذي تصدى لـه ليفتو كان هو: كيف يمكـن أن نتكلم عن روح حاضرة بكل زمن ومكان تقوم بممارسة العمل في المكان أو الكون:

«إذا كان الإله غير زماني، فإن أي شيء يفعله سوف يفعله دفعة واحدة [1]، فلا يمكنه أن يفعل شيئاً ما أولاً ثم يفعل الثاني بعد ذلك، وإنما هو فعل واحد له تأثير فـي أزمـان مختلفة. قد يقوم الإله بفعل إرادي واحد، بـأن يقول بكلمة واحدة أن الشمس سوف تشرق اليوم، وسوف تشرق غداً، إلا أن هذا الشروق يظهر اليوم ثم يظهر غداً. مع ذلك، هذا ليس هو السؤال الأساسي.

السؤال الأساسي هو كيف يمكن أن يكون هناك رابط سببي بين كائن لا زماني ولا مكاني وبين الكون الزماني - المكاني[2]؟ قدرتك على تقديم معنى لذلك يعتمد على تصورك للسببية [3]. إذا كنت تعتقد أن تصور السبب يستبطن بشكل أساسي مرجعيـة زمانية -مثال: إذا وقع حدث ما، اسـتتبعه حـدث أخر وبينهما علاقات

(١) يذكرنا هذا بقوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ (سورة القمر، ٥٠).

(٢) وهي معضلة تناولها فلاسـفة الإسـلام ببحث عميقٍ تحت عنوان «ربط القديم بالحادث»، أنظر: «أصول الفلسـفة والمنهج الواقعي» للسـيد الطباطبائي، وتعليق الشـيخ المطهري، المقالة الحادية عشرة، والمقالة الرابعة عشرة.

(٣) وهـذا بالضبط ما قدمه صدر الدين الشـيرازي، عند طرح نظريته في منـاط احتياج المعلول إلى العلة، وبين أن مناط تلك الحاجة أن المعلول هو عين الربط والتعلق بالعلة، وليس شيئاً يعرض له الربط والتعلق بالعلة.

معينة- فإن هذا المعنى للســبب سوف يتم استبعاده. ولكن هناك تحليل لا يتضمن مرجعية زمانية أساســية. أنا شخصياً أميل إلى أن تصور السبب لا يحمل تحليلاً لأنه مفهوم أولي، والسببية علاقة أولية. إنها جزء من أثاث (تجهيزات) العالم . إذا لم يكن لتصور السبب تحليل، فليس ثمة شيء يمكن أن تقتلعه منه عن طريق تحليل ما يستبعد الربط السببي الأولي بين الإله اللازماني والزمان بأسره[1].

(1) Brian Leftow, personal conversation with the author, Oriel College, Oxford University, October 2006

إمكانية متماسكة

A Coherent Possibility

على أقل تقدير، بينت دراســـات تريس وليفتو أن فكرة الروح الحاضرة في كل زمان ومكان ليســت غير متماســكة في جوهرها إذا نظرنا إلى هذه الروح خارج الزمـــان والمكان حيث تقوم بأفعالها القصدية بطريقة خاصة في المتصل الزماني- المكاني. الســؤال عما إذا كانت هذه الروح موجودة، كما نرى، يقع في صلب حجج وجود الإله.

إما بالنســبة لصلاحيــة، هذه الحجج فأنا أتفق مع اســتنتاج كونوي الذي قال فيه: «إذا كان منطق الفصل الســابق صحيحاً، فإنه لا توجد حجة فلســفية جيدة تنفي وجود الإله لتكون تفسيراً للكون المنظم الذي يظهر لنا. وإن كان الأمر كذلك، فلا يوجد ســبب يمنع الفلاسفة للعودة مرة أخرى للتصور الكلاسيكي لموضوعهم، بشرط ألا يكون هناك طريق أخر للظفر بالحكمة»[1].

(1) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 134.



الفصل
العاشـــر

المجال مشرع لإله الكامل القدرة
Open Tp Iminipotence



المجال مشرع لإله الكامل القدرة
Open Tp Iminipotence

العلم كعلم لا يمكن أن يقدم حجة تؤيد وجود الإله. ولكن البراهين الثلاثة التي ذكرناهـــا في هذا الكتـــاب: قوانين الطبيعة، الحياة الغائيـــة، ووجود الكون، يمكن فقط تفســـيرها على ضوء ذكاء يفســـر وجوده بذاته ويفســـر كذلك وجود العالم. اكتشاف الإله على هذا النحو لا يأتي من خلال معادلات وتجارب، ولكن من خلال فهم التركيب الذي من خلاله تستطيع إزاحة الغموض عن الخريطة.

الآن، قد يبدو هذا الأمر مجرداً وغامضاً. قد تســـأل: كيف أتصرف كشـــخص عند اكتشـــاف الواقعية القصوى لروح حاضرة في كل زمان ومكان وقادرة على كل شـــيء؟ لابد أن أعيد تكرار القول بأن رحلة إكتشافي للمقدس كانت إلى حد بعيد رحلة عقل. لقد اتبعت الحجة إلى حيث أخذتني، وهي قادتني إلى وجود إله ذاتي الوجود، غير متغير، غير مادي، على كل شيء قدير وبكل شيء عليم.

بالتأكيد، لا بد من مواجهة مشـــكلة الشـــرور والمعاناة في العالم. ولكن فلسفياً، هذا الموضوع مختلف عن موضوع وجود الإله. من وجود العالم نصل إلى الأســـاس لوجـــوده. قد يكون للطبيعة نواقصها، ولكن هذا لا علاقة له إذا ما كان لها مصدر نهائي او لا. ولذلك فوجود الإله لا يعتمد على أن هناك تبرير أو عدم تبرير لوجود الشر.

فيما يخص مســـألة الشرور، هناك تفســـيران لمن يؤمن بوجود الإله. التفسير الأول هو في إله أرسطو الذي لا يتدخل في العالم. أما التفسير الثاني فيستند إلى

حجة الإرادة الحرة، وهي فكرة أن الشــر ممكن دائماً ما دام الإنسان حر الإرادة. في الإطار الأرسطي، الإله بمجرد أن أتم خلق الكون، ترك الأمر لقوانين الطبيعة، وإن كان في بعض الأحيان يتدخل من بعيد في القضايا المبدئية مثل إقامة العدل. حجة الإرادة الحرة تعتمد على القبول المســبق بإطار الوحي الإلهي، وهي فكرة أن الإله قد تجلى بذاته.

منفتح لتعلم المزيد

Open To Learning More

إلــى أيــن أنا ذاهب الآن؟ في المقام الأول، أنا منفتــح للتعلم أكثر عن الواقعية الإلهية، وخصوصاً على ضوء ما نعرفه عن تاريخ الطبيعة. وثانياً أن الســؤال عما إذا كان الإله قد تجلى بذاته في التاريخ البشــري يظل موضوعاً مشروعاً للنقاش. لا نســتطيع أن نقصــر (نُحدِّد) إمكانيات الإله الذي هو على كل شــيء قدير، إلا إذا كان ذلــك يــؤدي إلى نتيجة غير منطقية. عدا ذلك، كل شــيء مفتوح لإله كُلِّي القدرة.

الملحق الثاني في هذا الكتاب هو عرض للنقاش الذي دار حول المسألة الأخيرة مع الأسقف الإنجيلي رايت N. T. Wright، مع إشارة خاصة إلى المقولة المسيحية بأن الإله أصبح رجلاً في شخص السيد المسيح. كما قلت أكثر من مرة ليس هناك دين يتمتع بمزيج من شــخصية تمتلك جاذبية مثل شــخصية المســيح، ومفكر من الدرجــة الأولى مثل القديس بولس. إذا كنت تريد من إلهٍ على كل شــيء قدير أن يصنع ديناً، فإن ما يبدو لي هو أن هذا هو الدين المطلوب.

على إستعداد للتواصل

Willing To Connect

أريــد أن أعود الآن إلى المثال الذي بدأت به هذا الجزء من الكتاب. تكلمنا عن الهاتف الذي يعمل بالاقمار الصناعية، والذي يتم اكتشافه من قبل قبيلة تعيش في جزيرة والمحاولات التي جرت لفهــم طبيعة الهاتف. أنتهى المثال مع حكيم القبيلة الذي تعرض لســخرية وتجاهل من علماء القبيلــة. ولكن لنفترض أن المثال أنتهى نهايــة مختلفة؛ بقبول العلماء قول الحكيم بأن الهاتف مجرد وســيلة للتواصل مع أنــاس آخريــن. وأنه بعد مزيد من البحث، توصلوا إلــى نتيجة أن الهاتف مرتبط بشــبكة تبث أصوات أناس واقعيــين. وهم الآن (العلماء) يقبلــون بفرضية وجود كائنات ذكية «هناك».

ذهب بعض علماء القبيلة إلى أبعد من ذلك، فعملوا على فك شــفرة الأصوات التــي تأتي من الهاتف، وتوصلوا إلى فهم النغمات والنســق الذي تتحدث به هذه الأصوات. عندهــا تغير عالمهم، وعرفوا أنهم ليســوا وحيدين. وفي لحظة معينة أجروا إتصالاً.

من الســهل تطبيق التشــبيه في هذا المثال. اكتشاف ظواهر كقوانين الطبيعة- شــبكة الاتصال في المثال السابق- قاد علماء، وفلاسفة، وآخرين إلى قبول وجود عقل ذكي لا نهائي. البعض يدعي أنه قد أجرى مكالمة مع هذا العقل. أما أنا فليس بعد. ولكن من يعرف ما سيحدث لاحقاً؟ «هل بمقدورك أن تسمعني الآن؟»

الملحق الأول

الإلحاد الجديد

تقييم نقدي لدكونز، دينيت، ولبرت، هاريس وستينجر

روي أبراهام

Roy Abarahm

الإلحاد الجديد

The New Atheism

الأســـاس الذي يقوم عليه كتاب «الإلحاد الجديــد» new atheism هو الاعتقاد بعــدم وجود إله، إذ لا وجود للإلـــه الخالد اللامتناهي مصدر كل الموجودات. هذا الاعتقاد الأساسي يحتاج إلى أساس من أجل أن تصح بقية الحجج. أريد أن أقول هنــا أن الملاحدة الجدد من أمثال ريتشــارد دوكنــز Richard Dawkins، ودانيال دينيــت Daniel Dennett، ولويــس ولبرت Lewis Wolpert، وســام هاريس Sam Harris، وفيكتور شــتينجر Victor Stenger، لم يفشلوا فقط في البرهنة على هذا الاعتقاد، بل أنهم أهملوا الظواهر المرتبطة بالسؤال فيما إذا كان الإله موجوداً.

أرى أن هناك خمس ظواهر واضحة في تجربتنا المباشرة لا يمكن تفسيرها إلا بلغة وجود الإله. هذه الظواهر هي:

الأولى، العقـلانية المتضمنة في جمـيع خبراتنا الحسية عن العالم الفيزيائي.

الثانية الحياة، القدرة على الفعل المستقل.

الثالثة الوعي، القدرة على أن تكون على علم.

الرابعة، الفكر التصوري Conceptual thought، القدرة على التعبير وفهم الرموز الموجودة في اللغة. الخامسة، النفس البشرية، «مركز» الوعي والفكر والفعل.

هناك ثلاثة أشياء يجب أن تقال عن هذه الظواهر وارتباطها بوجود الإله.

أولاً، نحــن اعتدنا على ســماع الحجــج والبراهين لوجود اللــه. في رأيي، أن هــذه الحجج مفيدة في توضيح بعض الأفكار الأساســية، ولكن لا يمكن إعتبارها «براهين» تحدد مشــروعية صورية فيما إذا كان هناك إله. بدلاً من ذلك، فإن كل واحدة من الظواهر الخمســة التي نستشهد بها هنا، بطريقتها الخاصة، تفترض مسبقاً وجود عقل بديل نهائي. الإله هو الشرط الذي يكمن وراءه كل ما هو بديهي في خبرتنا.

ثانيا، يجب أن يكون واضحاً من النقطة الســابقة، أننا لا نتحدث عن إحتمالات وفرضيــات، وإنما نتحدث عن مواجهة مع حقائق أساســية لا يمكن إنكارها، وإلا وقعنــا في التناقض الذاتي. وبعبارة أخرى، نحن لا نطبق مبرهنات الاحتمال على مجموعات معينة من البيانات، ولكننا نركز أكثر بكثير على السؤال الأساسي حول كيــف يمكن تقييم البيانات من الأســاس. وبالمثل، فإن الأمر ليس مجرد مســألة أســتنتاج وجود الإله من خلال بعض الظواهر المعقــدة. بدلاً من ذلك، فإن وجود الإله هو فرض مسبق لكل هذه الظواهر.

ثالثاً، يشــتكي الملحدون القدماء والجدد من عدم وجود دليل على وجود الإله، وقــد رد بعض الموحدين على ذلك بالقــول أن فكرة الإرادة الحرة يمكن أن تصمد فقط إذا كان الدليل غير متعسف Noncoercive. النهج المتبع هنا هو أن لدينا كل الأدلة التي نحتاجها في تجربتنا المباشــرة، وأن الرفــض المتعمد لرؤية الواقع هو المسؤول عن الإلحاد بصيغه المتعددة.

عند النظر في تجربتنا المباشرة، دعونا نقوم بتجربة فكرية. فكر لدقيقة واحدة أن أمامك طاولة من الرخام، هل يمكن أن تتصور أنه بعد مليارات الســنين أو بعد

مرور زمــن لا نهائي إمكانية أن تتحول هذه الطاولة بصــورة مفاجئة أو تدريجية إلى طاولة مدركة وواعية لما حولها، وواعية بهويتها بالكيفية التي نفهم بها الأمور؟ ببســاطة هذا أمر لم ولن يقع، وهو ما ينطبق على جميع الجمادات غير الطاولة. بمجــرد أن تدرك طبيعة المادة المكونة من كتلة وطاقة تدرك أن طبيعتها تجعل من المســتحيل عليها أن تعي أو تفكر و «لا أن تقول أنا». ولكن موقف الملحدين يتمثل في أنه في نقطة معينة في تاريخ هذا الكون تحول هذا المســتحيل وغير المتصور إلى واقع، وانتقلت المادة غير المميزة إلى الحياة وبعد ذلك أصبحت مدركة وبعدها أصبحت متقنة ثم «صارت أنا» (الكلام بصيغة المتكلم).

لكن عندما نعود إلى مثال الطاولة، نجد ببساطة أن ذلك مثير للضحك، فالطاولة لا تمتلــك خصائــص الوعي، وإعطاءها وقت لانهائي لا يمكنها من إكتســاب هذه الخصائــص. حتى إذا قبلنا ببعض الســيناريوهات غير المعقولة عن أصل الحياة، فإنه لابد للمرء أن يتخلى عن عقله حتى يقبل بسيناريو يقول أن الطاولة يمكن أن تنتج تصورات، وعلى المستوى دون الذري Subatomic level ما ينطبق على الطاولة ينطبق على بقية الأشياء.

على مدى الثلاثمائة الســنة الماضية، كشــفت العلــوم التجريبية بما لا يعد ولا يحصــى المزيد من البيانات حول العالم الفيزيائــي أكثر من أي وقت مضى، وهو ما يصعب على أجدادنا تصوره. وهذا يشــمل الفهم الشــامل للشــبكات الوراثية والعصبية التي تكمن وراءها الحياة والوعي والفكر والذات. بل أبعد من ذلك، فهذه الظواهر الأربعة تعمل مع البنية التحتية الفيزيائية بشكل يُمكننا من الفهم بشكل أفضل من أي وقت مضى.

لا يســتطيع العلم أن يخبرنا شــيئاً عن أصــل أو طبيعة الظواهــر في ذاتها. وعلى الرغم من محاولة بعض العلماء تفســير هذه الظواهر على أنها اســتظهار Manifestations للمــادة، فإنــه لا مجال للبرهنة علــى أن فهمي لجملة ما هو إلا انتقال لإشارات عصبية محددة.

من المؤكد أن هناك إشارات عصبية ترافق عملية تفكيري، وقد بين علم الأعصاب الحديث كيف أن مناطق في المخ مسؤولة عن جوانب عقلية معينة. ولكن القول بأن فكــرة معينة هي مجرد إنتقال لإشــارات عصبية هو قول تافه بنفس درجة تفاهة فكــرة أن العدل ما هي إلا حبر على ورق. ولذا فــإن القول بأن الوعي والفكر هو ببساطة مجرد إنتقال مادي Physical transactions هو قول غير متماسك.

نظراً لضيق المســاحة هنا، أقدم نظرة عامة مختصــرة جداً للظواهر الخمس الأساســية التي تمثل أســاس لتجربتنا عن العالم، والتي لا يمكن تفسيرها ضمن إطار «الإلحاد الجديد» New atheism. ويمكن الاطلاع على دراســة أكثر تفصيلا في كتابي المقبل «الحلقة المفقودة».

العقلانية

Rationalism

يســأل دوكنز وأخرين: «مــن خلق الإله؟» من الواضــح أن الموحدين والملحدين يتفقون على شــيئ واحد، وهو أنه إذا كان هناك شــيئ ما موجود فلابد أن هناك من سبقه، وأنه دائم الوجود. ولكن كيف جاءت هذه الحقيقة الأبدية ؟ الجواب هو أنهــا لم تأت مطلقاً، لإنها موجودة على الدوام. أختر أمر من الأمرين، إما الإله أو الكون. لابد من شيئ ما دائم الوجود.

في هــذه النقطة بالذات تبرز الحاجة للعقلانية. خلافاً لاعتراضات الملحدين، فــإن هناك فرقاً جوهرياً بين إدعاء الملحدين والموحدين فيما يخص الكائن الدائم الوجــود. يقول الملحدون أن تفســير وجود الكون هو موجــود منذ الأزل، ولكننا لا نستطيع تفسير الحالة التي جاءت بهذا الكون الدائم إلى الوجود.

هذا الكون عصي على الشرح ويجب أن يُقبل كما هو. يصر الموحدون في المقابل على أن الإله ليس عصياً على التفسير: وجود الإله عصي على فهمنا، ولكنه ليس عصي على الإله.

إن وجــود الإلــه الأبدي لابــد أن له منطقــه الخاص، لأن وجــود العقلانــية في الكــون مشــــروط بــأن يكون هذا الوجود قــائم على أســس عقلانية مطلقة Uultimate rationality.

بعبارة أخرى، الحقائق الفردية Singular facts مثل قدرتنا على معرفة وتفسير الحقيقة، والترابط ما بين الأعمال Workings الموجودة في الطبيعة ووصفنا المجرد لهذه الأعمال Abstract descriptions (ما يسميه عالم الفيزياء يوجين فيغنر Eugene Wigner التاثير المنطقي للرياضيات Reasonable Effectiveness of Mathematics) ودور الرموز في النظام الوراثي والعصبي في المستويات الرئيسية للحياة تتمظهر بإعتبارها الركائز الأساسية للطبيعة العقلانية Nature of rationality.

ما هو المنطق الداخلي الذي لا نستطيع رؤيته رغم أن الأفكار التقليدية تعطي بعض المؤشرات عن طبيعة الإله؟

على سبيل المثال، السيدة اليانور ستمب Eleonore Stump والسيدة نورمان كرتزمان Norman Kretzmann، تناقشان بالقول أنه عندما نفهم بشكل كامل خاصية البساطة المطلقة للإله فإنه يمكننا تبين كيف أن عدم وجود الإله غير ممكن. يشير ألفن بلانتينغا إلى أن الإله يُفهم على أنه الواجب الوجود في كل الأكوان المكنة. يمكن للملحدين أن يردوا على هذا الكلام بطريقتين: أن للعالم منطق داخلي لا نستطيع رؤيته، أو أننا لا نحتاج أن نعتقد بوجود إله له منطقه الخاص في الوجود. في النقطة الأولى سوف يرد الموحدون بالقول أنه لا وجود لكون أكبر من مجموع ما يتكون منه، ونحن نعلم حقيقة أنه لا يوجد شيئ في الكون له منطق داخلي لا نهاية لوجوده.

في النقطة الثانية، يشير الموحدون إلى أن وجود العقلانية -التي نحن على يقين بوجودها - تتروح ما بين قوانين الطبيعة إلى قدرتنا على التفكير العقلاني -ولا يمكن تفسيرها إذا لم يكن لها أساس مطلق Ultimate ground، وهذه العقلانية

ليست ســوى العقل اللانهائي. «الكون عقلاني»، هذا ما لاحظه عالم الرياضيات المشهور كيرت جوديل[1] Kurt Gödel. علاقة العقلانية بالكون تتمثل في أن «نظام الكــون هو إنعكاس لنظام العقل الخارق الذي يحكمــه»[٢]. لا يمكن تجنب حقيقة العقلانية فــي الكون من خلال لجوءنا إلى فكرة الانتخــاب الطبيعي، فالانتخاب الطبيعي Natural selection يفترض وجود كيانات فيزيائية تتفاعل فيما بينها وفقاً لقوانين محددة ورموز تنظم عمليــة الحياة. وعندما نتكلم عن الانتخاب الطبيعي فلابد أن نفترض وجود منطق ما لما يحدث في الكون، بشــرط أن يكون بمقدورنا فهم هذا المنطق.

وبالعودة إلى المثال الســابق لطاولة الرخام، نقــول أن العقلانية الحقيقية التي تقــف خلف تفكيرنا والتي تواجهنا في دراســتنا للكون الدقيق رياضياً لا يمكن أن تكون نشــاءت من الحجارة. الإلــه ليس حقيقة قاهــرة Ultimate brute fact، بل حقيقة عقلانيــة مطلقة في كل جوانب الوجود.

يزعم دانيال دينيت Daniel Dennett بأن «الإله خلق نفســه من العدم، أو على أحسن الأحوال من شيئ لا يمكن تمييزه عن العدم»[٣].

تم عــرض هذه الفكرة بشــكل أكثر وضوحا من جانب ملحــد أخر حديث هو عالم الفيزياء فيكتور شتينجر Victor Stenger، الذي قدم حله لمسألة أصل الكون وقوانين الطبيعة في كتابه «ليس من خلال التصميم: أصل الكون، هل وجد العلم الإله، الكون القابل للفهم والإله: الفرضية الفاشلة»[٤].

(1) Hao Wang, A Logical Journey: From Gödel to Philosophy (Cambridge, MA: MIT Press, 1996), 316.
(2) Palle Yourgrau, A World Without Time: The Forgotten Legacy ofGödel and Einstein (New York: Basic Books, 2005), 104–5.
(3) Daniel Dennett, Breaking the Spell (New York: Viking, 2006), 244.
(4) Not by Design: The Origin of the Universe, Has Science Found God? The Comprehensible Cosmos, and God: The Failed Hypothesis

من بين أمور أخرى، يقدم شتينجر نقداً جديداً لفكرة قوانين الطبيعة وما يترتب عليها. في كتابه «الكــون القابل للإدراك» The Comprehensible Cosmos، يقول شتينجــر أن القوانين لم تتــزل من أعلى، ولا هي عبــارة عن قيود ذاتية Built-in restrictions لســلوك المادة، وإنما هي قيود بالمعنى الذي يمكن لعلماء الفيزياء أن يصيغوا معادلاتهم الرياضية عن المشاهدات الحسية.

موقف شــتينجر مبني على تفسيره لفكرة أساســية في الفيزياء الحديثة وهي التناظــر Symmetry. وفقاً لوجهة النظرة الفيزيائية الحديثة، فإن التناظر هو أي حالة تحول Transformation تحافظ على ثبات قوانين الفيزياء عند تطبيقها على النظام.

تم تطبيــق الفكرة في البداية في المعادلات التفاضلية Differential equations للميكانيكا الكلاسيكية والكهرومغناطيسية ومن ثم تم تطبيقها بطرق جديدة على نظرية النســبية الخاصة ومشاكل ميكانيكا الكم. يقدم شتينجر لقراءه لمحة عامة لهــذه الفكرة القوية، ولكن بعد ذلك ينتهي إلى نتيجتين غير متماســكتين. الأولى هي أن فكرة التماثل تســتبعد فكرة قوانين الطبيعة، والثانية أنه لا شــيئ يمكن أن ينتج شــيئ ما لأنه لا شــيئ مســتقر. من المدهش أن كتاباً صدر بعنوان «التناظر المخيــف» Fearful Symmetry لمؤلفه أنتونــي زي Anthony Zee، وهو معروف في مجال دراسات التناظر يستخدم نفس الحقائق التي يسوقها شتينجر للوصول إلى نتيجة مختلفة:

«لقد لعبت التناظرات دوراً مركزياً بشــكل متزايد في فهمنا لعالم الفيزياء ... علماء الفيزياء الأساســيين يقولون أن التصميم المطلــق Ultimate design يواجه صعوبــات مع التناظرات. الفيزياء المعاصرة لــم تكن ممكنة بدون التناظرات التي

ترشدنا ..... كلما تقدمت الفيزياء إلى الأمام من خلال تجربتنا اليومية، واقتربت من المصمـم المطلـق Ultimate Designer ... لقـد تم تدريب عقولنـا بعيداً عن مراسيها المألوفة ... أُفضل أن أفكر في المصمم المطلق الذي يتم تعريفه من خلال التناظر»[1].

يجـادل شـتينجر أن «لا شـيء» متناظـر تماماً لأنـه لا يوجـد موقع مطلق Absolute position، أو وقت مطلـق، أو سرعة مطلقة، أو تسارع مطلق في الفراغ Acceleration in the void.

ورداً على سؤال «من أين جاء التناظر؟» يقول شتينجر إنها التماثلات في الفراغ Symmetries of the void، لأن قوانـين الفيزيـاء هي مجرد ما يتوقعونه إذا جاءت من لا شيئ».

مغالطة شـتينجر الاساسـية مغالطة قديمة، وتتمثل في خطـأ النظر إلى «لا شيئ» على أنه شيئ ما.

علـى مدى قرون من البحث في مفهـوم «العدم» Concept of nothing، حرص المفكـرون على التأكيد على أن مصطلح «العدم» لا يعني «شـيئاً ما». العدم المطلق يعنـي أن لا وجـود لقوانين، لا فـراغ، لا طاقة، لا هيكل، لا وجـود لكيانات مادية أو عقليـة مـن أي نوع، ولا وجـود لتناظرات، وليس هناك خصائـص أو قابليات Potentialities. العـدم المطلق لا يمكن أن ينتج شـيئاً ما في وقت لا نهائي- وفي الحقيقة لا يمكن أن يوجد زمان في العدم المطلق. ولكن ماذا عن الفكرة الرئيسية لكتاب شـتينجر «الفرضية الفاشلة» والتي تذهب إلى أن ظهور الكون من العدم لا يخالف قوانين الفيزياء لأن الطاقة الصافية net energy للكون صفر؟

---

(1) Anthony Zee, Fearful Symmetry (New York: Macmillan, 1986),280–81.

طرحت هذه الفكرة لأول مرة من قبل الفيزيائي إدوارد تريون Edward Tryon، الذي بين أن الطاقة الصافية للكون هي صفر تقريباً، وبالتالي لا يوجد تناقض في القــول أنها جاءت من العدم لأنها عــدم. إذا أضفت طاقة الجاذبية الأرضية التي هي ســالبة إلى بقية كتلة الكون وهي موجبة فإن الناتج سوف يكون صفراً تقريباً. وعندها لا توجد حاجة لطاقة تصنع الكون، ولذلك لا حاجة لخالق.

بخصــوص هذا الإدعــاءات وأمثالــها، أشــار الفيلســوف الملحــد سمــارت J. J. C. Smart إلى أن فرضية وجود كون بطاقة صافية تســاوي الصفر لا تجيب على الســؤال لماذا لابد أن يكون هناك شــيئ ما من الأســاس. لاحظ سمارت أن الفرضيــة وصياغاتها الحديثة تفترض وجود منظومــة الزمان والمكان[1]، والحقل الكمي The Quantum Field، وقوانين الطبيعة، وبالتالي فهي لا تجيب على السؤال لماذا توجد الأشــياء، كما لا تجيب على سؤال عما إذا كان هناك سبب غير زماني للكون الزمكاني. الواضح من هذا التحليل، أن شتينجر ترك أثنين من الأسئلة دون إجابة، وهما: لماذا توجد بعض الأشــياء وليس عدم مطلق؟ ولماذا تتوافق الأشــياء الموجودة مع التناظرات أو تُكون هياكل Structures معقدة؟

عرض زي Zee حقائق التناظر نفســها التي أعتمد عليها شتينجر للوصول إلى نتيجة مفادها أن عقل المصمم المطلق هو مصدر التناظر، وأن قوانين الطبيعة في الوقع تعكس التناظر الكامن في الطبيعة، والتناظر وليس قوانين الطبيعة هو الذي يشير إلى عقلانية وذكاء الأكوان- وهي العقلانية المتجذرة في عقل الإله.

(1) J. J. C. Smart and John Haldane, Atheism and Theism (Great Debates in Philosophy) (Oxford: Blackwell, 2003), 228 ff.

الحيـــاة

Life

الظاهرة الأخرى التي نريد مناقشتها هنا هي الحياة. وفقاً لرؤية توني فلو بشأن المـــادة في هذا الكتاب، لا حاجة لقـــول المزيد حول أصل الحياة. يجب لفت النظر إلى أن النقاش الحالي حول هذا الســـؤال لا يبدو أنه يتناول القضايا الاساســـية. هناك أربعة جوانب للكائنات الحية. هذه الكائنات فاعلة Agents، وتســـعى لهدف Goal seekers، وهـــي ذاتية التكاثر، وذات طبيعة ســـيميائية (وجودها يعتمد على التفاعـــل بين الرموز والكيمياء) . كل كائن حي أمـــا فاعل أو له قدرة على الفعل. وكل وجـــود هو المصدر الموحد Unified source لكل أفعاله. بما أن هؤلاء الفاعلين قادرون على البقاء والعمل بشـــكل مستقل، فإن أعمالهم موجهة نحو أهداف بنحو ما، وهم يســـتطيعون التكاثر، وبالتالي فهم كائنات هادفـــة Goal-seeking وذاتية التكاثر. أشـــار هوارد باتي Howard H. Pattee إلى أنه يوجد تفاعل بين العمليات السيميائية (الرموز، اللغات، المعلومات، التحكم) مع الأنظمة الفيزيائية (القوانين، الدينامية، الطاقة، القوى والمادة)[1].

(1) Howard H. Pattee, “The Physics of Symbols: Bridging the Epistemic Cut,” Biosystems 60 (2001): 5–21.

مــن بين الكتب التــي نراجعها في هذا الموضوع، فقــط ديكونز هو الذي تناول السـؤال عن أصل الحياة. يقــول ولبيرت Wolpert، وهو أحــد البارزين في هذا الحقل «لا نقول بأن كل الأســئلة العلمية المتعلقة بالتطور قد تم حلها. على العكس مــن ذلك فإن أصل الحياة بحــد ذاته وتطور الخلية الذرية التــي نتجت منها كل الكائنــات الحية لازالت غير مفهومة»[1]. في أعماله الســابقة، يأخذ دينيت بعض المواقف المادية أخذ المســلمات. لســوء الحظ فإن وجهة نظر دوكنز لم تكن كافية حتى على المســتوى الفيزيائي- الكيميائي، بل هي أســوء، ولكنه يتسائل [2] «كيف بدأت الحياة؟ أصل الحياة حدث كيميائي أو سلســلة من الأحداث، حيث تم توفير الشــروط الضرورية للانتخاب الطبيعي .... عندما تتوفر المكونات فإن الانتخاب الطبيعــي الدارويني يأتي كنتيجة. كيف حدث ذلك؟ أبتكر العلماء ســحر الأرقام الكبيرة. الجميل في المبدأ الانثروبولجي أنه يقول لنا على عكس حدسنا، يقول بأن هذا النموذج الكيميائي لا يحتاج سوى إلى توقع أن الحياة سوف تبرز على الكوكب بالمليارات لتعطينا تفسيراً كاملاً ومرضياً للحياةً [3].

بنــاءاً على هذا النــوع من التفكيــر المنطقي والذي يمكن وصفــه بأنه تمرين جريئ للخرافة، فإن كل شــيئ نرغب بوجوده ينبغي أن يوجد، فقط إذا استدعينا الأرقــام الكبيرة. الحيوانــات وحيدة القرن يجب أن توجــد على عكس الحدس. النموذج الكيميائي هو المتطلب الوحيد الذي تحتاجه لتوقع ما يحدث على الكوكب بالمليارات.

(1) Lewis Wolpert, Six Impossible Things Before Breakfast (London:Faber and Faber, 2006), 212–13.
(2) Richard Dawkins, The God Delusion (London: Bantam, 2006), 137.
(3) Dawkins, The God Delusion, 137–38.

الوعـي

Consciosness

لحسن الحظ أن الوضع ليس سيئاً في دراسات الوعي على عكس ما هو موجود في المجالين السـابقين. هناك فـي الوقت الحالي وعي متزايـد بمفهوم الوعي. نحـن واعـون، ونحن نعي أننا واعون. لا أحد يمكـن أن ينكر ذلك دون الوقوع في التناقض الذاتي، وإن كان البعض يصر على ذلك. المشـكلة تصبح غير قابلة للحل عندما ندرك طبيعة الخلايا العصبية. كبداية، الخلايا العصبية لا تشـابه حياتنا الواعية. الأمر الثاني، وهو أكثر أهمية، أن خصائص الخلايا العصبية من الناحية الفيزيائية لا توفر بأي حال من الأحوال سبباً للاعتقاد بأن بإمكانها، أو أنها سوف تنتج وعياً. يرتبط الوعي ببعض مناطق الدماغ، ولكن عندما توجد أنظمة الخلايا العصبية المكونة من نيرونات في جذع الدماغ فإنها لا تنتج وعياً.

في الواقع، كما أشار العالم الفيزيائي جيرالد شرويدر Gerald Schroeder، إنه لا يوجد هناك فرق جوهري من الناحية المادية بين كومة من الرمل وعقل آينشتين. فقط الإيمان الأعمى الذي لا أساس له بالمادة، يقف وراء الإدعاء بأن جزيئات Bits المادة تسـتطيع إيجاد حقيقة جديدة لا تشبه المادة. رغم أن التيار العام لدراسات

الجسد–العقل اليوم يعترف بحقيقة الوعي وما يستتبعه من غموض، إلا أن دانيال دنييت Daniel Dennett أحد القلة من الفلاسفة الذين لايزالون يتهربون مما هو واضح. يقول دينيت بأن السؤال عما إذا كان هناك بعض الأشياء واعية سؤال غير قابل للإجابة، ويؤكد على أنه يمكن للمكائن أن تكون واعية لأننا مكائن واعية.

الوظيفية [١] Functionalism هي «تفسير» دينيت للوعي. يقول دينيت إننا لا ينبغي أن نكون قلقين مما يصطلح على تسميته بالظاهرة العقلية. بدلاً من ذلك، ينبغي لنا أن نتحقق من العمليات التي تقوم بها هذه الظاهرة. الألم هو الشيء الذي يخلق رد فعل التفادي Avoidance reaction؛ والفكر هو تمرين على حل المشكلة. لا يجب أن يُنظر للوعي باعتباره حدثاً خاصاً وقع في وقت خاص، كما سبق مع بقية الظواهر العقلية. أن تكون واعياً يعني أن تقوم بهذه العمليات. ولأن هذه العمليات يمكن تكرارها من خلال أنظمة غير حية (مثال: كمبيوتر يحل مسائل) فإنه ليس هناك أي غموض بخصوص الوعي، وبالتالي ليس هناك أي سبب موجب للذهاب لما هو غير فيزيائي.

ما أغفلته وجهة نظر دينيت، هو أن كل الأفعال العقلية تقترن بحالات وعي Conscious states، وهي الحالات التي نكون فيها على وعي بما نقوم به. لا تستطيع الوظيفية بأي حال من الأحوال تفسير أو الزعم بالقدرة على تفسير الحالات التي نكون فيها مدركين وواعين، فنحن نعرف ما نفكر فيه (الكمبيوتر لا يعرف ما يقوم به). حتى الآن، لا تقول لنا الوظيفية شيئ عمن هو المدرك، من هو الواعي، ومن هو الذي يفكر. يقول دينيت بطريقة تثير التعجب إن فلسفته تقوم على فكرة

---

(١) نظرية في فلسفة الذهن تقوم فكرتها الأساسية على أن الحالات الذهنية تتقوم بدورها الوظيفي فحسب.

«الشخص الثالث المطلق»[١] Third-person absolutism، وهو ما يجعله في موقف الجزم «أنا لا أؤمن بأنا» I do not believe in I“.

ومن المثير للاهتمام، أن بعض أقوى منتقدي دينيت والوظيفية هم في ذاتهم علماء فيزياء من أمثال ديفيد بابينو David Papineau، وجون سيرل John Searle وغيرهم. جون سيرل بالخصوص حاد في نقده لهذه النظرية، حيث يقول «إذا كنت تميل إلى الوظيفية، فأعتقد أنك لست بحاجة إلى تفنيد، وإنما أنت بحاجة الى مساعدة»[٢]. على النقيض من دنييت، دافع سام هاريس Sam Harris بقوة عن الطبيعة غير المادية للوعي بقوله «المشكلة ليست متعلقة بالمخ الذي عندما نستكشفه فإنه يُظهر المخ على أنه حامل للبعد الداخلي Interior dimension الذي يعيش فيه كل واحد منا، أي الوعي بطريقته الخاصة. حسب قول هاريس، «الوعي ظاهرة أكثر بدائية من الكائنات الحية وأمخاخها، ولا يبدو أن هناك طريقاً واضحاً لاستبعاد هذه الأطروحة بطريقة تجريبية»[٣].

يُحسب لديكونز أنه أعترف بأن حقيقة كل من الوعي واللغة تطرح مشكلة محيرة «لا أنا ولا ستيف بنكر Steve Pinker نستطيع تفسير الوعي الإنساني الشخصي Consciousness Human Subjective وهو ما يسميه الفلاسفة الوعي الشخصي Qualia. في كتابه «كيف يعمل العقل»، يعرض ستيف لمشكلة الوعي الشخصي، ويطرح السؤال: من أين جاء الوعي الشخصي، وما هو تفسيره»، وكان دوكنز نزيهاً بالقول « علّي أن أكون نزيها وأصرح بأننا لا نعرف الجواب، وأننا لا نفهم تفسيراً لذلك»[٤].

---

(١) القبول بفكرة وجود كيانات لا هي مادية ولا هي معنوية.

(2) John Searle, The Rediscovery of the Mind (Cambridge, MA: MITPress, 1992), 9.

(3) Sam Harris, The End of Faith (New York: Norton, 2004), 208–9.

(4) Richard Dawkins and Steven Pinker, “Is Science Killing the Soul?” The Guardian-Dillons Debate, Edge 53 (April 8, 1999).

يتجنب ولبرت عمداً مســـألة الوعي برمتها قائلاً «لقد تجنبت بشكل متعمد أي نقاش حول الوعي»[1].

(1) Wolpert, Six Impossible Things Before Breakfast, 78.

الفكر

Thought

مـــا وراء الوعـــي Beyond consciousness، هناك ظاهـــرة الفكر والفهم ورؤية المعنى. كل اســـتخدام للغة يكشـــف ترتيباً ذكياً فطرياً للوجود. تقف وراء عمليات التواصل -واســـتخدام اللغة وهما أســـاس لعملية التفكير لدينا- قوة خارقة، قوة تعرف الاختلافات والتشـــابهات differences and similarities والتعميم والشمول Universalizing وهو ما يسميه الفلاسفة تصورات Concepts وكليات Universals وما شابهها. الفكر عبارة عن قوة معروفة للبشر، وهي قوة مميزة وفريدة من نوعها. كيـــف يمكنك منذ بداية طفولتك أن تميز دون جهد بين كلبك قيصر Caesar وبين بقية الكلاب. أنت تســـتطيع أن تتصور اللون الأحمـــر دون أن تتصور بالخصوص شـــيئ لونه أحمـــر (بالتأكيد أن اللون الأحمـــر لا يوجد بذاته وإنما في الأشـــياء الحمراء). أنت تُجرد Abstract وتميـــز Distinguish وتوحد Unify دون أن يأخذ الأمر من تفكيرك لحظة واحدة. هذه القوة التي تفكر بالتصورات بطبيعتها تتعالى Transcends فوق المادة.

إذا كان هنـــاك من يعترض على ذلك فمن باب الإتســـاق يجب عليه أن يتوقف عن الكلام والتفكير. في كل وقت يســـتخدم هؤلاء اللغة فإنهم يؤكدون على الدور

الواســع للمعنى، والتصــورات، والنوايا والمنطق في حياتنـــا. ولذلك فإن من غير العقلانـــي الحديث عن قدرة مشــابهة لدى المادة (ليس هناك عضو في الجســد يمـــارس التفكير)، ولكن بالتأكيد البيانات التي تأتـــي من الحواس كمواد خام يتم توظيفهـــا في عمليـــة التفكير. بمجرد أن تتأمل في هذا الأمر لعدة دقائق ســوف تعـــرف على الفـــور أن الفكرة التي تقول بأن تفكيرك بشـــيئ مـــا هو مجرد عمل فيزيائي تبدو فكرة سخيفة ولا تستحق التفكير فيها.

لنقـــل أنك تخطط للقيام بنزهة مـــع عائلتك وأصدقائك، حينها ســـوف تفكر في الأماكن المناســـبة لقضـــاء النزهة فيها، وتفكر في الأشـــخاص الذين تريد أن تدعوهم، والأغراض التي تريد أن تحضرها معك، والسيارة التي سوف تستخدمها وبقيـــة الأمور. هل إفتراض أن التفكير بأي نحو بهذه الأمور هو عمل فيزيائي يُعد افتراضاً متماسكاً؟

النقطة المهمة هنا هي أن مخك لا يفهم، وإنما أنت الذي تفهم، فعقلك يساعدك على الفهم ولكن ليس لأن أفكارك تحدث في المخ، ولا لأنك ســـبب حركة الخلايا العصبية. تصرفك على أساس أن فهمك بأن التخلص من الفقر شيئ جيد عبارة عن عمليـــة كلية Holistic لها جانبان، فهي عملية غير فيزيائية في جوهرها (كمعنى)، وهـــي عملية فيزيائية فـــي التنفيذ (الكلمات والخلايـــا العصبية). لا يمكن فصل الفعـــل Act إلى فيزيائي وغير فيزيائي، لأنه فعل غير قابل للقســـمة، فهو مركب Structure من الإثنين معاً: الفيزيائي وغير الفيزيائي، ولكن تزاوجهما كامل، بحيث أنه ليس من المنطقي الســـؤال عما إذا كانـــت الأفعال فيزيائية أو غير فيزيائية أو مزيج منهما. الأفعال كما هو الحال مع الشخص المكون من المادي والروحي.

تنشـــأ الكثير من التصورات الخاطئة عن طبيعة الفكر من التصورات الخاطئة حول أجهزة الكمبيوتـــر. ولكن دعونا نفترض أننا نتتعامل مع كمبيوتر عملاق مثل كمبيوتر الجـــين الأزرق The Blue Gene، والذي يســتطيع القيام بأكثر من مائتي تريليون عملية حسابية في الثانية الواحدة. خطأنا الأول أن نفترض أن الكمبيوتر العملاق مثل النحلة أو البكتيريا. نحن نتعامل في حالة النحلة أو البكتيريا مع فاعل هو المركز في عملية عضوية موحدة. هدف كل نشاطات هذا الفاعل الحفاظ على وجـــوده بالتكاثر. أما «الجين الأزرق» فهو عبارة عن قطع تقوم مجتمعة أو منفردة بعمليات مزروعة Implanted وموجهة Directed من خالق هذا التجميع.

ثانياً، الكمبيوتر عبارة عن حزمة من الأجزاء التي لا تعرف ما تفعل عندما تقوم بمعالجة ما Performs a transaction. تتم العمليات التي يقوم بها الكمبيوتر العملاق إســتجابة لبيانات وأوامر هي مجرد إشـــارات إلكترونية صرفـــة ودوائر كهربائية وموصلات. يقوم الإنســـان بنفس العمليات والمعالجات هذه، ولكن باستخدام آلية خاصة بالمخ، وهي تتم من خلال مركز الإدراك الذي هو على وعي بما يقوم به وهو يفهم ما تم إنجازه، وهو يؤدي كل ذلك عن قصد. ولكن لا يوجد لا فهم، ولا إدراك، ولا معنى، ولا قصد ولا شخص يقوم بذلك عندما يقوم الكمبيوتر بالأفعال نفسها، حتى لو أفترضنا أن الكمبيـوتر يمتلـك معالجـات متعددة Multiple processors تعالج البيانات بســرعات بشــرية. مخرجات الكمبيوتر تعني لنا شــيئاً (توقعات الطقس أو حســابك المصرفي)، ولكن من زاوية حزمة القطع التي تُسمى كمبيوتر فإن الأرقام الثنائية: Binary digits الصفر والواحد تؤدي إلى نشاطات ميكانيكية. القول بأن الكمبيوتر يفهم ما يقوم به، هو مشابه للقول بأن خط الكهرباء يمكن أن

يفكر في مسألة الإرادة الحرة والحتمية، أو أن المواد الكيميائية في أنبوب الاختبار تُطبق مبدأ عدم التناقض Principle of noncontradiction في حل المسائل، أو أن مشغل الأقراص DVD Player يستمتع بالموسيقى التي يعزفها.

النفس

The Self

من أهم المفارقات التي وقع فيها الملحدون الجدد قولهم أن الحقيقة الفيزيائية – غير الفيزيائية Supraphysical/physical reality الأساسية التي نعرفها من خلال التجربة هي ذاتها الشخص الذي يعيش التجربة، وهي نحن. بمجرد أن ندرك حقيقة الكائن الأول First-person الذي يتكلم بصيغة «أنا»، وندرك صيغ المتكلم الأخرى، فإننا نواجه أعظم لغز ككل وهو «أنا موجود» إذاً أنا أفكر وأشعر وأعتزم وأقصد وأتفاعل. من هو «أنا»، وأين هو، وكيف أتى إلى الوجود؟ من الواضح أن ذاتك ليست شيئاً فيزيائياً، ولكنها ليس غير فيزيائية كذلك، وإنما هي بدن مادي ومحتوى روحي، فأنت لست موجوداً في خلية معينة في المخ أو جزء من أجزاء البدن. خلايا بدنك تتغير باستمرار، ومع ذلك فأنت تظل كما أنت. عندما تدرس خلاياك العصبية فستكتشف أن أياً منها لا يملك خاصية أن تكون «أنا». بالطبع، جسدك جزء مكمل، ولكنه يظل بدن لأنه مركب من أعضاء فيزيائية. أن تكون إنساناً هو أن تكون جسداً وروحاً.

في المقطع الشهير في كتابه «مقال في الطبيعة البشرية»[1]، يعلن هيوم «أنه

(1) A Treatise of Human Nature

عندما كنت أدخل بعمق فيما أسميه «نفسي» .... لم أكن قادراً قط على أن أدرك نفســـي دون إحســـاس، ولم أكن قادراً على مراقبة أي شيئ سوى الإحساس». في هـــذا المقطع ينكر هيوم وجود النفس، ببســـاطة لأنه كما يقول «لم يجد نفســـه». ولكـــن ما الذي يوحد Unifies خبراته المتعددة، ما الـــذي يجعله يعي وجود العالم الخارجـــي، وأن يظل كما هو خلال هذه العملية؟ يفترض هيوم أن «ذاتي» Myself هي حالة قابلة للمشـــاهدة Observable state مثل تفكيره ومشاعره، ولكن النفس ليســـت شيئاً يمكن مشـــاهدته. إنها حقيقة ثابتة للتجربة Experience، والتي هي فوق الواقع، وأساس لكل التجارب.

فـــي الواقع، من بين كل الحقائق التي يمكـــن أن نتعرف عليها، فإن النفس هي الأكثـــر وضوحا، ولا يمكن إنكارها، وفي الوقت نفســـه هي الأكثر غموضاً لجميع الكيانـــات «الفيزيائيـــة» Physicalism. وفي البداية،لابد مـــن القول بأنه لا يمكن إدعاء عدم وجود النفس من دون الوقوع في التناقض. الجواب على السؤال «كيف أعرف أنني موجود» هو برد الســـؤال بســـؤال أخر «ومن هو السائل؟». النفس هي ما نحن عليه، وليس ما لدينا.

إنهـــا «أنا» التي تنبثـــق من منظور المتكلـــم First-person perspective. نحن لا نستطيع أن نحلل النفس لأنها ليست حالة عقلية Mental state يمكن ملاحظتها أو وصفها. الحقيقة الأساسية القصوى التي نعيها هي النفس البشرية، وفهم النفس يلقي حتماً بأثره على بقية الأســـئلة الأساســـية ويعطينا إنطباعاً ما عن الحقيقة ككل. نحن ندرك أن النفس لا يمكن وصفها، ومن حيث الكيمياء أو الفيزياء: العلم لا يكتشف النفس، النفس هي التي تكتشف العلم. نحن ندرك أن الموقف من تاريخ الكون لن يكون متماسكاً إذا لم يكن الموقف Account من النفس متماسكاً.

الأصل اللاامادي

The Origin Of The Supraphysical

كيف حدثت الحياة؟ كيف وجد الفكر والنفس؟ يبين تاريخ العالم الظهور المفاجئ لهــذه الظواهر، فالحياة ظهرت مباشــرة بعد أن برد كوكــب الأرض، وبرز الوعي بغموض في الإنفجار الكمبري[1] Cambrian explosion، وظهرت اللغة من «الرموز النوعيــة» [2] Symbolic species دون تطور مســبق. نطاق الظاهرة محل النقاش يبدأ مع الشفرة Code، ونظم معالجة الرموز، والقصد Goal-seeking، والفاعلين الواعــين، هذه الأمور في الطرف الأول في مقابل الوعي الذاتي والفكر التصوري Conceptual thought والنفس البشرية، في الطرف الأخر.

الأمر المتماســك الوحيد بالنســبة لهذه الظواهر هو أن لها أبعاداً مختلفة من الوجــود، وأنها ذات طبيعة غير فيزيائية بطريقة أو بأخرى. تتكامل هذه الظواهر مــع مــا هو مادي ولكــن بصورة «جديدة» بشــكل جذري. نحــن لا نتكلم هنا عن «أشباح في الآلة»[3] Ghosts in machines، بل نتكلم عن فاعلين من أنواع مختلفة،

(١) ظهور مفاجيء جيلولوجي لمستحدثات أسلاف الحيوانات المألوفة ضمن السجل الأحفوري الأرضي.

(٢) إشــارة إلى كتاب تيرنس ديكون Terremce Deacon يجمع وجهات نظر من الأحياء العصبية ونظرية التطور والسميئيات.

(٣) مصطلح أبتكره غلبرت رايل للتعبير عن ثنائية العلاقة بين المادي والمعنوي.

بعضها واعي، والبعض الأخر واعي ويفكر. وفي كل حالة لا توجد ثنائية Dualism أو حيوية Vitalism، ولكن مجموع من التكامل Integration that is total، كلية Holism تتضمن ما هو فيزيائي وما هو معنوي.

على الرغم من أن الملحدين الجدد فشلوا في إستيعاب طبيعة مصدر الحياة والوعي والفكر والنفس فإن السؤال عن أصل غير فيزيائي يبدو واضحاً: لابد أن الأصل غير الفيزيائي نشأ من مصدر غير فيزيائي. لابد أن الحياة والوعي والنفس نشاؤا من مصدر حي وواعي ويفكر. إذا كنتُ في مركز الوعي والفكر الذي يمكنه أن يحب ويعتزم وينفذ فإنني لا أفهم كيف أن مراكز هذه النشاطات أتت من شيئ ما غير قادر على مثل هذه النشاطات.

على الرغم من أن العمليات الفيزيائية البسيطة يمكن أن تخلق ظواهر فيزيائية معقدة، فإننا لسنا بصدد العلاقة بين الظواهر البسيطة والمعقدة، ولكن نحن بصدد أصل المراكز. ببساطة، إن من غير المعقول أن أي مصفوفة مادية Material array يمكن أن تنتج فاعلين يفكرون ويفعلون. المادة لا يمكن أن تنتج إدراكات أو إحساسات. حقل القوة A force field لا يفكر أو يخطط. إذاً على المستوى المنطقي وعلى مستوى التجربة اليومية، نصبح على وعي مباشر بأن عالم الموجودات الحية والواعية والمفكرة أساسه مصدر حي هو العقل.

الملحق الثاني

الوحي الذاتي للإله
في التاريخ البشري

THE SELF-REVELATION OF GOD IN HUMAN HISTORY



نقاش حول المسيح مع رايت

أنتوني فلو: أسئلة عن الوحي الإلهي

حتى الآن ناقشت المعلومات التي قادتني للقبول بوجود العقل الإلهي. اولئك الذين يسمعون هذه الحجج حتماً سيتسألون عن رأيي بخصوص إدعاءات الوحي الإلهي. في كل كتبي ضد الإلوهية ومناظراتي المتعددة وقفت موقفاً مؤيداً لإدعاءات الوحي الإلهي أو التدخل الإلهي. موقفي الحالي هو أكثر إنفتاحاً تجاه هذه الإدعاءات. في الواقع، أنا أعتقد أن الدين المسـيحي يستحق بكل وضوح الإحترام والتقدير بغض النظر عما إذا كان موقفه من الوحي الإلهي صحيحاً.

ليس هناك أي دين يمتلك مزيجاً من شـخصية لها جاذبية مثل جاذبية السـيد المسـيح ومفكر من الطراز الأول مثل القديس بولس St. Paul. تقريباً، كل الحجج المتعلقة بالمحتـوى الديني تمت صياغتها من قبل القديس بولس، الذي كان يمتلك عقلاً فلسـفياً ذكيـاً، وكان بمقدوره التحـدث والكتابة بكل اللغـات ذات العلاقة بالمحتـوى الديني. إذا كنـت تريد من الإله المقتدر أن يصنع لـك ديناً، فإن الدين المسيحي هو ذلك الدين.

ناقشـت في الطبعات الأولى من كتاب «الإله والفلسـفة» الإدعاءات المسيحية إلى حد ما، وذهبت إلى أن التقدم الهائل الذي أُحرز في الدراسات النقدية للعهد الجديد وغيرها من المصادر لتاريخ نشـأة المسيحية لا يدع لأولئك الذين يقدمون

إدعاءات واسـعة وكبيرة مجالاً للاختباء. ثانيـاً، أنه لا يمكن معرفة المعجزات من خلال دليل تاريخي، وهذا يخل بمصداقية الإدعاء بأن قيامة المسيح يمكن معرفتها باعتبارها حقيقة تاريخية.

في مناظراتي المختلفة عن عودة المسيح، قدمت نقاطاً إضافية. النقطة الأولى، هي أن الوثائق التي تؤرخ للحدث المُدعى كُتبت قبل ثلاثين أو أربعين سنة بعد ذلك الحـدث. ليس هناك دلائل معاصرة، وإنما مجـرد وثائق كُتبت بعد وقوع الحدث. النقطة الثانية، هي أننا لا نملك وسيلة للتحقق من أن المسيح العائد هو نفسه الذي ظهـر للمجموعات التي أدعت رؤيته، لأن ما عندنـا من وثائق يقول فقط أن هذا الحدث غير الإعتيادي قد وقع بالفعل. والنقطة الأخيرة هي إن الدلائل على عودة المسيح محدودة جداً. في الواقع أن وثائق العهد الجديد New Testment عن عودة المسيح كانت رسائل القديس بولس، ولم تكن نصوصاً إنجيلية Gospels، وفي هذه الوثائق هناك القليل جداً من التفاصيل الحسية على عودة المسيح.

اليـوم أقول بأن التحدي المتعلق بفكرة عودة المسـيح أكثر تاثيراً من أي تحدي دينـي أخر. لا أزال أعتقد بأنه عندما ينظـر علماء التاريخ بطريقة إحترافية إلى دلائل عودة المسـيح فإنهم يحتاجون إلى أكثر بكثير مما هو متوفر، فهم يحتاجون إلـى دلائل من أنواع مختلفة. أعتقد أن الإدعاء بأن الإله تجسـد في المسـيح هو إدعـاء فريـد من نوعه، ولا أعرف كيف يمكن الحكم على ذلك سـوى بالإيمان أو عـدم الإيمـان بصحته. لا أرى أيـة مبادئ عامة يمكن أن ترشـدنا إلى ذلك. في سياق منظوري الفكري الجديد، شاركت في نقاش عن المسيح مع الفقيه التاريخي المعروف الأسقف رايت Bishop N. T. Wright أسقف دورهام، والباحث في العهد الجديد، وفيما يلي ردوده على بعض المواضيع التي طرحتها في كتاباتي.

رد نيكولاس توماس رايت

N. T. Wright: Response

لا أعرف من أين أبدأ، فالدلائل على وجود المسيح كثيرة جداً، بحيث أنني كعالم تاريخ أجد أن لدينا دلائل كثيرة على المسيح أكثر من أي شخص في العالم القديم. من الواضح أن هناك بعض شخصيات من العالم القديم لدينا لها تماثيل ونقوش. مــن ناحية أخرى، لدينا أيضاً تماثيل للآلهة والإلهات في العالم القديم جداً، ومع ذلــك لا يمكنك أن تكــون متأكداً من وجود هذه الشــخصيات. ولكن فيما يخص المســيح فإن كل الدلائل تشير بشكل قاطع إلى وجود هذه الشخصية العظيمة في العشرينات إلى الثلاثينات من القرن الأول، والأدلة تتسق مع ما نعرفه عن اليهودية فــي تلك الحقبة (على الرغم من أن الكثير منه كُتب لاحقاً) بحيث أنه من الصعب على أي باحث تاريخي -لا أعلم أي باحث تاريخي- أن يشــك في وجود المســيح. ربما يكون هناك شخص أو شخصين. هناك رجل أسمه ويلس Wells هو الوحيد الذي شكك في ذلك حديثاً. من وقت لأخر تجد شخص مثل اليغرو J. M. Allegro الذي كتب قبل جيل من الآن كتاباً إســتناداً إلى مخطوطات البحر الميت، واستنتج أن المسيحية ليست سوى عبادة الفطير المقدس[1].

(١) المقصود بالفطير المقدس ذلك الفطير الممزوج بدم بشــري من دم (الجوييم) أي الغرباء، وخلطه بالدقيق الذي تعد منه فطائر عيد الفصح. وقد سَرت هذه العادة المتوحشة إلى اليهود عن طريق كتبهم المقدسة.

لا يوجد عالم يهودي أو مســيحي أو لاأدري Agnostic على الإطلاق أخذ هذا الكلام على محمل الجد. من الواضح جداً أن المســيح شــخصية موثقة جداً في التاريخ الحقيقي، ولذلك لابد لهذا السؤال أن يُنحى جانباً.

ما هي الأسس للإدعاء من خلال النصوص بأن الإله تجسد في المسيح؟

إيماني بالمسيح كأبن الإله المتجسد لا يستند إلى النصوص الواردة في الإنجيل التي تزعم ذلك، بل إن إيماني بذلك أعمق من ذلك بكثير، بل يعود إلى سؤال مهم جــداً حول كيف فهم يهود القرن الأول وجود الإلــه، وفعل الإله في العالم، وحتماً أن ذلك يعود إلى المزامير(١)، وإلى أشــعيا (٢)، وإلى سفر التثنية(٣) وسفر التكوين(٤) وهلم جرا. ونســتطيع أن نرى كيف أن التراث اليهودي من أيام المســيح فسر هذه النصــوص. لقد تكلموا عن الإلــه الذي صنع الكون، وهو أيضاً إله إســرائيل (٥)، ويتكلمــون عن هذا الإله على أنــه مؤثر في العالم، وموجود ويفعل أمور في العالم وداخل إســرائيل، ويتحدثون عن ذلك بخمســة طرق (لا علاقة لذلك بطرق توما الأكويني الخمسة(٦)).

(١) المزامير أو مزامير داود هي تسابيح لله، وأناشيد حمد وسجود وتمجيد له، وقد جاءت المزامير في الكتاب المقدس في عدة أماكن،

(٢) يعتبر الكاتب لسفر أشعيا في العهد القديم من الكتاب المقدس.

(٣) ســفر التثنية أو سفر تثنية الاشتراع (بالعبرية: דברים) أحد الأسفار المقدســة في الكتاب المقدس لدى الديانة اليهودية والعهد القديم في المســيحية؛ ولا خلاف بين مختلف طوائف الديانة اليهودية والمسيحية حول قدسيته

(٤) ســفر التكوين هو أول أســفار التوراة (أسفار موسى الخمسة) وأول أســفار التناخ، وهو جزء من التوراة العبرية، كما أنه أول أسفار العهد القديم لدى المسيحيين

(٥) في التوراة وفي التراث اليهودي يعتبر اســم «إســرائيل» اســم بديل ليعقوب، وتظهر قصة تسمية يعقوب بإسرائيل في سفر التكوين

(٦) خمس حجج قدمها القديس توما الإكويني للبرهنة على وجود الله

يتحدثــون عن كلمة الإلــه: لقد تكلم وكفى، لقد قال الإلــه «ليكن نور» فأصبح هناك نور. كلمة الإله حية وفاعلة، وفي ســفر أشــعيا لدينا صورة قوية جداً عن كلمــة تنزل من الأعلى كالمطر أو كالثلوج وتفعل أشــياءاً في هذا العالم. يتحدثون عــن حكمة الإله، ونحن نرى ذلك في الأمثال بشــكل خاص، وفي عدة روايات في الإنجيل كذلك. الحكمة تصبح نوعاً من التجســيد لذات الإله الثانية. حكمة الإله فاعلة في العالم، وتتواجد في إسرائيل، وهي تقوم بأعمال تساعد الناس أنفسهم حتى يعرفوا كيف يصبحوا حكماء.

يتحدثــون عن مجــد الإله الحاضر في المعبــد. علينا أن لا ننســى بأن المعبد بالنســبة لليهود في القرن الأول، كان رمزاً للتجسيد وهم يؤمنون بأن خالق الكون وعد بالعودة، وأن يكون مســكنه في المعبد بالقرب مــن الطريق إلى القدس. قبل أن تذهــب بالفعل إلى القدس وتفكر في هذا الأمر فإنك لن تدرك ذلك، وهو أمر غير عادي على الإطلاق. ويتحدثون عن قانون الإله الكامل الذي ينعش الروح (كما فــي المزمور ١٩). القانون مثل الحكمة، ليس مجرد قانون مكتوب. إنه قوة وجودية موجــودة وحاضــرة عندما أراد الإله أن يُظهر ذاته. ثــم، أخيرا يتحدثون عن روح الإله، الروح التي تُسرع إلى شمشون[١] في سفر القضاة [٢].

روح الإله التي تمكن الأنبياء أن يصبحوا أنبياء. روح الإله التي تســكن البشــر حتى يتمكنوا من القيام الاستثنائي بتمجيد الإله.

---

(١) شمشــون بن منوح الدني (بالعبرية: שִׁמְשׁוֹן) من شــخصيات العهد القديم، هو بطل شــعبي من إســرائيل القديمة اشتهر بقوته الهائلة وورد ذكره في سفر القضاة في الأصحاحات ١٣ إلى ١٦.

(٢) هو سابع أسفار التناخ الكتاب المقدس في الديانة اليهودية والعهد القديم في المسيحية؛ ولا يوجد خلاف على قدســيته لدى مختلف طوائف الديانتين باستثناء الصدوقيون إحدى الطوئف اليهودية القديمة التي رفضت جميع أسفار التناخ عدا أسفار موسى الخمسة الأولى المعروفة باسم التوراة.

هذه الطرق الخمســة عن فعل الإله في العالم هي الطرق التي كان اليهود في القــرن الأول يُعبرون فيهــا عن إيمانهم بالواحد الذي يعرفونــه على أنه هو الإله الأبدي خالق العالم حيث كان موجوداً وفاعلاً في العالم، وبشكل خاص داخل أرض إســرائيل. ونســتطيع أن نرى ذلك ليس في العهد القديم فحسب، وإنما نستطيع رؤيتــه في الأثار التي خلفهــا العهد القديم في يهودية القــرن الأول وفي كتابات الحاخامات [١]، وفي مخطوطات البحر الميت [٢]، وفي نصوص أخرى.

الآن، عندما نأتي إلى هذه الطرق الخمســة في الأناجيل نكتشــف أن يسوع لا يتحــدث فقط بل يتصرف، ولكن يتصرف كما لو أن هذه الطرق الخمســة تصبح حقيقــة بطريقــة جديدة من خلال ما يقوم به. ونرى ذلك بشــكل خاص في مثال الزارع. الزارع يزرع الكلمة والكلمة تقوم بعملها، ولكن من الذي يقوم بعملية التعليم، إنه يسوع ذاته.

يتحدث يســوع كذلك بطرق مختلفة حول الحكمة: حكمة الإله حيث يقول: «أنا أفعل هذا، وأنا أفعــل ذلك». ويمكنك تتبع تقاليد وحكم العهد القديم، ليس فقط في الأقوال الفردية ليســوع، ولكن في الطريقــة التي يمارس فيه ما كان يقوم به، ونقاشاته مع الرجل الحكيم الذي بنى بيته على الحجارة والرجل الجاهل الذي بنى بيته على الرمال، وهي نموذج لتعليم الحكمة. الرجل الحكيم هو «الشــخص الذي

---

(١) الرَبّانيّ في اليهودية، ويســمى الحبر [والراب والحاخام، هو زعيم ديني. كلمة حاخام العربية ترجع إلى الكلمة العبرية חכם أي «حكيم».

(٢) مخطوطات البحر الميت تضم مايزيد على ٨٥٠ قطعة مخطوطة، بعضها مما سمي لاحقا الكتاب المقدس وبعضها من كتب لم تكن تعرف أو كانت مفقودة. وقد كانت في في جرار فخارية كانت مطلية بالنحاس أول من عثر عليها راعيان من بدو التعامرة المتجولين واكتشف المزيد بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥٦ في ١١ كهفًا في وادي قمران قرب خربة قمران شــمال البحر الميت. وقد أثارت المخطوطات اهتمام الباحثين والمختصين بدراسة نص العهد القديم لأنها تعود لما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول منه.

يســـمع هذه الكلمات من الألغام (الحكم الرمزية) ثـــم يفعلها. وهكذا فإن الحكمة ويسوع متلازمان معاً بشكل وثيق جداً.

ومن ثم، هناك المعبد حيث يتصرف يسوع كما لو كان هو المعبد شخصياً. عندما يقول يسوع إن «خطاياك مغفورة» فهي صدمة حقيقية، غفران الخطايا يُعلن عادة عندما تذهب إلى المعبد وتســـتغفر، ولكن يسوع يقول لك أنك تستطيع أن تستغفر في الشارع، عندما تكون مع يسوع وهو يحدق في مجد الإله.

عندما نعود إلى الشـــريعة اليهودية، نكتشـــف شـــيئاً رائعاً. أحد العلماء اليهود الكبار في يومنا هذا، يعقوب نوســـنر Jacob Neusner، وهو الذي كتب العديد من الكتب الرئيســـية في اليهودية، كتب كتاباً عن يسوع. في ذلك الكتاب، يقول نوسنر إنه عندما يقرأ أن يسوع قال أشياءاً مثل «لقد سمعت أنه قيل كذا وكذا، ولكن أقول لكم: هذا وهذا وهذا »، أريد أن أقول ليسوع هذا: من تعتقد نفسك؟ الإله؟

لقد قدم يســـوع قانوناً جديداً، وقدم تفســـيراً جذرياً جديـــداً للقانون، ويدعي بمعنى ما بأنه تجاوز الطريقة التي كان يُفهم أو يُفســـر بها القانون. وأخيراً هناك الروح، يقول يســـوع «إذا كُنت أنا روح الإله أتخلص من الشياطين فإن مملكة الإله نزلت علي». فما نراه ليس كثيراً، فيسوع يدور بين الناس قائلا: «أنا هو الشخص الثاني من الثالوث. إما أن تؤمنوا بذلك أو لا». وهذه في الحقيقة ليســـت وســـيلة لقراءة الانجيل. بدلاً من ذلك، يجب أن تُقرأ كما قرأها المؤرخون في القرن الأول، بحيـــث يمكننا أن نرى يســـوع يتصرف بحيث نقول جميعـــا: الطريقة الرائعة التي يتعامل بها الإله مع البشر قد حدثت بالفعل.

إنها ليســـت من خـــلال كلمة أو حكمـــة أو غيرها، إنها مَـــن، وفي، ومن خلال شـــخص. الشـــيء الذي يجمع كل ذلك معاً (كتبت هذا في الفصل قبل الأخير من

كتابي يسوع ونصر الإله Jesus and the victory of God) هو أن الكثير من اليهود في أيام يســوع كانوا يعتقدون أنه في يوم ما سوف يعود إله إسرائيل Yahweh في شــخص للعيش داخل الهيكل. تجد ذلك في ســفر حزقيال، وسفر أشعيا، وسفر زكريـا[١]، والعديد مــن النصوص اللاحقة. ولذلك هم يعيشــون على أمل أنه في يوم من الأيام ســوف يعود الإله، لإنه إذا عاد ســوف يعيد بناء الهيكل، ولكن ليس بالطريقة التي فعل بها هيردوس[٢] Herod ذلك. هناك سلسلة من التوقعات تتعلق بعودة الإله. كما نجد في الأناجيل صورة إســتثنائية عن يسوع عند قيامه بالرحلة الأخيرة إلى القدس وهو يحكي قصص الملك الذي عاد.

لقد وجدت كما وجد الأخرون بأن يســوع عندما كان يحكي قصص الملك الذي عاد إلى شــعبه، أو السيد الذي عاد إلى خدمه، لم يكن يتحدث عن العودة الثانية فــي المســتقبل. لم يكن التلاميذ مهيئــين لذلك، كما إنهم لم يكونــوا يعلمون بأنه ذاهب ليُصلب. كان يســوع يتحدث عن أهمية رحلتــه إلى القدس، وهو كان يدعو من لهم آذان إلى أن يســمعوا وأن يأخذوا صورة الإله Yahweh في العهد القديم إلى صهيون Zion ويضعوها في عقولهم وهم يرون النبي الصغير وهو يسافر إلى القدس راكباً حمار. أعتقد أن يســوع راهن على حياته، على أساس الاعتقاد بأنه دُعي لتجسيد عودة الرب إلى صهيون[٣].

(١) أسفار من العهد القديم.

(٢) هوردس أو هيرودس (العبرية: הוֹרְדוֹס؛ ٧٣ قبل الميلاد - ٤ قبل الميلاد) هو ابن الدبلوماســي انتيباتر الإدومــي من زوجتــه النبطية، عين حاكماً على الجليــل ثم أصبح ملك اليهودية. وقد بســط نفوذه على المنطقة الممتدة من هضبة الجولان شــمالا إلى البحر الميت جنوبا، وكانت ايام حكمه تمثل ازدهاراً ثقافياً واقتصادياً، وقد كان حليفاً أميناً للإمبراطورية الرومانية كان مقره في مدينة القدس، أي اورشــليم، وقد اشتهر بمشاريع البناء الفاخرة التي بادرها في هذه المدينة، ومنها بناء معبد القدس الكبير المسمى هيكل سليمان.

(٣) صهيون (بالعبرية : צִיּוֹן ومعناها الحصن) هو واحد من التلين الذين كانت تقوم عليهما مدينة أورشــليم القديمة حيث أسس داود عاصمته الملكية.

كلمة تجسد Embody كلمة إنجليزية، أما المقابل اللاتيني لها فهو Incarnation، ولكنني أفضل كلمة Embody على الأقل في الأماكن التي أقوم فيها بالوعظ حيث يمكن للناس إستيعابها أكثر من اللفظ اللاتيني، ولكنها تؤدي نفس المعنى.

أنا لا أظن أن يسوع يعتقد أنه طُلب منه أن يتصرف على أساس هذا الافتراض. وأعتقد أن هذا كان مخيفاً بشــكل كبير ليســوع. أعتقد أنه كان يعلم أنه قد يكون في الواقع مخطئ. ولكن في نهاية الأمر هناك أناس يصدقون بأن شــيئ ما يمكن أن يتحول، مثل الرجل الذي يعتقد بأنه إبريق من الشاي. أعتقد أن يسوع كان يعلم أن هذه دعوته، وأنه يجب أن يتعامل على هذا الأساس، وأن عليه أن يعيش ويعمل على أساس أن يجسد عودة الرب إلى شعبه.

لهذا الســبب أود أن أقول إن يســوع، بعد موته وقيامتــه (وهذه قصة مختلفة تماما. سنأتي إليها قريباً) تم التعرف عليه بسرعة كبيرة جداً من قبل أتباعه على أنه المجســد لإلــه إســرائيل. واجهوا قيامته، ولكن بعد أن عادوا إلى عقولهم، إلى كل ما شــاهدوه وسمعوه وما عرفوه عن يسوع، صفعوا وجوههم «هل كنتم تعرفون مع من كنتم كل هذا الوقت؟ لقد كنا مع شخص تجسد فيه إله إسرائيل، ثم راحوا يحكون القصص مراراً، بشيئ من الرهبة والهلع والإدراك المتاخر، متفكرين في كل ما حدث طوال الوقت الفائت.

هذه فكرة استثنائية جبارة، ومع ذلك فإن هذه الفكرة تعطي معناً عميقاً ومتجذراً تاريخياً لطريقة رؤية يســوع لنفسه. والآن بالتأكيد يمكن لأي شخص أن يقول لي: قد تكون على حق، وقد يكون يســوع بالفعل نظر إلى نفســه على هذا النحو، وقد يكون تلاميذه وصلوا للتفكير بذلك أيضاً، ولكن بالتأكيد أن يسوع كان مخطئاً، إما لأننا نعلم مســبقاً بأنه إذا كان هناك إله فإنه لا يمكن أن يكون إنســاناً، وإما لأننا

نعلم بشـــكل مسبق بأن أي شخص يتكلم عن نفســـه بهذه الطريقة يجب أن يكون مجنوناً أو مختلاً عقلياً أو مخدوعاً.

لهؤلاء أريد أن أقول حســـناً، أتركوا هذه المســـلمات جانبـــاً في الوقت الحالي، وحاولوا أن تســـتحضروا صورة يهود القـــرن الأول وهو يعتقدون بذلك ويتصرفون على هذا الأســـاس، وبعد ذلك أطرحوا السؤال عن قيامة المسيح، وبعدها أطرحوا جميع أسئلتكم عما نعنيه بكلمة «إله»، لأن المسيحيين الأوائل قالوا بأن كلمة «الإله» لازالت غامضة وأنها تصبح واضحة فقط عندما ننظر إلى يســـوع. يقول القديس يوحنـــا الإنجيلي[1] «لم ير أحد الإلـــه في أي وقت، ولكن الإبن الوحيد الذي يعيش فـــي حضن الأب جعل منه معروفـــاً». وفقاً للغة اليونانية، فإن المعنى الحرفي لهذا الكلام هو «قَدَم لنا تفســـيراً لما هو الإله، وأرانا من هو الإله على وجه الحقيقة». إنه جواب طويل لسؤال جوهري، ولكنني لا أستطيع إختصاره أكثر من ذلك. معظم الناس حســـب خبرتنا يفكرون في الإله والمسيح بهذه الطريقة، ولكن هذه الطريقة التي أفكر بها أنا وهي الطريقة التي فكر بها المســـيح والمسيحيون الأوائل، وكذلك الذيـــن كتبوا الأناجيل، ونحن نقوم بعمل جيد في أن نجعل عقولنا تلتف حول هذا الفهم.

(١) أحد تلامذة السيد المسيح.

ما هي الدلائل على قيامة يسوع؟

دعونـــي أختصر قدر الإمكان. لقد قرأ والـــدي كتابي المطول «قيامة أبن الإله» The Resurrection of the Son of God عندما كان في الثالثة والثمانين من عمره. أســـتغرقت منه قراءة الكتاب المكون من ٧٠٠ صفحة ثلاثة أيام فحســـب. لقد ركز على قراءة الكتاب بشـــكل كامل خلال هذه الأيام، وبعدها أتصل بي تلفونياً وقال لـــي: لقد أنتهيت من قراءة الكتاب، فتعجبت مـــن ذلك، فقال «نعم لقد قرأته وقد بدأت أستمتع بقراءته بعد الصفحة رقم ٦٠٠». أعتقدت أن كلامه نوع من المجاملة الفاترة. لقد كان والدي يعمل في صناعة الأخشاب. قلت لوالدي «هل تعلم يا أبي أن الصفحات الخمسمائة هي جذع النظام Root system، وإن الشجرة إذا لم يكن لها جذع رئيسي فإنها لن تكون قادرة على الانتصاب ولن تعطي أية ثمرة. رد والدي قائلاً «لقد أدركت ذلك ولكنني أفضل دائماً الفروع العليا من الشجرة».

أعود للحديث عن جذع النظام Root system قليلاً. من الأمور التي اســـتمتعت بهـــا عند تأليف الكتاب هو العودة إلى الأســـس التقليديـــة والبحث عن معتقدات الحيـــاة بعد الموت لدى الشـــعوب. يعتقد اليونانيون والرومـــان والمصريون بالحياة بعد الموت، وهناك تنوع كبير في المعتقدات بهذا الشأن، ولكن فكرة القيامة ليست موجودة في العالم اليوناني الروماني.

في الواقع، يقول بليني Pliny، وإســـخيلوس Aeschylus، وهوميروس Homer، وشيشرون Cicero، وجميع أطياف الكتّاب الأوائل بأننا «نعرف بالتأكيد أن القيامة لــم تحدث». وفي الوقت نفســه طور اليهود إعتقاداً لاهوتيــاً محدداً عن القيامة (المقصود قيامة المســيح)، وهو «أن شعب الإله سوف يعود جسدياً إلى الحياة بعد المــوت في النهاية». عامل الوقت مهم، لأن معظم المســيحيين فــي العالم الغربي يســتخدمون كلمة «القيامة» Resurrection بشــكل غامض على أنها تعني «الحياة بعد الموت»، وهو ما لم يحدث أبداً في العالم القديم. لقد كان المصطلح يُســتخدم بشكل دقيق جداً، وهو ما أسميه الحياة بعد الحياة بعد الموت. وبعبارة أخرى، فإنت أولاً تموت وتصبح ميتاً وجسدك غير حي، وبعد ذلك تبعث بمعنى أنك تعيش حياة جسدية، وهي حياة جديدة بعد «الحياة بعد الموت».

نستطيع تتبع الطريقة التي يُتكلم بها عن معتقد «القيامة» في الديانة اليهودية. القيامة هي سلســلة من مرحلتين: بعد وفاتك مباشرة تدخل في مرحلة إنتظار[1]، وبعد ذلك تنتقل إلى مرحلة حياة جديدة تماماً تسمى «القيامة». في الكتاب الذي اســتمتعت بكتابته، رسمت خريطة عن المعتقدات اليهودية في موضوع الحياة بعد الموت على ضــوء خريطة أكبر من المعتقدات القديمــة لموضوع الحياة بعد الموت، وهناك ضمن الديانة اليهودية تباينات بهذا الخصوص.

أمن الفريســيون [2] Pharisees بالقيامة، ويبدو أن هذا كان هو الاعتقاد الشائع

(١) مشابهة لفكرة البرزخ في الديانة الإسلامية.

(٢) الفريســيون أحد الأحزاب السياســية الدينية التي برزت خلال القــرن الأول داخل المجتمع اليهودي في فلســطين؛ يعــود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية ويشــير إلــى الابتعاد والاعتزال عــن الخاطئين؛ كان الفريسيون يتبعون مذهبًا دينيًا متشددًا في الحفاظ على شريعة موسى والسنن الشفهية التي استنبطوها. كان الفريسيون على خلاف دائم مع الصدوقيين الذين أنكروا القيامة والملائكة والأرواح.

في فلســطين اليهودية أيام يســوع. أما الصدوقيــين [١] Sadducees فلم يعتقدوا بالحياة بعد الموت على الإطلاق، وقد أعتقد أشخاص مثل فيلو Philo وربما إسنس Essenes بوجود حياة جسدية خالدة واحدة، بحيث أنك بعد الموت تذهب إلى حيث تذهب وتبقى هناك، بدلاً من أن تمر بتجربة «القيامة» أكثر من مرة [٢].

أكثــر ما يثير الاهتمــام أنه في كل المجتمعات التي خضعت للدراســة في هذا الصــدد، تجد الناس محافظين جداً في معتقدات الحياة بعد الموت. وفي مواجهة الموت، يميل الناس إلى المعتقدات والممارســات التــي يعرفونها والتي أخذوها عن عوائلهم ومن عاداتهم ومن قراهم، وهكذا تتم طقوس الدفن. ولذا فإنه من اللافت للنظر حقاً أن المسيحيين الأوائل المعروفين لدينا في الفترة حتى نهاية القرن الثاني عندما بدأ الغنوصيين[٣] Gnostics باســتخدام كلمة القيامة بمعنى مختلف تماماً فإن كل المسيحيين الأوائل المعروفين لدينا خلال الأجيال الأربعة أو الخمسة الأولى يعتقدون بالحياة الجسدية بعد الموت، رغم أن أغلب ما جاء في هذه القصص جاء من أيام العالم الوثني حيث كانت فكرة القيامة تعتبر هراءاً مطلقاً.

هناك أسطورة حديثة هذه الأيام تقول أننا نحن فقط ممن يمتلك علماً معاصراً

---

(١) الصدوقيون هم إحدى الأحزاب الدينية السياســية التي نشــأت ضمن الديانة اليهودية وذكرت في العهد الجديد؛ فمن المعروف أنه خلال القرن الأول قبل الميلاد ومن ثم خلال القرن الأول انقسم المجتمع الديني اليهودي إلى عدد من الأحزاب والجماعات السياســية داخل المؤسســة الدينية، وقد كان أكبر حزبين هما الصدوقيين والفريسيين

(٢) بمعنى عدم وجود حياة برزخية

(٣) الغنوصية (أو العارفية أو العرفانية) هي مدرســة عقائدية أو فلســفية حلولية نشــأت حول القرن الأول الميلادي. خذت الغنوصية طورا جديدا لدى ظهور المســيحية لإثبــات تواؤم المعتقدين. وكانت لا تتعارض مباشــرة مع الديانات التوحيدية كالمســيحية واليهودية ولكنها تم مقاومتها وقمعها من قبل الكنيسة منذ فترة مبكرة.

لفترة ما بعد التنوير[1] أكتشف أن الأموات لا يبعثون. هؤلاء الناس يؤمنون بالمعاجز الخيالية، ولكنـهم بالتأكيد مخطئون، وهناك نص جميل للويس C. S. Lewis متعلق بهذا الموضوع.

هــذا النص يتكلم عن حمل العذراء بالمســيح، وكيف أن جوزيف [2] Joseph لم يكــن قلقاً بشــأن حمل العذراء، ليس لأنه لم يكن يعلــم مصدر هذا الحمل، وإنما كان قلقاً لأنه كان يعلم بذلك. وكذلك الحال مع قيامة المســيح، فالناس في العالم القديم كانوا يشــعرون بالإضطراب من الإدعاء المسيحي، لأنهم كانوا يعتقدون أن من يموت يظل ميتاً إلى الأبد.

وكخلاصة، نســتطيع تتبع صيغ مختلفة من الديانة اليهودية في فترة المسيحية الأولى فيما يخص القيامة.

أولاً: أنه بدلاً من قيامة تحصل لجميع البشر في النهاية، فإن المسيحيين الأوائل كانوا يعتقدون أن القيامة تختص في البداية برجل واحد فقط. وحســب علمــي لا يوجد يهودي في القرن الأول يعتقد بأن القيامة مختصة برجل واحــد يُبعث قبل كل البشــر، ورغم أن هذا تطــور جديد، إلا أن الجميع يعتقدون بالبعث.

ثانيا: أنهم يعتقدون أن القيامة تنطوي على تحول لجسد مادي. يبدو أن اليهود الذين يعتقدون بالقيامة قد ذهبوا في إتجاهين، فالبعض قال أن القيامة

---

(١) عصر التنوير ويسمى عصر الأنوار (بالفرنسية: Siècle des Lumières) مصطلح يشير إلى القرن الثامن عشر في الفلسفة الأوروبية والذي برز فيه مفكرون وفلاسفة الأنوار.

(٢) النبي يوســف الصديق. يحتفَل بذكرى يوســف كواحدٍ من الأجداد المقدســين في تقويم القديســين في الكنيســة الأرمنية الرســولية يوم ٢٦ يوليو. وفي الكنيسَــة الأرثوذكسية الشــرقية والكنائس الكاثوليكية الشرقية التي تتبع المذهب البيزنطي، يُعرَف باسم «يوسف ذو الجمال الآسر

(البعث) هي خلق جسد جديد مشابه تماماً لما نحن عليه، في حين ذهب البعض الأخر إلى أنه سوف يكون هناك بدن نوراني، يضيئ مثل النجم. تكلم هؤلاء عن نوع جديد من المادية Physicality، نوع جديد من التجسيد Embodiedness – هذا الاعتقاد موجود في كتابات بولس- فهو جسد لكونه جماد وله حجم، ولكنه تحول بحيث لم يعد يحس بالألم أو المعاناة أو الموت، وهذا أمر جديد غير موجود في اليهودية.

ثالثاً: يعتقدون بأن المسيح نفسه بُعث من جسد ميت، وهو ما لا يعتقد به يهود المعبد الثاني Second Temple، لأن أتباع المعبد الثاني يعتقدون أن المسيح ما كان ليُقتل أبداً، وهذا أمر جديد أيضاً.

رابعاً: هم يستخدمون فكرة القيامة بطريقة جديدة تماماً. تم استخدام هذه الفكرة في اليهودية في استعارة Metaphor «العودة من السجن» كما نجدها في سفر حزقيال Ezekiel، ولكن في بدايات المسيحية تم استخدام هذه الفكرة وربطها بالتعميد[1] Baptism والقداسة Holiness ومفاهيم أخرى من العقيدة المسيحية التي لم تكن في البال في اليهودية، ولم يكن معروفاً كيفية إستخدامها لمفهوم القيامة، وهو يمثل طفرة في وجهة النظر اليهودية.

خامساً: أن المسيحيين الأوائل يعتبرون أن إله البشر قدم القيامة كنوع من

(١) التعميد أو المعمودية هي طقس مسيحي يمثل دخول الإنسان الحياة المسيحية. تتمثل المعمودية باغتسال المعمّد بالماء بطريقة أو بأخرى. لشخص الذي يجري تعميده يصبح تابعاً ليسوع المسيح وتابعاً للكنيسة المسيحية. والعماد يمثل موت يسوع المسيح وقيامته في الحياة الجديدة. أيضاً الطفل المعمد يخلّص من الخطيئة الأصلية التي هي خطيئة آدم وحواء ويدخل الحياة مرة أخرى كإنسان جديد. وبحسب الإعتقاد المسيحي، فإن أول عماد في التاريخ كان عماد المسيح على يد يوحنا المعمدان في نهر الأردن.

الهدية، والمسـيحيون مدعوون للعمل مع الإله في عيد الفصح [١] Easter لتوقع ما سـيفعله إله العالم الجديد[٢]. هذه الفكرة جديدة للغاية، ولكنها تمثل تطوراً في إطار الديانة اليهودية فقط.

سادساً: أن عقيدة القيامـة تحولـت من عقيدة مهمة من ضمن عقائد عديدة مهمـة – كمـا هو الحال فـي اليهودية – إلى أن تصبح مركز كل شـيئ، وإذا مـا اقتطعنا هذا الاعتقاد من معتقدات أباء القرن الثاني فإن البناء الفكري لهم يتعرض للتدمير . لابد أن نصل إلى نتيجة مفادها أن شيئاً ما حدث جعل من الاعتقاد بالقيامة ينتقل من الإطار الخارجي إلى المركز.

سابعاً وأخيـراً: لا نجد في بواكيـر المسيحـية توجهاً في الاعتقاد لما يحصـل بعد المـوت. أما في اليهوديـة، فهناك وجهات نظر عـدة، وهناك أيضاً عدد كبير من وجهات النظر بهذا الخصوص في العالم الوثني، ولكن في بواكير المسـيحية لا نجد سـوى القيامة في ذاتها. تثير معتقدات معظم الناس المحافظـين في موضوع الحياة بعد الموت الدهشـة، ولذلك يبدو أن المسيحيين الأوائل كان لديهم سبباً منطقياً في إعادة التفكير في هذا الاعتقاد الهام والشخصي جداً. وعندما ننظر إلى الطيف الفكري لبواكير المسـيحية نجد أن المسـيحيين الأوائل يختلفون حول أمور كثيرة، ولكنهم يُجمعون بصورة تثير الدهشة ليس في إعتقادهم بالقيامة فحسب، بل في كيفية حصولها وكيف ستتم، وكل ذلك شرحته في كتابي بالتفصيل.

---

(١) عيد القيامة (باليونانية: Πάσχα)، ويعرف بأسـماء عديدة أخرى أشـهرها عيد الفصح وأحد القيامة، هو أعظم الأعياد المسيحية وأكبرها، يستذكر فيه قيامة المسيح من بين الأموات بعد ثلاثة أيام من صلبه وموته كما هو مسـطور في العهد الجديد، وفيه ينتهي الصوم الكبير الذي يسـتمر عادة أربعين يومًا؛ كما ينتهي أسبوع الآلام، ويبدأ زمن القيامة المستمر في السنة الطقسية أربعين يومًا.

(٢) هذه الفكرة شبيهة بمفهوم ليلة القدر الذي تقدر فيه أعمال البشر.

كل هذا يفرض علينا كمؤرخين أن نســأل ســؤالاً بســيطاً جــداً: كيف أعتقد المسيحيون الأوائل منذ أقدم الأزمان بالإجماع بفكرة القيامة (البعث). هذا السؤال التاريخي مثير للإهتمام بحد ذاته. بالتأكيد، سوف يرد المسيحيون الأوائل بالقول «لقد كان لدينا هذا الاعتقاد لأننا نؤمن بيسوع». إذا كانت فكرة أن يسوع بُعث من جســد ميت ظهرت بعد عشرين أو ثلاثين سنة من بداية المسيحية كما يقول بعض الباحثين المشككين فإنك سوف تعثر على الكثير من الشواهد التي تبين أنه لم يكن هناك مكان لفكرة القيامة في بواكير المســيحية. لذلك فإن إتســاع نطاق وإجماع المسيحيين الأوائل على الاعتقاد بالبعث يجبرنا على القول بأن شيئاً ما حدث قبل ذلك بوقت طويل مما شكل وصبغ التحرك المسيحي ككل.

عند هذه النقطة لابد من القول «حسناً وماذا عن القصص الإنجيلية؟ ماذا عن الرواية الثامنة والعشرون في إنجيل متى[1] Matthew، وماذا عن الرواية السادسة عشر في إنجيل مرقس[2] Mark؟ وماذا عن القصة الأطول منها في الرواية الرابعة والعشرون من إنجيل لوقا[3] Luke؟ وماذا عن الروايتين الأطول الواحدة والعشرون والثانية والعشــرون في إنجيل يوحنــا[4] John ؟ وبطبيعة الحال، ومثل باقي علماء

(١) إنجيل البشــير متى (حرفيا «نسبت إلى الرسول متى «). هذا الانجيل هو أحد الاناجيل الاربعة التي هي ضمن العهد الجديد الكتاب الذي يعتمده المســيحيين في حياتهم. الأناجيل الاربعة التي هي ضمن العهد الجديــد من الكتاب المقدس والتــي تم طباعتها بصورة تقليدية ابتداء من :متى ويليه وبحســب الترتيب مرقس ولوقا ومن ثم يوحنا. إنجيل متى يسمى تقليديا بإنجيل متى البشير أو المبشر.

(٢) إنجيل البشير مرقس تقليدياً هو الانجيل الثاني في تسلسل الاناجيل الاربعة في العهد الجديد من الكتاب المقدس للمسيحيين، ويسمى إنجيل مرقس البشير أو المبشر. يشرح ويحكي هذا الانجيل عن حياة المسيح ابتداءً بيوحنا المعمدان إلى صعود المسيح إلى السماء بعد قيامته من بين الأموات، لكن إنجيل مرقس يركز بالخصوص على الاسبوع الأخير من حياة المسيح.

(٣) إنجيل البشير لوقا يسرد إنجيل لوقا حياة السيد المسيح ،مماته وقيامته. وان كاتب هذا الانجيل وأعمال الرسل هو ليس واحد، لكن بحسب التقليد تُنسب كتابة أعمال الرسل إلى لوقا.

(٤) إنجيــل البشــير يوحنا هو رابــع إنجيل من الاناجيل التشــريعية في العهد الجديد مــن الكتاب المقدس للمســيحيين، وتقليديا يسمى بأنجيل يوحنا البشــير أو المبشر. القديس يوحنا هو كاتب هذا الإنجيل في الإيمان المسيحي وهذا الإنجيل مقدمته تشهد بلاهوت يسوع المسيح كلمة الله.

الإنجيل أعتقد أن هذه الفقرات كتبت بعد فترة طويلة من موت المسـيح. وأنا في الحقيقـة لا أعرف متى كُتبت الأناجيل، ولا أحد يعرف متى كُتبت، بالرغم من أن العلماء يقولون لنا إنهم يعرفون.

ربما تكون هذه الإناجيل كُتبت في الخمسـينات أو السـتينات من القرن الأول، وبعضهـم يقول أنها كتبت قبل ذلك، كما يمكن أن تكـون قد كُتبت في الثمانينات أو التسـعينات، ولكن فيما يخص حجتي، فهذا الأمر لا يعني شيئاً على الإطلاق. النقطة هي أن القصص الإنجيلية المتعلقة بالبعث لها صفات خاصة ومشتركة بين الأناجيـل الأربعة، والذي يتبين تاريخياً أنه رغم أنها كُتبت في مرحلة متأخرة فإنه يتضح أنها لم تتعرض للتحريف إلى درجة كبيرة، لقد تم تحريرها قليلاً، ولكنها لم تتعرض للتحريف، وهذا مهم جداً.

الخاصية الأولى، هي صورة يسـوع في روايـات البعث. لقد قيل مراراً وتكراراً بأن:

١) إنجيل مرقس كُتب أولاً، وأنه بالكاد كان فيه إشارة إلى البعث.

٢) إنجيـل متى الذي جاء بعد إنجيل مرقس، لم يحتوي كذلك على الكثير مما يخص البعث.

٣) مـع نهايـة القرن، ظهر كل من إنجيل لوقا وإنجيـل يوحنا، وعند ذلك فقط وجدنا قصص أكل يسوع للسمك المشوي وطبخه للفطور على الشاطئ وطلبه من توما Thomas أن يمسه وأمثال ذلك. ووفقاً لهذه النظرية فإن المسيحيين في نهاية القرن الأول بدأوا يعتقدون بأن يسـوع في الحقيقة ليس إنسـاناً، أي إنه ليس رجلاً حقيقياً، ولذلك قام لوقا ويوحنا بتأليف القصص في هذه

المرحلة للقول بأن يســوع كان إنساناً، وأن يسوع الذي رُفع كان له كيان بدني وما إلى ذلك.

المشــكلة في هذه الروايات أنها كانت شــعبية. وجهة النظر الأخرى تقول، أنه إذا كنت يهودياً في القرن الأول وأردت أن تحيك قصة عن المســيح الذي بُعث من جسد ميت فإن المصدر الإنجيلي الطبيعي سيكون الرواية الثانية عشرة من إنجيل دانيال[1] التي تُعد واحدة من أكبر النصوص التي تتحدث عن البعث بالنسبة ليهودية المعبد الثاني. تقول الرواية الثانية عشرة بأن الصالحين سوف يلمعون مثل النجوم في مملكة الأب. في الواقع، إن يســوع أستشهد بهذه العبارة في الفقرة الأولى من الروايــة الثالثة عشــر من إنجيل مرقس. مما يزيد الأمر روعة أن يســوع لم يكن ليظهر كنجم يلمع في أي من روايات البعث لو كانوا قد حبكوا هذه القصص.

من خــلال وجهتي النظر هاتين، تبدو صورة يســوع غريبة جــداً، فهي صورة ليست كما نتوقع، وهي صورة مخالفة لما هو موجود في الروايات اليهودية في ذلك الوقت، وهي متسقة مع ما ورد في أناجيل متى ولوقا ويوحنا، ولذلك يبدو أن شيئاً غريباً ما قد حدث.

كأن الإنجيليــين Evangelists كانوا يريدون أن يقولوا لنا «نعلم أنكم ســتجدون صعوبة فــي التصديق، ولكن هذا ما حدث». لا يمكن للناس أن يصدقوا مثل هذه الأمور. أي شخص يكتب قصصاً خيالية عن عيد الفصح كان ينبغي أن يجعل يسوع أكثر وضوحاً.

---

(١) دانيــال هــو أحد الأنبياء الأربعة الكبار في التراث اليهودي المســيحي، والشــخصية المركزية في ســفر دانيال.

دعوني أقول شيئاً هنا:

إذا أخـــذت روايـــات البعث في أناجيـــل لوقا ومرقس ومتـــى ويوحنا في النص اليوناني ووضعتها جنباً إلى جنب فستجد أنها مختلفة (حتى عندما يتحدثون عن قصة النســـاء اللاتي يذهبن إلى القبر). إنهم يستخدمون كلمات مختلفة مرة بعد أخرى. من الواضح أنهم كانوا ينسخون من بعضهم البعض. الشيئ الثاني، أن هناك غياباً شـــبه كامل لروايات البعث في العهد القديم. في قصة الصلب Crucifixion يبدو واضحاً أن قصة موت يســـوع قيلت مراراً وتكراراً من قبل الطائفة المسيحية، وقد نســـج عليها في الرواية الثانية والعشرين من المزمور Psalm، والرواية الثالثة والخمســـين من مزمور أشعيا Isaiah ومزمور زكريا Zechariah وبقية التلميحات فـــي روايات البعث وأيضاً في روايـــة الدفن. ولكن عندما تنتقل إلى الصفحة التي تليها إلى رواية البعث لا تجد ذلك في أناجيل لوقا ومرقس ومتى ويوحنا. وبالمثل، فإن يوحنا يقول عندما ذهب التلاميذ إلى القبر لم يكونوا يعرفون الكتاب المقدس الذي يقول أن يســـوع سوف يُبعث من جسد ميت، ولكن يوحنا لم يستشهد بذلك. وفي الطريق إلى عمواس Emmaus يشرح يسوع الكتاب المقدس، ولكن مرة أخرى لا يقول لنا لوقا أي شيئ عما قاله يسوع.

هـــذا أمر غريب جداً. فإما أن نقول أن الكنيســـة الأولـــى هي التي كتبت رواية البعـــث علـــى غرار ما ورد في العهـــد القديم وأن متى ويوحنـــا ولوقا ومرقس قد اســـتندوا إلى هذه الروايات، أو أن نقـــول أن هذه القصص تعود إلى حقبة قديمة جداً في النقل الشـــفهي التي تسبق الإنعكاس اللاهوتي Theological Reflection. في تقديري أن الاحتمال الثاني هو الأرجح بدرجة كبيرة.

الميــزة الثالثة الرائعة لهذه الروايات، هو موقع المرأة فيها. في العصور القديمة والعصر اليهودي والوثني، لم تكن تُقبل شهادة المرأة في المحكمة. ينقل بولس Paul عن الإنطباع الســائد عن المســيح في ذلك الوقت قائلاً «هذه قصة قيلت لي. لقد صُلــب من أجل تخليصنـــا من الذنوب، ووفقاً للكتاب المقــدس فإنه رُفع في اليوم الثالث ثم رأه رجال ســيفاس Cephas عن طريق جيمس، ومن قبل بعض تلامذته، ورأه ايضاً خمســمائة شــخص في إحدى المرات، وأخيراً رأيتــه أنا». ولكن نرفع رؤوسنا ونسأل بولس ولكن أين النساء؟ والجواب أنه في بداية الخمسينات لم يكن يُسمح للنساء بالخروج لأنهم كانوا يعلمون أنهم سيكونون في ورطة، ونحن نرى هذه الورطة عندما نقرأ سيلســوس Celsus وهو يصــب جام غضبه على البعث بقوله «هذا الاعتقاد مبني على شهادة نساء مجنونات».

مــن المدهش أننــا نجد في أناجيــل متــى ومرقس ولوقـــل ويوحنا ذكر لمريم المجدلية [1] Mary Magdalene أو مرايم (جمع مريم) أخريات ونساء غيرهن.

ومــن بين كل الناس أختيرت مريم المجدلية كشــاهدة رئيســية، ولذلك نجدها فــي الأناجيل الأربعة، ونحن كمؤرخين ملزمين بالقــول أن هذه القصص لو كانت وُضعت بعد خمس ســنوات ناهيك عن ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة لما وجدنا مــريم المجدلية تلعب هذه الــدور. من وجهة نظر المدافعين عن المســيحية الذين يريدون إقناع الجمهور المشــكك بأن المســيح قد بُعث من جســد ميت فإن إدخال مريم المجدلية هنا مثل من يطلق النار على قدميه. لا يمكن للمسيحيين الأوائل ان يفعلوا ذلك مطلقاً. القصص –التي تتحدث عن عثور النسوة على القبر– لابد من التعامل معها على أنها صحيحة تاريخياً.

(١) مريم المجدلية من أهم الشخصيات المسيحية المذكورة في العهد الجديد وتعتبر من أهم النساء من تلاميذ المسيح والشاهدة على قيامته وأول الذاهبين لقبره حسب ماذكره الانجيل.

الصفة الرابعة والأخيرة لهذه المواقف، وهنا أتحدث كوني مبشراً مارس التبشير في كل عيد فصح لمدة خمس وثلاثون ســنة. المبشرون وفقاً للعادة الغربية يقومون بالتبشــير عن قيامة المسيح، والتبشــير عن المستقبل، وعن بعثنا نحن وعن ذهابنا للجنة. ولكن في أناجيــل لوقا ومرقس ويوحنا ومتى لا نجد ذكراً لقصص البعث. علــى العكس من ذلك فإن بولس كان فــي كل مرة يتحدث فيها عن البعث يتحدث فيهــا عن مســتقبلنا. العبرانيين Hebrews (اليهود أو بني إســرائيل) يوجهون لنا الــكلام عــن قيامة المســيح وعن بعثنا نحــن، وفي كتاب الوحي نجــد ربطاً بين بعثنا وبعث يســوع. يتفق كل من جستن الشــهيد[1] Justin Martyr، وأغناطيوس الأنطاكــي[2] Ignatius of Antioch، وإيريناوس[3] Irenaeus بالقول: «نتحدث عن بعث المســيح لينعكس ذلك علينا». ولكن متى ويوحنا ولوقا ومرقس لا يقولون «أن يسوع سوف يُبعث، وبالتالي فإننا سوف نبعث في اليوم التالي». هم يقولون، وهذا مثير لتعجب الناس «إن يســوع ســوف يُبعث، وإنه هو حقاً المســيح». مخلوق الإله الجديد ظهر، ومهمتنا هي عبادته لأنه يجســد إله إسرائيل خالق الكون». وبعبارة أخرى، تريد القصص التي نجدها في الإنجيل أن تقول ببســاطة لم تقال من قبل «إن يســوع قد بُعث، وأننا سوف نُبعث»، وهو ما نجده واضحاً عند بولس بدءاً من أواخر الأربعينات.

(١) القديس جســتن كان من المبشــرين الأوائل وهو أقدم الشــارحين للوجس في القرن الثاني. استشهد مع تلامذته واعتبر قديساً للكنيسة الكاثيولكية.

(٢) أغناطيــوس الملقب بالنوراني أو الأنطاكي والذي يدعى أيضا ثيوفــوروس (باليونانية: Θεοφόρος أي حامل الإله)، وهو قديس وأحد آباء الكنيســة كان على الارجح أحد تلامذة الرســولين بطرس ويوحنا .هو ثالث أساقفة أو بطاركة أنطاكية بعد بطرس وإفوديوس الذي توفي حوالي سنة ٦٨.

(٣) القديــس إيرينيئــوس (القرن الثاني الميلادي - نحو عام ٢٠٢ م) هو أســقف مدينــة لوغدونوم في بلاد الغال، ثم أصبح علمًا وجزءًا من الإمبراطورية الرومانية (الآن هى مدينة ليون، بـ فرنســا). وكان القديس إيرينيئوس أحد أشــهر آباء الكنســية الأوائل ومن أهــم المدافعين عن العقيدة المســيحية، وكانت كتاباته تقويمية خلال فترة بداية انتشار ونمو علم اللاهوت المسيحي.

من كل ما سبق نصل إلى عدة استنتاجات. حتى نتمكن من تفسير صعود نجم المسيحية في بدايتها، وحتى نستطيع تفسير وجهات النظر الأربع في موضوع البعث علينا أن نقول أن الكنيسة في وقت مبكر جداً كانت بالفعل تعتقد أن يسوع بُعث جسدياً من جسد ميت، وليس لدينا دلائل على أن المسيحيين الأوائل كانوا يعتقدون على خلاف ذلك. ولكن هل نستطيع كمؤرخين أن نفسر ذلك؟ كثيراً ما يقول الناس «إنه بالتأكيد أبن الإله، وكان بإستطاعته أن يفعل أي شيئ. ولكن هل هذا يستند إلى العقل؟ ولكنني لا أريد أن أفعل ذلك، وإنما أريد أن أكون مخلصاً للنصوص التي لا تقول ذلك. علينا أن نسأل: كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة الاستثنائية في المقام الأول، والقول بأن هناك قصصاً تؤكد حصولها.

لقد اكتشفت خلال نظري في التفسيرات التاريخية أن هناك شيئين قد حصلا:

١) كان هناك قبر فارغ وكان معروفاً أنه القبر الصحيح.

٢) وكان هناك ظهور Appearances ليسوع الذي رُفع.

من المؤكد أن هذين الشيئين حصلا. لأنه إذا كان هناك قبر ولم يكن هناك شبيه فإن كل شخص في العالم القديم كان سيصل إلى نتيجة مفادها أن الجسد قد أُختطف. كان من المعتاد سرقة القبور، وخاصة إذا كان الموتى من الأغنياء أو المشهورين، فقد يكون هناك جواهر أو شيئ يستحق السرقة، ولكن الناس سوف يقولون ما قالته مريم «لقد أخذوا الجسد، لا أعرف ماذا حدث له»، ولم يكن ليتكلموا أبداً عن البعث إذا كان القبر فارغاً.

وبالمثل لا يمكننا تفسير البيانات التاريخية التي رأيناها بالقول أن تلامذته كانت لهم خبرة من نوع ما جعلتهم يلتقون بيسوع. هؤلاء يعلمون أن يسوع قد قُتل، ولكنهم

جميعاً يعرفون عن الهلوسة والرؤى والأشباح. الأدب القديم – اليهودي والوثني- مليئ بمثل هذه الأمور، وهي تعود إلى زمن هوميروس Homer، ونجدها في شعر فيرجيل[1] Virgil، فهي موجودة في كل مكان.

حاول البعض حديثاً من باب الجدال أن يقول أن البعث لا يمكن أن يكون قد حصل «عندما يموت الذين تحبهم فأنت تتصورهم معك في الغرفة، يضحكون معك وربما يتحدثون إليك، وفجاءة يختفون مرة أخرى، ولعل هذا ما حدث مع التلامذة». وفي الواقع أنني قرأت بعض من هذا سابقاً. هذه الظاهرة موثقة كجزء من حالة الحزن، ويمكنك أن تفسرها كما يحلو لك، ولكن المسيحيين الأوائل كانوا يعرفون عن هذه الظاهرة كما نعرف. هم يعرفون جيداً أن هناك هلوسة وأشباح ورؤى وما إلى ذلك. بعبارة أخرى، إذا كانت لهؤلاء تجربة قوية مشابهة مع المسيح، ولكن إذا كان القبر ليس فارغاً عندها سيقولون «يا إلهي، لقد كانت تجربة قوية ولكن يسوع بالتأكيد لم يرفع من جسد ميت، لأن الجسد الميت لا يرتفع، وها هو جسده في القبر».

في هذه النقاط علينا أن نذكر أنفسنا بالطريقة التي يدفن بها اليهود موتاهم. معظم اليهود في فلسطين يدفنون موتاهم على مرحلتين. المرحلة الأول بلف الميت بكفن مع الكافور ووضعه في لحد في قبر صخري، أو وضعه في سرداب في المنزل، وهم لا يدفنون الموتى على الطريقة الغربية كما يحدث في الوقت الحالي، حيث يُدفن الميت في قبر محفور في الأرض ويملئ.

النقطة هنا هي، أن جسد يسوع لو كان موجوداً في القبر لكان من السهل على التلاميذ أن يجدوه، ولذلك فإن علينا أن نقول أنه لابد أنه كان هناك قبراً فارغاً،

(١) فيرجيل (٧٠ ق.م – ١٩ ق.م) شاعر روماني .

ولابد أنهم شـــاهدوا أو اجتمعوا مع شخص ما اعتقدوا أنه يسوع، على الرغم من أنه تحول بطريقة لا نتوقعها، ونجد نحن كقراء أنها مربكة جداً لنا.

والآن نأتـــي إلى الحركة الأخيرة في مباراة شـــطرنج. كيـــف يمكننا كمؤرخين أن نفســـر الحقيقتين اللتين ذكرتهما: القبر الفارغ وظهور شـــبيه ليسوع؟ التفسير الأســـهل لذلك هو أن يسوع بالفعل قد رُفع من الجسد الميت، وأن التلاميذ بالفعل التقوا بيســـوع على الرغم من أنه تم تجديد جسده وتحول بطريقة يمكن معها أن يبدو حياً. لكن بعث يسوع بالفعل لا يوفر لنا تفسيراً كافياً للقبر الفارغ واللقاء مع يســـوع. بعد قراءتي لكل الفرضيات الأخرى المحتملة في كل الأدبيات أجد أن هذا التفسير ضروري.

■ أنتوني فلو: ملاحظات ختامية

انا معجب بطريقة الأسقف رايت، فهي جديدة تماماً. إنه يعرض الأمر بطريقة جديـــدة لأول مرة. وهذا مهم جداً، خصوصاً في المملكة المتحدة والتي يكاد الدين المسيحي يختفي منها.

من المؤكد أن هذا شيئ رائع وراديكالي. هل يمكن أن يكون هناك وحي مقدس؟ كما قلت لا يمكنك أن تحد من قدرات الإله المقتدر إلا إذا كان ذلك مســتحيلاً من الناحية المنطقية، وماعدا ذلك فهو ممكن للإله المقتدر.